

رواية

رضا سليمان

أسيرة العشق

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠م

رقم الإيداع

٢٠١٩/١٤٣٤٠

بطاقة فهرسة

سليمان، رضا

أسيرة العشق: روايـة/ رضا سليمان، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

٣٩٠ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٦-١٨١-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣



دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

مروة صلاح

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق والإخراج

أحمد البسيوني

رضا سُليمان

أسيرة العشق

رواية

إهداء

محبوبتي ..

إليها أينما كانت ..

بعض من تفاصيل العشق..

.. .. وما زلت به أحيا.



ورسائل الحب الصامتة تقرؤها القلوب العاشقة..

(١)

أروى

تتوقف سيارة حديثة، يقودها رجل أشيب الشعر، تتبع شركة نقل خاصة من تلك الشركات التي تتعامل مع الجمهور عن طريق تطبيق الشركة على شبكة الإنترنت "طلب السيارة، تحديد المسافات، تحديد الأجر، السائق المناسب أيضًا".

تفتح الباب وتهبط من السيارة بسرعة كأنها تخشى أن تؤذي أَدِيمُ الأرض بقدميها، فكانت تمسها مسًّا، لم ترفع عينيها عن الأرض، كأنها تتأمل شيئًا أَو كأنها تسألها المغفرة، لكنها حقيقة لا ترى أي شيء، شيء واحد فقط يسيطر عليها وإن كانت لا تدركه، لكنها.. مستقبلاً.. سوف تدركه.. عندما تتألم الفقد.. فقد الروح.

تخطو برشاقة غزال شارد وخفة لاعبة تنس، يرفرف شعرها على كتفيها مثل جناحي طائر يختال على صفحة هواء لا نهائية. دلفتْ عبر البوابة الرئيسية

للمنزل تضم على صدرها كتابًا، حذاؤها الرياضي لم يكن سبب رشاقة خطواتها على الأرض بقدر ما كانت حيويتها النابعة من كل خلية من خلايا جسدها، مدفوعة بقوة خفية لا تعرف تفاصيلها وإن كانت تستشعرها، بنطلونها الأزرق "الليكرا" يُظهِر ثنايا جسدها، بلوزة من الحرير بلون السماء فضفاضة ترفرف هي الأخرى على أنغام عصفور يحلق في دائرة على مقربة هي مركزها على الأرض.

يتدلى من أذنيها عبر موجات شعرها أسلاك رفيعة خاصة بـ Handfree تبث بداخلها ألحان هادئة مع صوت أنثوي عذب يهمس بكلمات الحب، يزداد ذلك البريق في عينيها، تحلق ابتسامة بِكر على وجنتيها. في قفزات سريعة، مع تمايل يخضع بلا إدراك لنغمات اللّحن، تعتلي درجات السُّلم، ترتقي بخفة حتى تصل الطابق الأول العلوي في تلك البناية الواقعة في قلب حي الياسمين، شقة متميزة تطل على حديقة واسعة ومنطقة خدمات تتوسط الحي، اشتراها والدها منذ عدة سنوات قبل أن تلتحق بالجامعة، اشتراها ببعض ما حصده من غربته في دولة شقيقة.

قبل أن تمد يدها بالمفتاح لتفتح باب الشقة، يُفتح الباب أمامها، تقابلها بابتسامتها التي تحتوي الكون، تخطو إلى الداخل خطوة واحدة، تفتح ذراعيها لتحتويها في حنان مثل فيض نهر مستمر عبر الزمان والمكان، تضع كتابها على الكونسول بينما تُغلق الباب من الخلف بقدمها.

في أيامها السابقة كانت تبادلها القبلات السريعة، اليوم لا تشعر لماذا ارتمت في أحضانها، تُقبِّلُهَا في سعادة، تتأمل عينيها الزرقاوين وما تزال الأيدي

متشابكة، هي أقصر منها قليلًا، زادها وضوحًا ذلك الحذاء الرياضي الذي تنتعله بينما تقف هي حافية القدمين، شعرها الناعم تعقصه خلف رأسها على هيئة ذيل حصان، تخطت الأربعين منذ خمسة أعوام وما تزال تحتفظ بجمالها، شعرها الأسود الفاحم لم تتخلله شعرة واحدة بيضاء، فقط ترتدي عوينات طبية حديثة يتماوج فيها لون أزرق ليعكس صور شفافة للمكان من حولها، شفتاها مكتنزتان كشفتيها، لقد ورثتهما عنها تمامًا كما ورثت ذلك الشعر الناعم الكثيف، لم ترث عن والدها غير بعض من طول الجسد، وسوف تكتشف مستقبلًا أنها ورثت عن أمها أهم ما في جسدها.. قلبها النابض.

تهبُّ نسمة صيفية من الشرفة الشمالية تحمل عبق زهور الأُقْحُوَانُ المنتشرة في أحواض الزهور أمام البناية، تملأ أروى صدرها بالعبير الممزوج بمعطر تنثره أمها في المكان كل صباح، تنفض رأسها لتعود إلى المكان، تسحب يديها من يد أمها لترتمي فوق الكنبة الوثيرة التي تواجه التليفزيون، بحركة لا إرادية تُمسك بالريموت لتتنقل بين قنوات التليفزيون غير راغبة في شيءٍ بعينه.

تتأملها "هدى" لحظات، تودُّ لو تخترق حاجب صمتها لتتعرف على ما يعتمل بداخلها، تعلم أن "أروى" رقيقة، متأملة، تلمُّ بجانب غير قليل من الثقافة، لا تحمل ضغينة، تحمل الحب لكل الناس، لكنها اليوم أكثر تألقًا، تتأملها أكثر، هناك بريق في عينيها تعلمه جيدًا، تنتشر من جسدها رائحة لا تستطيع وصفها لكنها تستشعرها بقلبها وليس بأنفها، تعود من لحظة شرودها على صوت أروى تقول:

- شادي أضحكنا اليوم كثيرًا يا هدى.

تسعد كثيرًا عندما تناديها باسمها "هدى"، تشعر بها صديقة، كم تمّنت ذلك طوال السنوات الماضية، اثنتان وعشرون عامًا مرت منذ زواجها، رُزقت بابنتها أروى بعد عام واحد، وهبتها حياتها، انتظرت أيامًا.. شهورًا.. سنوات.. حتى نمت وتفتحت وتحولت من أروى الابنة إلى أروى الصديقة، قررت أن تعيش لها فقط، تجربة إنجابها المريرة والتي ما تزال تحتفظ بتفاصيلها كـ "سر رهيب" بداخلها، حالت بينها وبين أن تُنجب مرة أخرى، يكفيها نبتة واحدة لترويها بماء حياتها، زهرة واحدة تحتويها بين جنباتها لتطفئ بها نيران ذلك الماضي المشتعل.

أروى تحتل كل تفاصيل حياتها، تعيش بها ومن أجلها، لا يهتم زوجها كثيرًا، فما هي إلا شهور قليلة بعد زواجه بها حتى يعود إلى حياته الأولى التي لا تعلم عنها الكثير، يعمل في تلك الدولة قبل أن يتزوجا، بعد الزواج بعدة شهور تسافر معه.. تسأم الحياة في وجوده، ترفض الاستمرار في تمثيل ذلك الدور، دور الزوجة التي تتبع زوجها، تقرر الاستقرار بـ أروى في مصر مع بداية التحاقها بالتعليم.

للمرة الثانية تعود من شرودها على صوت أروى وهي تغرد مثل بلبل فوق غصن:

- على فكرة يا هدى.. شادي حجز لي في رحلة الكلية إلى الفيوم الأسبوع المقبل.

لم تكن لتثنيها عن رغبة ما، كل ما تريده أروى تفعله، لا لشيء إلا لثقتها بها، تترك لها مطلق الحرية منذ أن التحقت بالجامعة، فقط.. من بعيد تلوح لها

بالمحظور.. تشير برفق نحو عثرات الطريق كيلا تتعثر فيها، تُلقي ومضات نور عَلّها تُضيء لابنتها لحظة عتمة.

- شادي أعطاني اليوم رواية صدرت حديثًا.. (تشير إليها فوق الكونسول بجوار الباب) تخيلي يا هدى.. لقد اشتراها وأعطاني إياها لقراءتها قبل أن يقرأها هو.

في الدقائق القليلة الماضية ذكرت أروى تسم شادي ثلاث مرات، وفي كل مرة كانت تنطق اسمه بنغمة مختلفة تستشعرها هدى بدون أن تُعلق. تعلم جيدًا تلك النغمة في نطق الأسماء المحببة إلى القلب، تعلم أيضًا ذلك البريق في عينيها والذي يصاحب حركة صدرها ارتفاعًا وانخفاضًا مثل المتلذذ بدفقات الهواء التي تحمل الكلمات الحائمة حول المحبوب.

قبل أن تجلس بجوارها تسألها:

- أحضر لكِ طعامًا؟

- لا..

أروى تنطق الـ "لا" مصحوبة بحركة خفيفة من أنفها لأعلى مع انسدال سريع، لا إرادي، لجفونها لتغمض عينيها، فتظهر أعلى جفونها مثل أَكِمَّة لزهور البنفسج.

تجلس إلى جوارها، تغوص بثقلها في قلب لوح الإسفنج المرتفع، أضافت السنوات زيادة في الوزن، قديمًا كانت تُجن لو شعرت بأي زيادة في وزنها، تشق على نفسها لدرجة التعذيب إن هي رأت بداية امتلاء في جزء ما من

جسدها، أما وقد قاربت على لفظ الحياة بأكملها فقد تركت جسدها وشأنه، زاد وزنها، ظهرت الثنايا على الجانبين، العضُدان المكتنزان يظهران بوضوح الآن مع ذلك الثوب المنزلي الشَّفِيف.

تمد ذراعها فوق مسند الكنبة، مثل قطة ترتمي أروى بجسدها لتغوص في صدر أمها بينما تتابع التليفزيون، تضمها هدى في حنان، تمسح شعرها برفق، تشعر بوجيب قلبها يتخللها.

أروى تُحب.

الأمر لا يحتاج إلى كثير من الذكاء، فقط قليل من المشاعر. هدى تمتلك قلبًا صِيغ من المشاعر، ثم هي أم، أروى وحيدتها وتوأم روحها.. باستمرار تشعر بما تفكر فيه قبل أن تتحدث به.

العيون تفضح المحب، التنهيدات تُفصح عما بداخل المحب، كل جزء في جسد المحب يتحدث بالحب.

أروى تحب..

يهمس قلبها بذلك.. جسدها يضغط حانيًا على صدر هدى يتلمس يقين الوجود، المحب لا يشعر بالوجود مِن حوله، يُحلق في فضاء الكون مثل عصفور بين طيور بألوان مغزولة من ألوان الطيف.

أروى تحب..

للحب رائحة.. عبق.. ينتشر من خلايا جسد المحب ليغطي المكان، هدى اشتمت رائحة الحب تملأ المكان منذ أن دلفت أروى، تمد يدها في رفق

لتبحث عن يد ابنتها، تجدها.. تعمدتْ ألَّا تكون حركتها مقصودة، عانقتها أروى بأصابعها الرقيقة، ضمت راحة أمها إلى شفتيها تقبلها. تبتسم هدى.. قبلة أروى الشاردة ليست لها.

تركتها تغوص في أحلام يقظتها حتى تمتلئ، لا تريد أن تُخرجها من تلك اللحظات التي تعلم جيدًا أنها الحياة.. تعلم أنها رسالة الكون.. الحب.. تفاصيل الحب. إن لم تعش أروى تفاصيل الحب اليوم، إن لم تتسلم رسالة الكون، فلن تشعر بطعم الحياة على الإطلاق.

نعم.. أروى تحب..

تمد هدى يديها لتمسك، برفق، كتفي أروى، حتى تواجهها، تتأملها في حنان، تعلو وجهها ابتسامة عريضة تكاد تحتوي الكون، ترتبك أروى، تسدل جفونها، تواري شيئًا لا تعلم أنه يفوح بالرغم منها، تزيد هدى من بسمتها وهي تسألها:

- أروى..

- نعم يا ماما..

- أتحبين؟!

ترتد أروى إلى الخلف معتدلة، تضحك بسخرية لتواري رعشة سرت بداخلها، تنقبض أحشاؤها ويدق قلبها بعنف حتى إن أمها لاحظت ارتفاع صدرها وانخفاضه، بل استمعت إلى صوت دقات قلبها حتى أشفقت عليه.

هدى تعلم أن أروى تخشى الاعتراف أمامها بالحب، أو على الأقل يكون ذلك في الأيام الأولى قبل أن تتكشف الأمور.

تعلم أن أروى تخشى أن تُضبط متلبسة بالحب.. آه يا أروى.. آه يا حبيبتي لو تعلمين.. الحب ليس بجريمة، الحب هو الفضيلة العظمى يا أروى.

تشهق هدى في سعادة و هي تضم ابنتها في قوة حانية، تطاوعها أروى.. فإن لم تضمها لفعلت هي وارتمت على صدرها كي لا تقرأ عينيها. تربت على ظهرها و تمسح شعرها، تُقبّلها مرة.. ومرات.. تهمس من بين قبلاتها:

- الحب ليس بجريمة يا أروى.. الحب رسالة الله.. و كلنا رُسل بُعثنا لنحمل رسالته، لكن هناك مَن يأبى.

لا تعلم لماذا خرجت منها الكلمات الأخيرة حارة.. تحمل آلام العمر.. " لكن هناك مَن يأبى"، كرّرتها للمرة الثانية، ثم.. ثم تَفَجَّر البركان الخامد.. وتبكي..

تبكي هدى فجأة بصوت مسموع تتخلله آهات ملتهبة تأتي من أعماقها، تناثرت كلماتها بين شهقيها وزفيرها.. تردد نفس الكلمات على مسافات متباعدة.. " الحب.. ليس بجريمة.. الحب رسالة الله.. رسالة الله.. وكلنا.. كلنا رُسل.. بُعثنا لنحمل رسالته.. لكن هناك مَن يأبى.. هناك مَن يأبى.."

تعود أروى إلى الخلف، تتأمل أمها الباكية بدهشة، تُلْجِم المفاجأة لسانها، تبحث عن سبب بكائها لا تجد، لو أنها غضبت مما لاحظته عليها ما أكدت لها أن الحب ليس بجريمة! لِمَ البكاء الآن؟!

أخيرًا تمد أروى ذراعيها لتحتوي أمها في حضنها الصغير، ترتمي هدى مثل طائر كُسر جناحه، تَنْشِجُ لحظات، تهدأ.. تناولها أروى منديلًا ورقيًّا برائحة الخوخ سحبته من علبة فوق منضدة جانبية.

تجفف دموعها وعيناها مثبتتان على أطراف قدميها كأنها تُحصي عدد أصابعها أو طلاء أظفارها، فجأة تقف لتغادر.. بدهشة تتابعها أروى وهي تدخل غرفتها وتغلق خلفها بابها، تشعر.. ولا تدري لماذا.. بأن أمها استندت بظهرها إلى الباب لئلا تسقط، ثم تنزلق حتى تجلس أرضًا لتكمل بكاءً أوقفه خَجَلُها.. تمنت لو تخبرها ألَّا تخجل.. بكاء أم أمام ابنتها ليس ضعفًا، لا يجب أن تخجل وتترك المكان بسببه.

الدهشة لم تكن الوحيدة التي شلت حركة أروى، إنما تغير الأمر بهذا الشكل هو ما جعلها جالسة في مكانها لا تعرف ما الخطوة التالية، لقد واجهتها أمُّها بأمر لم تفكر فيه من قبل.. الحب.

هل تحب شادي؟!

تندهش أروى ثانية! مَن الذي ذكر اسم شادي؟! لم تنطق به أمها.. سألتها فقط بـ " أتحبين؟" لماذا اختارت شادي لتسأل نفسها عنه؟ هل تحبه أم لا؟! لقد تحول نحوه سُكّان سفينتها بلا أي توجيه منها..

هو شادي لا مفر يا أروى..

لا.. لا.. شادي مجرد زميل دراسة..

لا.. هو صديق.

هو...... ماذا؟!

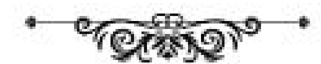
هل أخطأتْ حينما تحدثت عنه أكثر من مرة منذ أن دخلت؟! هل نطقت اسمه بطريقة ما، توحي بمشاعرها نحوه؟ هي لا تعلم.. لكن ما تعلمه هو شيء واحد فقط.. هي تَسْعد بقربِه منها، تفكر فيه حال بُعده عنها.

هدى..

تنفض أروى رأسها وهي تنطق باسم أمها، تقف متوجهة إليها، يجب ألا تتركها هكذا؟ يجب أن تفهم لِمَ البكاء! اقتربت من الغرفة، برفق تدق الباب، تستمع إلى صوت دقاتها مكتومة، نعم.. هدى تجلس خلف الباب يمتص جسدها رنين دقاتها.. "ماما..؟!".. تهمس بها رقيقة متسائلة ثم تنتظر لحظات قبل أن تعاود النداء.

صمتٌ ثقيل يخيم على المكان، تسمع أروى حركة خفيفة، لحظة يُفتح الباب كاشفًا عن هدى مبتسمة متماسكة وإن كانت مرهقة، يبدو عليها أثر صراع. تقترب منها أروى لتضمها، تطاوعها لحظة قبل أن تغمرها بقبلاتها وهي تقول:

- أخبريني عن شادي يا أروى.



ويطيب للعاشق سماع أحاديث الغرام.

(٢)

الشَّرك

لم تستغرق أروى غير دقائق قليلة في حديثها عن شادي، مؤكدة أن ما بينهما مجرد صداقة، تبتسم هدى، هي تعلم جيدًا تفاصيل تلك المرحلة وما يُطلق عليها.

ما جذب انتباه أروى، تلك الرغبة.. بل تلك السعادة التي كانت بادية على ملامح هدى وهي تنصت لكل كلمة تتفوَّه بها. تستزيدها كلما توقفت، حتى إن أروى حكت بعض التفاصيل أكثر من مرة وإن كانت هي الأخرى لا تدري لماذا تكرر بسعادة كمن يلتذُّ بشراب محبب.

توقفت أروى متأملة هدى لحظات، تبتسم قائلة:

- هدى.. يحلو للمحب سماع أحاديث الحب.. أليس كذلك؟

- بلى يا أروى.

أجابتها هدى سريعًا بدون أن تدرك الشرك الذي دبرته لها ابنتها، لكنها أدركت بعد تلك الابتسامة التي غمرت وجهها، ابتسامة تسألها عن سعادتها وهي تستمع لحديث الحب، هي سعادة مُحب بلا شك..

- وإن كنتِ المحب، فمَن المحبوب إذن يا هدى؟!

اغتاظت هدى لسذاجتها ولدهاء ابنتها، لقد سقطت كفراشة أمام نسمة هواء، لكنها سوف تحلق ثانية، وسوف تهبط فوق الزهر ليعزفا معًا أنشودة عشق. حركت يديها في الهواء كمن ينثر شيئًا وتساءلت:

- أين أحاديث الحب التي تُمتع المحب.. فأنتِ تتحدثين عن صديق يا أروى؟!

تضحك أروى ملء قلبها، فقد نصبت الشَّرك لتُوقع أمها فسقطت فيه أولًا. تترك المكان لحظات وصوتها ما يزال يتردد في المكان:

- لحظة يا هدى.. سوف أعدُّ العصير.

تزفر هدى، تزم شفتيها سعيدة، يسري في جسدها خدر لذيذ، لقد كبرت أروى وها هي تبادلها أحاديث الحب، تتذكر صديقتها "منى"، صندوق أسرارها الوحيد في هذا الكون الواسع.

تأتي أروى بكوبي عصير مانجو وقد زيَّنت حواف الكوبين بشرائح التفاح والموز، تجذب أمها برفق إلى الشرفة، ذلك المكان الذي تعرف جيدًا أن أمها تحب الاختلاء فيه بذاتها، تُمضي فيه الساعات شاردة الذهن. تضع العصير فوق المنضدة وما زالت يدها ممسكة بيد أمها، تدور لتواجهها وتجلسها في

مقعدها المفضل مثل أم تهدهد طفلتها. تتأملها هدى وهي تناولها كوب العصير، كم كانت في حاجة إليه لترتوي، جفاف حلقها يؤلمها، يكفيها ذلك الجفاف المؤلم الذي يحتوي قلبها مثل أشواك شجرة قاسية في صحراء مترامية الأطراف.

- لا بد للبركان يومًا أن يثور.

تتأملها هدى مستفهمة وهي ترتشف العصير، تُكمل أروى:

- لقد ثار بركانك يا أمي.. يبدو أن هناك أمرًا عظيمًا تخفينه عني.. وآن الأوان لمعرفته.

- لا شيء يا أروى.

تزوم أروى متصنعة البكاء مثل طفلة تلهو أمام دميتها:

- سوف تخبرينني يا هدى.. لن أتركك أبدًا يا طفلتي.

ثم تضحك وهي تقف لتجلس على حجر أمها، واضعة ذراعها اليمنى على كتفيها محتوية رأسها في حنان عاشق، تزفر هدى بشدة، أنفاسها حارة لم يرطبها العصير حتى. تُقبّلها أروى متسائلة:

- ها يا قطتي الصغيرة.. هل ستخبرينني بسبب تلك الزفرات الحارة، أم ستغضبينني؟

تبتسم هدى، تضع كوب العصير فوق المنضدة، تعود أروى إلى مقعدها، تمد هدى ساقيها أمامها وترفع يديها إلى أعلى كمن يتمطّى، تتأمل ابنتها في

سعادة، تتساءل في داخلها، هل آن الأوان لتخبرها بمخزون قلبها، ذلك الأمر الذي دفنته في غرفة سرية بين ثنايا القلب؟ تسري بداخلها رعشة خفيفة، يبدو أن قلبها بدأ يتحرك في مكانه، تدب فيه الروح بعد سنوات الصمت الرهيب.

تقف هدى صامتة وقد عقدت ذراعيها على صدرها، تتقدم خطوات حتى تستند إلى حافة الشرفة، تُطالع أشجار الحديقة التي تتوسط الحي، تتأمل زهرها الذي يتدرج لونه بين الأحمر حتى الأبيض، صوت الماء المتناثر عبر النافورة يترقرق بين الأحجار الأرجوانية التي تحيط بها من كل جانب، تشعر بالدماء تسير في جسدها ثقيلة وكأنها تتخلل أحجار هي الأخرى، لكنها وبعد طول صمت تتحرك.

تعود إلى مقعدها وعلى وجهها اضطراب لا تدري منبعه، يبدو أنها اتخذت قرارها بأن تُخرج ما سكن في قلبها، لا تعلم لماذا اتخذت هذا القرار الآن وقد كان من الممكن ألا تتحدث، لكنها ارتاحت لذلك.

مدت يديها كأنها تقول: لا مفر إذًا. تعتدل أروى بسعادة، "يحلو للمحب الإنصات لأحاديث الحب".. تبتسم هدى وهي تقول:

- من سنوات طوال.. كنتُ.. تقريبًا.. في نفس عمرك يا أروى.. في الجامعة وبالتحديد في السنة الثالثة....



كثير من التعاسة نُصاب بها

لا لسبب إلا لتعجُّلنا السعادة.

(٣)

كريم

لم أكن أتذكر، إلا مرات قليلة، أنني فتاة مخطوبة، منذ أكثر من عامين أُعلِنت خطبتي إلى "توفيق رجائي"، ابن عمتي، شاب معتدل حاصل على مؤهل متوسط، يعمل في دولة عربية، يأتي فترة لا تتعدى الأسبوعين في العام، يمضيها في زيارتنا ومحاولة الاستعراض بما يتميز به، يلمح بين ثنايا حديثه عن وجود فرص غرامية يرفضها هو لأنه رغم أنه فتي وسيم وجسده ممشوق فإنه يلتزم بالأخلاق والفضيلة.. ثم إنه لا يرغب في غيري!

كثيرة هي التفاصيل التي مررتُ بها آنذاك، كان من نتيجتها تلك الخطوبة، لكن على رأس أسباب موافقتي كانت رغبتي في إرضاء والدي الذي قدمَ لي ألف سببٍ لتأكيد صواب قراره بالموافقة على توفيق. تم الاتفاق على أن يكون الزواج بعد أن أُنهي دراستي الجامعية.

في الإجازة الأولى له، كان قد مر عام على خطبتنا، يعود توفيق من سفره، يستأجر سيارة كي نخرج معًا، في مكان عام نجلس، يبثني مشاعره، ألاحظ ارتباكه، الدماء تتدفق إلى وجهه، تحمّر أرنبة أنفه اللامعة، يثير بداخلي شفقة، يُطيل وصف مشاعره كمن يقرأ من كتاب، يطول صمتي حتى يرحل. يبدو أنه قرأ موضوعًا ما عن "كيف تتقرب من حبيبتك".. أتخيل ذلك وأضحك.. التقرب إلى الحبيب لا يحتاج إلى تَعَلُّم.. هي مشاعر وأحاسيس تنبت بداخل المحب ويبثها إلى المحبوب..

في الإجازة الصيفية الماضية، شُغِلتُ بالتدريب حتى إنني لم أقابل توفيقًا غير مرتين أو ثلاث لا أذكر! كنتُ مشغولة عنه تمامًا، قِيل لي إنه سافر هذه المرة غاضبًا من عدم تفاعلي معه، لم أهتم كثيرًا، ابتسامة واحدة كافية لإعادة السرور إلى قلبه، هو مثل معدة خاوية تبغض كل شيء وما إن تمتلئ حتى تطيب لها الحياة.

في الجامعة لم يكن لي أصدقاء غير "منى" أبثها كل ما يعتمل بداخلي وتُلقي إليَّ بما في قلبها باستمرار، قلبها أكثر بياضًا ودفئًا من قلبي وإن كانت تقول عني نفس الكلام، التقينا.. تآلفنا.. توحدنا.. وكانت كأنها شقيقة لي أيضًا، فلا إخوة لي.

كيف تعرفتُ إلى كريم؟

في عامنا الثالث هذا سوف نخرج للتدريب في المؤسسات الصحفية، تُشكَل المجموعة الواحدة من خمسة أفراد. انتخبنا، منى وأنا، أحد الزملاء

لنفتح له باب التقارب ليكون دليلًا لنا في مثل هذه الأمور، فلا نمتلك قدرة، أو لنقل لا نمتلك رغبة في الاندماج في قلب "الشِّلل" الجامعية.

يقع الاختيار على "أحمد فتحي"، زميل دراسة من ريف الشمال، يمتلك روح الدعابة، تحمل ملامحه سُمرة خفيفة من لفحة الشمس تقابل نقاء قلبه. استجمعتُ شجاعتي وسألته ذات يوم عن ملزمة تخصُّ مادة التدريب الصحفي، يعدني بأنه سيأتي بها في الغد. أعلم أن سؤالي عن تلك الملزمة الدراسية قد يثير ريبة أحمد، فنحن، أنا ومنى، من المشهود لهما بالكفاءة الدراسية، يؤكد ذلك نتائج العامين المنصرمين من الدراسة الجامعية، لا يهم.. لِيَرْتَبْ مَن يريد، المهم أن يتحقق لنا ما نريد.

في اليوم التالي، كنا نجلس في الحديقة بجوار مبنى الكلية، يأتي أحمد فتحي بالملزمة، يصاحبه زميل آخر يُدعى كريمًا، مكث غير بعيد حتى يُنهي أحمد اللقاء، كريم هادئ الطباع.. لا نشعر بوجوده على الإطلاق، صامت.. نظرتُ نحوه خلسة بينما أحمد يتبادل بعض العبارات مع "منى"، ألفيته يجلس صامتًا متأملًا أسفل شجرة قريبة تُلقي ظلالها على ملامحه لتخفي بعضها.

الرغبات موجات تنتشر في الأجواء لتحتوي كل من يقع في ذلك المحيط، يلتفت كريم فجأة ناحيتنا ليضبطني متلبسة بالنظر ناحيته، واريت ارتباكي بداخلي، ثبتُّ عينيَّ على شيء ما خلفه، كي لا تفضحني حركة وجهي. بالفعل تلاشى كريم من أمام عينيَّ تمامًا، فقد ذهبتُ في جولة سريعة داخل عقلي خلف رغبتي الأخيرة في عدم فضح نظرتي نحوه.. ماذا في ذلك؟! لأنظر إلى أي مكان أريد، لماذا خشيتُ أن يراني أنظر نحوه؟!

ما حدث، حدثتني عنه "منى" بعد ذلك، أن أحمد كان يتحدث معها وفي اللحظة التي يلتفتْ فيها يود الانصراف، لأن صديقه في انتظاره، شاهدني أنظر ناحية كريم، فقال: (ولم اسمع بالطبع):

- إنه كريم صديقي.

ثم ناداه ليقترب للتعارف، هنا يلتفت كريم نحونا، فتلتقي نظراتنا في تلك اللحظة التي هربتُ فيها إلى لا شيء، حتى أفقتُ على كريم بيننا يصافحنا وأحمد يقوم بعملية التعارف. بهذا الترتيب القدري أصبحنا أربعة، يتبقى فرد خامس لتكتمل مجموعة التدريب المنتظرة.

الحقيقة، التي أدركتُها مستقبلًا، أن تشكيل مجموعات التدريب كان أمرًا ثانويًّا لا يشغل بال الزملاء كما كان يشغلنا، أنا ومنى، أيضًا كان حديثنا عن تشكيل المجموعة مبكرًا، فهناك عدة أسابيع متبقية على الموعد. يبدو أن سعينا هذا نبع من الخواء الذي نعيشه، فلا جديد في حياتنا والمادة الدراسية لا تمثل عبئًا علينا لأننا ندرس الصحافة حبًّا، فما ندرسه نعيشه بكل جوارحنا، فأضحت الدراسة أمرًا يسيرًا.

شُغلنا في الأيام التالية باختيار العضو الخامس في مجموعتنا، نجتمع لنناقش أى الزملاء أفضل، يقدم كريم وأحمد اسم زميل، أو نُرشح أنا ومنى زميلة، نعترض أو نوافق موافقة مشروطة، دقائق ثم ننطلق في أحاديث أخرى، المهم أننا نجتمع لأسباب تبدو مهمة، لكن الحقيقة أننا كنا ننتظر الاجتماع وتبادل الأحاديث بشكل لافت للنظر.

نعم.. يلفت انتباهي رغبتنا في الاجتماع اليومي في الحديقة أسفل شجرة كثيفة الأغصان، تحدثتُ مع منى بذلك، مطت شفتيها لحظات، ثم قالت:

- عادي يا هدى.. زملاء محترمون.

- أثق بتفكيرنا يا منى ولستُ بخائفة، لكني أناقش تلك الرغبة!

- طبيعي جدًّا أن يحدث ذلك.. أصبحنا في السنة الثالثة وتخطينا كل تفاصيل الانسياق خلف الأهواء.

أعض على شفتي السفلى، وتلك عادتي وقت الفشل في البحث عن مخرج أو تبرير، أترك هذا الأمر، نتحدث في أمور أخرى، لكن داخلي كان يترقب.. ولا أعلم يترقب ماذا! كان يخشى ذلك السكون الرهيب الذي أعيشه، السكون دائمًا بالنسبة لي هو سكون ما قبل العاصفة، ترى أي عاصفة آتية؟!

لا أعلم.. ليكن ما يكون، ولنعش لحظتنا، كنا نتسلَّى في فترة "النقد اليومي" بملابس فتاة أو شاب يتأنق في ملابس تجعله أشبه بالغراب، ثم نضحك على تشبيهاتنا، بل نتبارى في البحث عن تشبيهات أكثر تطرفًا، نُطلق على هذا الغراب، وعلى ثانٍ أبا قردان، وتلك الفتاة نسميها بطة بلدي، وثانية نسميها فرخة بيضاء، حتى مر من أمامنا كريم فألقى التحية من بعيد ثم أكمل سيره، فسألتني منى "وبأى اسم سوف نسمي كريمًا يا هدى؟" ثم ضحكتْ في سخرية لا أعلم لماذا ضايقتني!

أُلجم لساني لحظة، شعرتُ باضطراب خفيف واريتُه بضحكة. كنا نطلق الأسماء الوهمية على الزملاء بشكل ساخر كيفما اتفق، لكن سؤال "منى"

المفاجئ، أشعرني بشيء من المسئولية، للمرة الأولى التي أشعر فيها بأنني يجب أن أختار الاسم المناسب تمامًا لشخصية كريم وليس مجرد اسم كوميدي للتندر، وكأنه سيوصف به مدى الحياة أو سيكون اسم الشهرة الخاص به.
استغرقتُ بعض الوقت حتى إن "منى" نظرت نحوي بدهشة قبل أن تقول ضاحكة:

- الأمر لا يحتاج إلى كل هذا التفكير يا هدى.. نسميه: الطاووس.

الطبيعي أن أتلقى اللقب الجديد لكريم بالضحك ثم ننتقل إلى أمر آخر، لكني لم أضحك، ولم أترك الأمر.. لم أعض شفتي السفلى، بل زممتُ شفتي ثم انفرجت أساريري وأنا أجد الاسم المناسب تمامًا لكريم، قلت:

- هدهد.. الهدهد يا منى هو الوصف المناسب لكريم من وجهة نظري.

بلا مبالاة سألتني:

- لماذا؟

لا أعلم لماذا ارتبكت ثانية للحظة واحدة، لم أجبها لماذا اخترت اسم الهدهد، إنما أخبرتها عن سبب رفضي لاسم الطاووس الذي يختال بريشه فقط.

تأملتني "منى" لحظات ثم انفجرت ضاحكة وهي تقول:

- هذا على أساس أن الهدهد يحمل لحم ديك رومي؟!

جاريتُها في الضحك حتى هدأنا ثم عقبتُ:

- لا.. الهدهد يحمل عقلًا.. ونادر الظهور.

لم تعقب "منى" وإن كنتُ أشعر بالأسئلة تكاد تفر من عينيها. أخرجني من حيرتي، تلك التي لا أعرف لماذا تملكتني، أحمد فتحي. يصافحنا أحمد سريعًا وهو يجلس في مواجهتنا، يبدو على ملامحه إصرار على تحقيق مطلبه، لذا رسم على لوحة وجهه جدية لا تتناسب مع طبيعته وهو يقول:

- تنظم إدارة الكلية رحلة سياحية.. ليتكم تصحبوننا فيها.

لو لم أكن أخشى توبيخ "منى" لأعلنتُ موافقتي مباشرة، لكني ألجمتُ لساني وأنا أنظر إلى "منى" نظرة تساؤل، وكانت هي أسرع حينما قالت:

- اتركنا يا أحمد لندرس الأمر ونستشير أسرتينا.

يقف أحمد وهو ينفض يديه وملابسه من عُشب الحديقة، قائلًا:

- سوف أحجز لكما الآن.. سلام.

تصرخ فيه "منى" بأن ينتظر حتى الغد، من بعيد يلتفت ليواجهنا، أتانا صوته:

- لو فشلتما في إقناعهما، سوف أبيع مكانيكما بعد إغلاق باب الحجز.. سوف أكسب بالطبع.

يضحك ويرحل، ونضحك ونحن جلوس، نناقش أمر تلك الرحلة بعض الوقت قبل أن ننصرف وبداخلنا يقين بموافقة أسرتينا، واليقين يحقق المطلوب.

تمت الموافقة، في اليوم التالي أخبرنا أحمد، وبدأنا الاستعداد ليوم الرحلة.

***

وفي القلوب أماكن، مهما حدث،

لا يسكنها غير أصحابها.

(٤)

الرحلة

في صباح يوم الرحلة، اجتمعنا في المكان المحدد، أمام البوابة الرئيسية للجامعة، وقفتُ بجوار السور في انتظار "منى" بينما الزملاء يتصافحون ويتبادلون تحية الصباح، يحملون حقائب الظهر التي جعلت بعضهم ينحني إلى الأمام قليلًا، في أصواتهم حشرجة الصباح وفي أعينهم بقايا نوم.

يأتي أحمد وكريم، بعد لحظات فطنا لوجودي، أتيا وصافحاني، يلاحظ كريم نظراتي الباحثة عن "منى"، يسألني: "أين منى؟!"، أجبته بأني في انتظارها ولا أعلم لماذا تأخرت! يطمئنني بقوله إن الوقت ما يزال مبكرًا ولعلها تأخرت في تجهيز مأكولات الرحلة ومشروباته، ثم ينتقل بالحديث مع أحمد إلى تفاصيل جدول الرحلة.

لم أستمع إلى الكثير من حديثهما، الحقيقة أني كنتُ بالفعل قلقة لتأخر "منى"، أشعر بأن شيئًا ما قد حدث، أيضًا أفتقدها وأشعر بالوحدة من غيرها وإن كان أحمد وكريم بجواري. يسألني كريم فجأة وكأنه تذكر:

- لِمَ لا تتصلين بمنى؟

نعم.. لماذا لا أتصل بها، وافقت على الفكرة وأنا أتأمله كأنه أتى بشيء عبقري، بحثتُ عن تليفون في أحد المحلات القريبة، اتصلتُ بها، كنتُ في انتظار أحد أفراد أسرتها أن يجيبني بأن "منى" خرجت منذ فترة وهي مؤكد على وصول إلى مكان التجمع، لكن كم كانت صدمتي عندما أتاني صوتها عبر الهاتف، تخبرني بوعكة صحية ألمت بوالدتها فجرًا ولن تستطيع تركها، بشيء من الأسى تتمنى لي يومًا رائعًا ثم أنهينا الاتصال، أي روعة يا صديقتي الغالية بدونك؟!

وقفتُ في مكاني مترددة بين العودة إلى منزلي أو إلى مكان تجمع الزملاء، لا أعلم لماذا استغرق تفكيري وقتًا يبدو أنه طال لأني شاهدتُ أحمد وكريمًا قد أتيا بحثًا عني، يستفسران عن سبب تأخري، أخبرتهما، ظهر الاستياء عليهما بعض الوقت كنوع من مؤازرتي، لكن أحمد لم يستمر غير لحظات ثم ينفض يديه في الهواء متمنيًا لوالدة منى الشفاء السريع ثم تغيرت تعبيرات وجهه وهو يقول: "والآن دعونا نذهب إلى الأتوبيس قبل أن يغادر".

سرتُ خلفهما بدون أي اعتراض ولا أعلم لماذا! لم أُبدِ مجرد الرغبة في الاعتذار عن الذهاب والعودة إلى منزلي. وصلنا إلى الأتوبيس في الوقت

الذي كان فيه معظم الزملاء قد صعدوا، بمجرد صعود أحمد يرتدي القناع الوهمي للمهرج، يصافح الزملاء، يلقي النكات والقفشات وقد نسينا أنا وكريمًا تمامًا.

وقفتُ في طرقة الأتوبيس حائرة لا أدري إلى أين أذهب، "منى" كانت هي المسئولة باستمرار عن تلك التفاصيل، تذكرتُ مداعبتي إياها باستمرار حينما أتعرض لأي مشكلة وأقول لها "دبرني يا وزير".. نعم.. هي وزير ناصح يسهل عليه إيجاد الحلول السريعة لتلك المعضلات التي تواجهني. رغم تفاهة الأمر إلا أنني بالفعل كنتُ حائرة مرتبكة، جميعهم يتحدثون مثنى وثُلاث.. أما أنا.. فوحيدة.

ينتشلني كريم من حيرتي وشرودي وهو يشير ناحية مقعد مزدوج في مؤخرة الأتوبيس، في هذه اللحظة تطلب زميلة، كانت تقف خلفي، المرور، فتقدمتُ نحو كريم، يحمل عني حقيبة كنتُ أحملها في يدي، يرفعها إلى حافظة الحقائب فوق رؤوسنا.

جلستُ في المقعد الداخلي بجوار النافذة بينما وقف كريم في مكانه حائرًا، لاحظتُ تصارع رغباته على ملامحه، يبدو أنه يود الجلوس إلى جواري بينما يخجل ويرغب في البحث عن مكان آخر، مال بجسده في فراغ المقعد كي تمر زميلة أخرى، ينتظر ثوان على هذا الوضع حتى بعدما مرت الزميلة، تأكدتُ أنه ينتظر دعوتي له بالجلوس،لكني لم أفعل.

الحقيقة أنني كنت لا أريد فعل أي شيء الآن، ما زلت أفكر في هذا اليوم الذي سوف أمضيه بدون "منى" التي علمتُ الآن مدى أهميتها في حياتي،

مستقبلًا سوف تتزايد تلك الأهمية بشكل كبير. أدرتُ وجهي لأشاهد حركة الشارع عبر النافذة، ما تزال الوجوه ناعسة، صاحب سيارة خاصة يحتسي شاي الصباح وهو يقود سيارته متوجهًا إلى عمله، عمال الحديقة العامة المواجهة لمبنى الجامعة يفتحون الأبواب ومع بعضهم أكياس بلاستيكية تبدو منها أرغفة الخبز وقراطيس الطعمية والمخللات، طيور تنبش الأرض بجوار السور بحثًا عن طعام. شعرتُ بحركة هبوط المقعد جواري، فقد جلس كريم.

شغلتُ نفسي بفتح النافذة كي لا أُصدر أيَّ رد فعل على جلوس كريم، فكان عليَّ إما الموافقة أو الرفض، لم أستطع إظهار أيٍّ من الرأيين، فهربتُ إلى النافذة أبتغي نسمات الصباح التي أتتني باردة مشبعة بعادم سيارة قديمة تمر بالجوار، رائحة العادم تبدو أكثر وضوحًا بين نسمات بِكر، أما بعد ذلك حتى نهاية اليوم فرائحة العادم تسيطر بشكل تام يمنع المقارنة. ملأتُ صدري بالهواء البارد، ألقيتُ ظهري إلى مسند المقعد ومددتُ ساقيَّ في محاولة للاسترخاء ونسيان وحدتي، حتى أتاني صوت كريم:

- هدى.. ممكن أبحث عن مقعد آخر لو سببتُ لكِ أي ضيق.

التفتُ ناحيته وما زال رأسي ملقى على مسند المقعد، تأملته لحظات قبل أن أقول:

- أبدًا.. وجودك لا يسبب لي أي ضيق يا كريم.. وإن رحلتَ فسوف يأتي زميل آخر.

يتحرك الأتوبيس، يبدأ الزملاء في الغناء الخفيف يتزعمهم أحمد الذي ما يزال واقفًا في مقدمة الأتوبيس ليستطيع رؤية الجميع ويتبادل معهم الأحاديث. انشغلنا معه بعض الوقت حتى خرجنا جميعًا من حالة الصمت والخمول الصباحية، يدب النشاط في أوصالنا خاصة مع تصفيقنا الإيقاعي مع الأغنية التي نغنيها بشكل ارتجالي، يرفع أحمد يديه عاليًا علامة أن نلتزم الهدوء لأن لديه ما سيقوله، بصوت مرتفع يقول: "سنغنى مع بعض آخر أغنيه من تأليفي: سواقنا في إيده زماره.. يسبق أجدع طياره.. قولوا معايا" ثم انطلق يغنيها والجميع يردد خلفه مع التصفيق وتقسيم الكلمات بشكل إيقاعي ممزوج بالضحكات ولهو الزملاء، ولم نلحظ من مكاننا تلك السعادة التي ظهرت تفاصيلها على وجه سائق الأتوبيس ونظراته التي يرنو بها ناحية أحمد كأنه يرغب في أن يخبره بأن تلك الكلمات ليست من تأليفه ويتم ترديدها في معظم الرحلات، ورغم ذلك لاحظتُ أن حركة الأتوبيس اختلفت كأنه أصبح ينزلق في يسر.

بعد مرور قرابة الساعة، كنت قد نسيتُ غياب "منى" عن الرحلة، تحدثتُ في عدة موضوعات مع كريم، تناولنا السندويتشات والشاي معًا، شاركنا فيها أحمد بالطبع رغم مشاركته طعام كل مجموعات الرحلة ومشروباتهم.

ينتهي اليوم وأعود إلى منزلي، سيطرتْ على تفكيري تفاصيل الرحلة، الشمس كانت رائعة طوال اليوم، نسمات خفيفة تُلطف عناء الحركة، روعة الزهور، تغريد عصافير، شدو بلابل، موسيقا منبعثة من أجهزة الكاسيت برفقة الزملاء، الصور التذكارية واتخاذ أوضاع معينة بأصابع الأيدي لحظة

التقاط الصور، روائح الأماكن التي قمنا بزيارتها كانت تتغلغل في أعماقنا حتى إني أشعر بها بداخلي تملؤني.

للرحلات ميزات غير محدودة لا أستطيع أن أحصيها، لكني أشعر بها حال عودتي وقد ملأتني طاقة إيجابية، أقبلتُ على والديَّ بترحاب بدا مبالغًا فيه، لكني لم أكن مبالغة قط، كنت أحتضنهما بحب حقيقي، تناولتُ طعامًا أكثر من المعتاد، شربتُ عصائر مختلفة وشايًا بالنعناع، ضحكتُ ملء قلبي ونحن نشاهد في السهرة فيلم "ابن حميدو" للعبقرية بالفطرة "زينات صدقي" وباقي فريق الفيلم، ضحكتُ رغم أني أحفظ الفيلم من كثرة مشاهدتي له. باختصار في نهاية اليوم كنتُ "هدى" أخرى غير تلك التي كانت موجودة في الصباح.

لم أتذكر منى إلا عندما اتصلتْ بي قبل أن أدخل لسريري بدقائق، اعتذرتُ لها بشدة، كان يجب أن أتصل بها للاطمئنان على والدتها، أخبرتني عن استقرار حالتها ثم سألتني عن يومي وعقَّبت قبل أن أتحدث:

- تبدو على صوتك آيُ السعادة؟

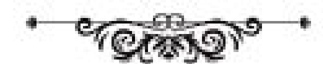
خشيتُ أن أؤكد لها ظنها مراعاة لمشاعرها، تصنعت الحزن لافتقادي لها طوال اليوم مما أدى إلى عدم استمتاعي، ولولا وجود أحمد وكريم واقترابي من بعض الزميلات ما قضيتُ اليوم. لا أعلم أي تعبير ارتسم على وجهها عند سماعها لكلماتي، لكني استشعرتُ عدم اقتناعها، فقد فضحتني نبرات صوتي. أنهيتُ الاتصال صامتة لحظات، حتى توصلتُ إلى تطييب خاطرها

بأن أحمل لها تلك القطعة الأثرية التي اشتريتها كتذكار ليبدو أني لم أنسها في رحلتي، "منى" طيبة القلب وسوف تتقبل الأمر بهدوء.

دخلتُ سريري لأنام بعد هذا اليوم، سبحتُ مبتسمة لحظات قبل أن أشهق وأعتدل في مكاني، سحبتُ ساقيَّ وضممتُ يديَّ حولها لأضغط صدري الذي بدأ يشعر باضطراب، فقد ورد على خاطرى سؤال: "ما سبب تلك السعادة التي تتملكني؟! ما سبب خوفي من معرفة "منى" بسعادتي؟!"

تذكرتُ النظرات المتبادلة بين والديَّ بعدما لاحظا فرط سعادتي، لابد أن هناك سببًا حقيقيًّا لذلك! بعد طول تفكير ذهبت في دوامة ألقتني إلى بحر النوم. شاهدتُ في أحلامي الأتوبيس، الزملاء، الأصدقاء، المناطق الأثرية، أشعة الشمس المنعكسة على ساعة كريم تصيب عينيَّ، تنفستُ رائحة الزهور، تشربتُ ابتسامات روعة شباب في مقتبل العمر.

صحوت سعيدة، لكني لم أعثر على إجابة. فقط أعيش حالة هي المرة الأولى التي أمرُّ بها على الإطلاق.



وإن لم تعترف القلوب بنبضها فالعيون لها كاشفة.

(٥)

قلم كريم

بعد الرحلة كان عليَّ أن أمضي أيامًا ثلاثة حتى أذهب إلى الجامعة، اليوم التالي كنت مضطرة فيه للبقاء في المنزل للراحة، فقد بدا إرهاق يوم الرحلة مع بداية يومي التالي، ثم تَبِعَ ذلك يوم عطلة نهاية الأسبوع، أما اليوم الثالث فكان هو يوم الراحة الأسبوعية لكليتنا. خلال هذه الأيام لم تفارقني تفاصيل يوم الرحلة، بداية من لحظة تأملي لتفاصيل وجه كريم وأنا ألقي رأسي إلى مسند مقعدي وأجيبه في هدوء أن يبقى بجواري حتى وأنا أصافحه هو وأحمد مودعة في نهاية اليوم.

لا أعرف لماذا انتظرت مقابلة كريم وأنا في طريقي إلى الجامعة، نفضتُ رأسي حتى أُبعده عن تفكيري. استدعيتُ صورة "منى" صديقتي، تخيلتُ سعادتها بالهدية التي أحملها إليها، سوف تنظر ناحيتي لحظات ثم تحتضنني

وقد يبلغ منها التأثر حد الدموع، هي رقيقة المشاعر، إن بكت سوف أبكي أنا الأخرى.

يجب أن....

يجب ماذا؟!

.. آه.. يجب أن أقابل كريمًا.. كي أطلب منه الصور التذكارية.. سوف تَسعد منى برؤيتها.

اقتربتُ من مبنى الكلية، بحثتُ عن "منى" لحظات، يقابلني أحمد، نتبادل بعض العبارات، بعدها أشار ناحية مكان قصيٍّ تجلس فيه "منى" ثم ينصرف لشئونه. في طريقي إلى صديقتي تعجبتُ من نفسي، لماذا لم أطلب صور الرحلة من أحمد؟!

أمضينا نصف ساعة تقريبًا، أنا ومنى، تبادلنا تفاصيل يوم الرحلة، تفاصيل مرض والدتها، ثم حدثتني عن شقيقتها الصغرى "أميرة" المدللة، فتاة الثانوية العامة، لو كانت على قدر من تحمل المسئولية لأتاحت الفرصة أمام "منى" يوم الرحلة، لكن منى عقبتْ بعد لحظة بأنها كانت سترفض الخروج، لم تكن لتترك والدتها بأي حال حتى لو أعلنت أميرة قدرتها على تحمل المسئولية. منى في النهاية تمتلك قلب أم، سوف تنجح في حياتها الأسرية مستقبلًا مهما تواجه من صعوبات.

بالقرب منا يمر كريم متهاديًا في مشيته، انتظرتُ أن يأتي لنتحدث، أقصد لأطلب منه صور الرحلة، لكنه لم يفعل، لم يلتفت نحونا حتى. حركت يدي

في الهواء بغضب قليل ثم تماسكت وأكملتُ حديثي مع "منى" حول شقيقتها أميرة، طلبتُ منها أن تأتي بها يومًا إلى الجامعة، لعل الحياة هنا تكون حافزًا لها على الاجتهاد في دراستها. في داخلي كنتُ سعيدة بعدم ملاحظتها لغضبي لحظة مرور كريم وعدم التفاته ناحيتنا، ولم أعِ أني بدعوتي "أميرة" قد دعوت جزءًا من شقائي.

بعد المحاضرة الأخيرة، شاهدتُ كريمًا وأحمد، وزملاء غيرهما، يخرجون ويتجهون ناحية كافتيريا الكلية، تذهب "منى" إلى المُحاضر للاستفسار عن شيء، أخرج وحيدة من الباب الآخر للمدرج، أسرعتُ الخطى حتى استطعتُ الوصول إلى السلم المؤدى إلى الكافتيريا قبلهم ثم تمهلتُ، لحقوا بي وصوت أحمد فتحي المرتفع يرن في المكان، تجاوزني بعضهم، يدنو كريم ويلقي بالتحية بشكل يوحي بأنه سوف ينصرف مباشرة، لذا ألحقتُ بكلماتي سؤالًا عن صور الرحلة، يفكر لحظة وهو يبحث بين الجمع المتحرك عن أحمد على ما أعتقد، ثم يقول:

- اعتقدتُ أن أحمد أعطاكِ مجموعتك من الصور.!

هززتُ رأسي علامة النفي، يمط شفتيه قليلًا ثم يقول:

- غدًا آتيكِ بها يا هدى..

ثم يستأذن ويرحل ليلحق بزملائه، تعثرت قدمايَ في بعضهما البعض، زاد ضيقي، انتظرتُ في جانب وقد أسندتُ ظهري إلى الجدار الرخامي البارد،

سوف تأتي منى لنستكمل يومنا، يجب أن أنسى حديث الصور التذكارية الزائف هذا.

في اليوم التالي، وكنتُ قد أجبرت داخلي على نسيان أمر الصور تمامًا، وجهزتُ في داخلي، كرد فعل حينما يأتي كريم بالصور، ملامح التذكر بعد النسيان، بل جربتُ تلك الشهقة التي يجب أن تصاحب تذكُّري للصور عدة مرات. لكن لم يظهر كريم طوال اليوم! لم أحاول أن أعطي غيابه أهميةً، لذا لم أسأل عنه أحد.

يمر اليوم الثاني والثالث ولم يظهر كريم، غياب أحد الزملاء يعد أمرًا طبيعيًّا، وغياب كريم طبيعي، خاصة وأنا أشاهد مجموعته بقيادة أحمد فتحي تمارس طقوسها اليومية بشكل طبيعي، لكني في هذا اليوم الثالث لم أجد بداخلي قدرة على التحكم وكبت ذلك السؤال المُلح "لماذا يختفي كريم بهذا الشكل؟!" وأتت الفرصة المناسبة عندما يدنو أحمد مستفسرًا عن أحد الأمور الدراسية، بعد لحظات سألته:

- أين صور الرحلة يا أحمد؟ لقد وعدني كريم بأن يأتيني بها.. لكنه اختفى.

يضحك أحمد لحظات ثم يقول:

- بسبب حفل الزفاف.

تبدو على وجهينا علامات تساؤل، يُكمل:

- زفاف شقيقه.. سوف يأتي غدًا.. وغالبًا ستكون معه الصور إن لم يأتِك بالصور يا هدى، سوف آتيك بها.

يرحل ويتركنا، بعد دقائق أطلب الرحيل، تزم "منى" شفتيها، تواري دهشتها من تعجلي. في طريقي إلى منزلي تساءلتُ بضيق "لماذا لم يخبرني بأنه لن يأتي طوال هذه الأيام؟! هل كان زفاف شقيقه مفاجئًا؟ بالطبع لا.. مؤكد أن ذلك أمر معروف من مدة طويلة!"

زادت دهشتي من نفسي وأنا ألوم كريمًا بهذا الشكل وكأنه مسئول أمامي عن تقديم تقرير بتحركاته! لكني أرجعتُ ضيقي هذا إلى كونه أخلف موعده معي وكان حريًّا به ألا يجعلني أنتظره بهذا الشكل، ماذا لو قال لي إنه سوف يتغيب ثلاثة أيام ثم يأتيني بالصور؟! عادي جدًّا.. نعم.. أنا غاضبة فقط من عدم صدقه معي.

حتى تقابلنا في اليوم التالي، انتظرتُ أن يُبدي أسفه عما حدث، لكنه لم يتأسف على الإطلاق وكأنه لم يفعل أي شيء، لم أستطع تحمل لا مبالاته، سألته، أجاب ببساطه أنه نسيَ مطلبي تمامًا ولم يتذكره إلا مساء أمس حينما هاتفه أحمد، ثم إنه طلب من أحمد تولي الأمر بالنيابة عنه ولم يفعل. كظمتُ غيظي، حاولتُ شغل تفكيري بأي أمر آخر، رأيتُ في يده دفتر بألوان زاهية وإن كان ذلك شيئًا عاديًا فإنني سألته عن ماهيته كطريقة لتغيير الموضوع وفتح مجال جديد للحديث بدلًا من ذلك الذي انتهى، يرفع الدفتر ليحتل المسافة بيننا ، قائلًا:

- مجموعة قصصية.. من تأليفي.

أخذتني جملته برهة، ترددت الكلمات بداخلي "من تأليفي" سألته بدهشة لم أستطع منع ظهورها، وأنا أنظر إلى عينيه مباشرة:

- أديب؟!

يضحك بهدوء وقد تورد وجهه من أثر تصاعد دماء الخجل، كريم أطول مني بشكل يجعلني أنظر لأعلى وأنا أتابع كلماته، يَزم شفتيه ويحرك عينيه كأنه يبحث عن إجابةٍ، يقول:

- ليس لهذه الدرجة يا هدى.. هي محاولات مبتدئ.. وقد طلبتْ زميلتنا فاتن فؤاد قراءتها فأتيتها بها.

فاتن فؤاد؟! لا أعلم لماذا شعرتُ بنفضة غضب بداخلي، كان عليه أن يعطيني أنا مجموعته القصصية لقراءتها، لكنه سوف يعطيها فاتن فؤاد إياها، عليَّ أن أنتظر في طابور القراء إن رغبتُ في قراءتها؟! لن أطلب قراءتها يا كريم، أعط فاتن وكل الزملاء إياها، لكني لن أطلبها. دارت هذه الأفكار في داخلي بينما كريم يتبادل أطراف الحديث مع "منى" حول أنه بدأ كتابة القصص منذ عدة سنوات ولكنها في مجمل الأمر محاولات مبتدئ، ثم أنهى حديثه متوجهًا ناحيتي:

- عمومًا سوف آتيكما بها حالما تنتهي فاتن من قراءتها، يهمني رأيكما فيما كتبته.

ارتبكتُ لحظة وأنا أبحث عن جملة محايدة لا توحي برغبتي في التقاطها من بين يديه الآن، أنا أحق بقراءتها أولًا لما لي من إقبال على قراءة الأدب، فقد

قرأتُ لكبار الكتاب، قرأتُ للرائع محمد عبد الحليم عبد الله وأعتقد أن مَن يقرأ لهذا الكاتب يكون قد وصل إلى منزلة مميزة بين القراء الشغوفين بالقراءة، منزلة يجب أن تُحترم، يجب بسببها أن أحصل على المجموعة القصصية الآن وليس فاتن فؤاد، وثانيًا لأن بيننا حوارًا سابقًا يوم الرحلة عن بعض الأعمال الروائية وإن كان لم يخبرني وقتها بأنه يكتب، لكنني لم أتحدث إلا بكلمة واحدة:

- براحتك.

ثم أشحتُ بوجهي إلى "منى" لأحدثها في أي شأن فوجدتها تتابع فتاة تمر بالقرب وكانت إحدى ضحايا "فترة النقد" الساخرة، قلت لـ "منى" إنها زميلتنا الأرستقراطية. تومئ "منى" برأسها وهي تعقب "من علية القوم".. كريم يتابع نظراتنا وكلماتنا وقد بدت على وجهه دلائل الاستنكار، ابتسمتُ وأنا أرغب في شرح أمر فترتنا الساخرة، لكنه بدأ يتحدث بشكل جعلنا نصغي إليه ولا نقاطعه، يقول:

- أي أرستقراطية؟! وأي علية القوم؟! إننا في مجتمع أصبح الأصل فيه ثقافة الخدم.. (يتوقف لحظة في انتظار تعقيب إحدانا، ولما يعم الصمت يُكمل) الأرستقراطية تعني الأفضل أو الأحسن ولا علاقة لها بالمركز المالي للشخص.. وإن كانت في زمن ما أصبحت لصيقة بالأثرياء.. لكن الطبقة الثرية الأرستقراطية هذه لم تحافظ على تلك الصفة حينما تركوا تربية أولادهم في يد الخدم فعمت ثقافتهم، ومع توالى الأجيال أصبحت ثقافة الخدم هي السائدة، وتقاس أخلاق الأفراد وثقافاتهم بردود أفعالهم حينما يوضعون

تحت ضغط، الفرد لا يقاس مستواه في الظروف العادية السلسة اليسيرة، إنما ابحثوا عن ردود أفعالهم في الأزمات والضغوط الشديدة.. كثير ممَن يلقبون أنفسهم بـ "علية القوم" (ينظر إلى "منى") في الأزمات تتكشف سريرتهم.. فنرى ما أخبرتكم عنه وما أسميته "ثقافة الخدم" يتحدثون بأقذر الألفاظ.. يلفظون داخل الأسود من القول أو الفعل.. معنى الأرستقراطية المستقر في الأذهان اليوم خطأ.. وربطها بالمال خطأ أكبر.. فإن كانت الأرستقراطية تعني الخلق الرفيع، وفي هذا جزء من الخطأ الشائع، إن كانت تعني أخلاق الملائكة، فإن ذلك لا علاقة له بالمال.. إنما تلك الأخلاق الملائكية قد تجدونها بين بعض الفقراء تمامًا كما بين بعض الأثرياء.. وفي الإجمال تتوه تلك الصفة أمام أخرى أكثر انتشارًا وهي "ثقافة الخدم".

تنظر "منى" ناحيتي في دهشة، قرأتُ على ملامحها رغبتها في أن تقول: "ماذا يقول هذا الزميل؟!" وكنت أود أن أقول: "لا أعلم يا أختي والله" ثم نضحك ونضحك.. لكننا تماسكنا وتصنعتُ الهدوء والوقار للتوافق مع مستوى الحوار وأخبرتُ كريمًا بأنني ذكرتُ كلمة " الأرستقراطية" كنوع من السخرية وليست عن قناعة، فلا داعي لمحاضرة علم الاجتماع هذه. ولا أعلم لماذا كنتُ قاسية هكذا رغم أن ملامح وجهي كانت منبسطة بل مبتسمة أيضًا.

يصمت كريم لحظات، تُغير "منى" الموضوع.. حتى نعود إلى ما كنا عليه قبل دقائق. بعدها يستأذن كريم ويرحل، بطرف خفي أتابعه، مجموعته القصصية في يديه تتأرجح مع حركة يديه ذهابًا وإيابًا، لا بد أن هذه القصص

تحمل الكثير من أفكاره، ومشاعره.. عضضتُ على شفتي السُّفلى بينما "منى" مستمرة في حديثها الذي لم أعِ ما هو.

في منتصف الأسبوع التالي أتاني كريم، كنت أجلس بجوار "منى" في الحديقة أسفل شجرتنا الأثيرة، الوقت صباحًا، فقد اعتذر أستاذ المحاضرة الأولى، نحتسي الشاي ونتبادل الأحاديث، نتابع الزملاء في "فترة النقد" ونصفهم بعبارات وأسماء كوميدية، حتى أتى كريم وبين يديه مجموعته القصصية، يلقي التحية، يجلس مواجهًا لنا لنصنع مثلث، يضع مجموعته بيننا على أرض الحديقة، لا يوجهها إلى إحدانا، يقول:

- ها هي مجموعتي القصصية، يهمني رأيكما.

أيها الماكر! تضعها بيننا لتختبر أينا ترغب فيها أولًا؟! كدتُ أقع في الشرك وأمد يدي لألتقطها، لكني أوقفت يدي وشددتُ قبضتي في حزم، خفتُ أن تفضح عيناي رغبتي فنظرتُ إلى أعلى، إلى أغصان الشجرة، نفضتُ ثوبي كأن هناك شيئًا ما سقط من الشجرة، وهكذا حتى سمعتُ "منى" تقول:

- لتأخذها هدى أولًا، لانشغالي في بعض الأمور المنزلية، وأيضًا لأن هدى محبة للقراءة.

الرغبات تتحول إلى واقع إن آمن بها أصحابها، بهدوء مددتُ يدي، حملتها وقلبتُ صفحاتها بحركات جعلتها تبدو طبيعية، لحظات ثم أغلقتها ووضعتها بجانبي بجوار أشيائي. تنفستُ بشدة كي أملأ صدري بعبق المكان، وددتُ لو أنقش على جدران قلبي صورتنا، الظلال التي تحتوينا، ضحكات

وأحاديث الزملاء المختلطة بأصوات العصافير التي تسكن الأشجار، روائح الزهر تفوح، تتخللنا، تملأ الصدور، تمنيتُ أن يتوقف الزمن ساعات لنظل على تلك الصورة، عن يميني أعز صديقة وعن يساري كريم وإلى جواري مجموعته القصصية، خدر لذيذ يسري في جسدي، شعرتُ بحلاوة اللحظة في فمي فارتشفتُها فكانت بمذاق كما الحليب.

فجأة يقف كريم ليرحل فيما يبدو، ينفض يديه وهو يقول:

- سوف أذهب إلى الكافتيريا.. ماذا تشربان؟

ينتهي اليوم، أعود إلى منزلي، أنتهي من طقوسي، أدخل حجرتي، أُغلق بابها، أبدأ في قراءة مجموعة كريم القصصية. سبع قصص تدور حول سبعة مواقف من مواقف العشق، كنت أقرأ كريمًا، أراه بطل تلك القصص وإن تغيرت أسماء أبطالها، صورته تسيطر على تفكيري بشكل غريب، إذا وصف جسدًا شاهدتُه، وإذا تحدث أحدهم استمعتُ إلى الصوت في داخلي فأجده صوت كريم.

وصلتُ إلى القصة التي تحمل اسم المجموعة، بطلتها فتاة عاشقة، تمر بظروف عصيبة، ألفيتني أغرقُ معها، دمعت عيناي، تحتويني حكايات الحب.

أنهيتُ المجموعة، في نهايتها ألفيتُ عددًا من الزملاء وقد كتبوا رأيهم في المجموعة، ثم وقَّعوا، ففعلت مثلهم، كتبت رأيي، فكان مثل رسالة موجهة إلى أبطال العمل، وهؤلاء قد صُهِروا بداخلي إلى بطل واحد هو كريم.

زَيَّلتُ رأيي بأنني أرى أن يتم تغيير اسم المجموعة إلى "قلم كريم" أقصد هو قلم كريم في عباراته المعبرة، مشاعره، أحاسيسه، كريم في صوره، ثم وقعتُ بأول حروف اسمي متعمدةً رسم حرف الهاء على شكل قلب.

لا أعلم لماذا فعلتُ ذلك، بعد طول تفكير أقنعتُ نفسي بأنها فُورمة جديدة للتوقيع.. مجرد فورمة.



وتجبرنا الفراشات الحانية على تأملها في صمت وإكبار..

(٦)

أميرة

تأتي "أميرة"، شقيقة "منى" إلى الجامعة، لم أقابلها منذ ما يقرب من عام، تغيرتْ فيه كثيرًا، لن أطيل في وصف ملامحها أو جسدها، لكني سوف أختصر كل ذلك في تشبيهها بالفنانة الجميلة زبيدة ثروت في فيلم يوم من عمري، أعتقد أن الصورة وضحت تمامًا، هي زهرة جميلة رقيقة، جلستْ معي أنا و"منى" أسفل شجرتنا الأثيرة، فزادت زهور الحديقة زهرة، ونثرت عبير ضحكاتها الطفولية على المكان فزادته جمالًا. بعد حديث الترحاب لدقائق تركتهم كي أذهب إلى الكافتيريا، سوف آتي بالعصائر الباردة، شمس اليوم ساطعة منذ الصباح مما جعل الجلوس في ظل الشجيرات أمر ممتع.

في طريقي إلى الكافتيريا قابلتُ كريمًا، يقترب مبتسمًا، يود لو يناقشني في رأيي الذي كتبته في نهاية مجموعته القصصية، أخبرته بوجهتي لشراء العصائر وقطع الجاتوه بالشيكولاتات ترحيبًا بأميرة شقيقة "منى"، يفكر لحظة ثم يطلب

مني أن أدعه يقوم بتلك المجاملة، تأملته طويلًا، ثم رفضتُ بإصرار، فلستُ بصغيرة لا تستطيع القيام بواجب الترحاب بشقيقة صديقتها التي تعتبرها أختها هي أيضًا. لم يستطع كريم التصدي لإصراري، فما كان منه إلا أن سار بصحبتي ليساعدني على حمل الأشياء.

عدنا إلى الحديقة، قبل أن نقترب منهم شعرتُ بكريم يقول: "معقولة؟!" نظرتُ ناحيته فإذا به لم ينطق بكلمة وإن كان بالفعل ينظر ناحية أميرة، توقفتُ لحظة مكاني أختبر مدى تركيزه، بعد أن يمشي خطوتين يتوقف لتوقفي متسائلًا عن السبب، لم أجد ما أقوله، أكملتُ سيري حتى وصلنا، قامت مني بعملية التعارف بينهما.

تطول بنا الجلسة وقد انضم إلينا أحمد فتحي وزميلتنا فاتن فؤاد، بطبيعة الحال يسيطر أحمد على مجريات الحديث من خلال نكاته وقفشاته وحركاته البهلوانية التي أضحكت أميرة كثيرًا، حتى إنه زاد منها ما دامت تأتي بمثل هذه النتائج. عبر نظرات سريعة لاحظتُ أن كريم يُكثر من متابعة أميرة، كلماتها، ضحكاتها، أي حركة تصدر عنها، لكنه لم يتعدَّ حد المتابعة بالنظرات، تأملتُ عينيه فلمحتُ فيهما بريق الإعجاب، إذًا لم أكن أتخيل أنه شُدِهَ عند النظرة الأولى، لقد كانت دهشته حقيقية. في لحظة صمت سألتُ نفسي: " لماذا أهتم؟!" ثم نفضتُ رأسي وانتبهت لحديث المجموعة، ثم ضحكتُ فجأة ضحكة عريضة لفتت أنظارهم، حركت يدي في وجوههم بألا يهتموا فقد تذكرتُ شيئًا ما أضحكني، لكن الحقيقة لم تكن كذلك، الحقيقة التي لاحظتها هي أن فاتن فؤاد كانت تنظر ناحية أحمد مغتاظة جدًّا من حركاته،

وقد زاد من حنقها في هذه اللحظة الأخيرة حينما يلقي بعبارة ثم يمد يده مصافحًا أميرة في حركة سريعة. نظرات فاتن أكدت لي أنها تحمل بداخلها شيئًا ما نحو أحمد وأن الأخير لا يعي ذلك، فضحكت.

في الأسبوع التالي حدثت عدة أمور، بدأت بخروج مجموعتنا في رحلة مصغرة إلى المتحف المصري بميدان التحرير، كنا أنا و"منى" وشقيقتها أميرة وأحمد وكريم وفاتن، هناك قضينا وقتًا ممتعًا وشاهدنا العديد من القطع الأثرية وعرفنا الكثير من القصص التي تكمن خلفها عن طريق مرشد تطوع ليشرح لنا، يبدو أنه طالب أو خريج حديث يُمضي فترة تدريبية في المتحف، لكن الحقيقة أن النتيجة كانت مذهلة، المشاهدة العابرة للقطع الأثرية أمر يختلف تمامًا عن معرفة قصتها، وقفنا أمام تماثيل تجسد قصص حب فرعونية، أمام حياة دينية صافية نقية تعبد إلهًا واحدًا، أمام عبقريات في النحت وصياغة وتشكيل المعادن، ذُهلت وأنا أشاهد تمثالًا طولة خمسة سنتيمترات ومنقوشًا على صدره وظهره عبارات فرعونية تمثل عدة تعاويذ، لكن كل ذلك لم يمنعني من ملاحظة اهتمام كريم بأميرة، فقد خضع أحمد تمامًا لفاتن وسار بصحبتها، بينما كنتُ أتأبط ذراع منى، وبقي كريم مع أميرة.

الأمر الثاني الذي حدث في هذا الأسبوع كان مرض عمتي، والدة توفيق، خطيبي، ويبدو أنه كان مرضها الأخير لأنني لاحظتُ الاضطراب على والدي، وقد أصرتْ أمي على مرافقتها لزيارة حماتي، نعم.. قالت لي: علينا زيارة حماتك. ولم تقل زيارة عمتك! لم أعلم وقتها أنها تعمدت استعمال هذا المسمى حينما لاحظتْ تعاملي مع خطبتي وكأنها غير موجودة. ومما

أكدّ خطورة مرض عمتي، قطع توفيق لعمله وعودته من الخارج في إجازة إجبارية لمتابعة مرض والدته.

مرت الأحداث سريعة، تدهورت حالة المريضة بشكل كبير، كانوا يقضون في المستشفى معظم النهار، بينما أعود من الجامعة مسرعة للحاق بهم في المستشفى، في المرات الأولى كنتُ أذهب لأثبت حضوري، لكن بعد تدهور حال عمتي وشحوب وجهها الذي كان منذ أيام ذا نضارة ملحوظة كنتُ أذهب وبداخلي حزن من أجلها، بعد انقضاء ساعات الزيارة، نخرج يكسو الحزن وجوهنا، نعود إلى شقتنا يرافقنا توفيق، نتناول الطعام ونتبادل عبارات المواساة.

في أحد هذه الأيام، حينما وصلنا أمام المنزل، يطلب توفيق من والدي أن يخرج بصحبتي بعض الوقت في أي مكان عام، يسمح له والدي ويصعد هو وأمي، وقفتُ متعثرة لحظات، كان طلبه مفاجئًا لي، لقد مرت عدة أيام نكون فيها بين المجموعة نتبادل العبارات الأسرية العادية، أما الآن الوضع يختلف ولستُ مهيأةً لذلك.

وصلنا إلى مطعم على النيل، يمتد جزء منه داخل النهر على شكل مركب عائم، جلسنا في صمت نتناول المشروبات، يتحدث توفيق بنبرات حزينة عن أن الأطباء أخبروه بأنْ ما هي إلا أيام قليلة متبقة لوالدته بعد أن انتشر المرض في جسدها بشكل لن ينجح معه أي علاج، فارقت عيني دمعتان حزنًا على عمتي، يتذكر توفيق العديد من مواقفها وعباراتها و.. ثم نتوقف ليعم صمت مرير.

يبدأ في حديث جديد عني أنا وعن دراستي ثم عن حالتي النفسية ومشاعري، كنتُ أعلم منذ أن طلب الخروج أنه سوف يصل إلى هذه الجزئية، دائمًا يود لو يسمع مني كلمات تؤكد له أنني أحبه، وأنني أنتظر اليوم الذي أُنهي فيه دراستي لنتزوج ونكون معًا ما بقي لنا من عمر.

بطريقة ما استطعتُ الهروب من الإجابة على أسئلته، فإن لم أكن أمتلك نحوه المشاعر الحقيقية التي يبحث عنها، فلا داعي أبدًا لأن أزيد معاناته بمشاعر كاذبة، ثم يكفيه ما هو فيه من معاناة بسبب مرض أمه.

في هذه الأيام كنتُ أنهي محاضراتي ثم أخرج من الجامعة إلى المستشفى، بين المحاضرات أتبادل بعض العبارات مع منى فقط، لم نجلس في مكاننا المفضل، لم أتبادل حتى التحية مع أحمد وكريم، نسيتُ أمر اهتمام كريم بأميرة حتى أخبرتني منى بأن أميرة سوف تأتي الأسبوع القادم كنوع من تغيير الجو، لكن السبب الحقيقي طرأ على ذهني مباشرة، هي آتية بلا شك من أجل كريم. في طريق عودتي إلى المنزل دار الموضوع في تفكيري من أكثر من زاوية، تقريبًا فارق السن بين كريم وأميرة أربع سنوات، وهي مدة مثالية للفارق بين الزوج وزوجته، أميرة زهرة جميلة تجذب الجميع نحوها حتى الفتيات، المدة المتبقية أمام أميرة حتى تنتهي من تعليمها كافية لكريم كي يرتب أوضاعه للزواج بها.

تظهر على وجهي علامات الضيق والانفعال، ثم زاد حنقي وأنا أعنف داخلي وأوبخ ذاتي.. فلتأتِ أميرة أو لا تأتِ، ليهتم بها كريم أو لا يهتم.. ماذا يهمني في كل ذلك؟!

وصلتُ المستشفى، تقابلني أمي صارخة "حماتك ماتت.. عمتك ماتت يا هدى"



ولتنزع قيدك .. وإن كان من ذهب.

(٧)

قيد ذهبي

مرت أيام الحداد ثقيلة، توفيق عندنا معظم الوقت، بعد وفاة والدته، والده متوفًّى منذ سنوات وقد أصبح والدي في محل والده، وذلك من أسباب الارتباط المبكر بيننا. يحاول خلال هذه الأيام استجداء مشاعري، بادلته بعض العبارات الطيبة التي وافقت طبيعة الحزن الذي نعيشه، يبتسم معتبرًا ذلك تطورًا ملحوظًا في العلاقة بيننا.

بعدما أغلق باب غرفتي وأخلو بذاتي وأتذكر كلماتي أشعر بدهشة غريبة، كيف تحدثتُ بعبارات توحي بأنني أحمل مشاعر نحو توفيق؟! يبدو أنها عبارات شفقة. نزعتُ القطع الذهبية "سلسلة، دبلة، أساور، خواتم" التي كنتُ ألبسها طوال أيام وجود توفيق، كانت أمي تستغل سلطاتها كي أفعل ذلك بعدما كنتُ أرفض في البداية.

حقيقة الأمر كنتُ أشعر بضيق من هذه المشغولات الذهبية، حتى إنني لم أكن أذهب بها إلى الجامعة اللهم إلا "الدبلة" فقط، وأحيانًا كنتُ أخلعها وأحتفظ بها في حقيبة يدي حتى أخرج من الجامعة، لا أعلم لماذا أقوم بذلك لكنني كنتُ أشعر براحة ملحوظة، أحسبُ أنني لستُ من ذلك الصنف الذي يهوى ارتداء المشغولات والإكسسوارات على اختلافها، هذا كل شيء.

عدتُ إلى الجامعة، رافقني توفيق، بناء على طلبه، حتى بوابة الجامعة، اضطررتُ للموافقة بعد إلحاح أمي، ففي ظروف الوفاة أو المناسبات المماثلة تزيد الاهتمامات، فتجد مَن يسألك باستمرار: هل تناولت طعامك؟ إن سعلتْ لأي سبب تجد مَن يُسرع ليأتي لك بالطبيب، وآخر يهرول كي يأتي بالعلاج، حتى ذهابي للجامعة تحول إلى حدث يرافقني توفيق على اجتيازه!

كان عليَّ أيضًا أن أرتدي القطع الذهبية حتى لا يتساءل توفيق، لكني خففتُ منها بقدر الإمكان، فارتديت السلسلة والدبلة والمحبس، وبالفعل سألني توفيق عن الأساور، أجبته بأنني أراعي ظرف وفاة عمتي، ولولا شعوري برغبته في مشاهدة قطعه الذهبية لما ارتديتُ أيًّا منها.

قابلتُ الأصدقاء، بعد عبارات المواساة المعتادة، اتفقنا على أن نتقابل جميعًا بعد محاضرات اليوم، انشغلتُ بالمتابعة والتحصيل، كنتُ أدفع نفسي للخروج من أحداث الأيام الماضية لأعود إلى حالي السابق، الزملاء، المحاضرات، الحدائق، روائح كل شيء حولي، ملأتُ صدري بعبق المكان.

بعد انتهاء المحاضرات جلسنا في مكاننا أسفل الشجرة كثيفة الظل، بهدوء يتحرك الحديث إلى مساره الطبيعي الذي اعتدناه سابقًا، ساهم في ذلك أحمد بخفة ظله، لم يستطع التزام الهدوء و رسم الحزن على ملامحه، بدأ يُلقي نكاته ويقوم بحركاته، كنتُ أحتسي الشاي، لم أستطع التحكم في نفسي فضحكتُ، ضحكنا جميعًا، يهتز الكوب في يدي حتى تناثرت بعض قطراته.

تمر ساعة ونحن على هذا الحال، لم أكن أرغب في الرحيل، خاصة بعد أن هدأ الحوار وانزوى كل اثنين منا يتحاوران في بعض الأمور، كلمات قليلة تبادلتُها مع كريم في أمور مختلفة، حتى ألفيتني أسأله عن أخباره مع أميرة، قبل أن يُبدي دهشته من سؤالي، كنتُ أنا أكثر منه دهشة، سؤالي لم يكن ليناسب المكان أو الزمان، أيضًا لم تكن هناك مقدمات معلنة لتلك العلاقة، يتأملني كريم مدة قبل أن تظهر علامات ضيق على وجهه ثم يقول:

- ليس هناك أي علاقة بيني وبين أميرة.. (يصمت لحظة يختلس فيها النظر ناحية منى) هل حدثتكِ "منى" بشيء ما عن هذا الأمر؟

- لا.. لم تحدثني "منى" في ذلك. (لاحظتُ علامات الاستفهام على وجهه فأكملتُ وأنا أواري ابتسامة أوشكت على الفرار من داخلي للاستقرار على وجهي) مجرد سؤال ورد على خاطري.

ثم وقفتُ لأخرج من تفاصيل الموقف، أخبرتهم بأني ذاهبة إلى الكافتيريا، أود تناول مشروب بارد، في داخلي سخونة لا أدري سببها، يقف أحمد لمصاحبتي وعندما أشرت له بالرفض تقف "منى" فأشرتُ لها بالبقاء في

مكانها، فقد كنتُ أرغب في الانفراد بذاتي، وإن وافقتُ على اصطحاب "مني" وجهتُ إهانة مباشرة لأحمد وهذا ما رغبتُ عنه.

تركتهم يتهامسون حول إصراري على الانطلاق وحدي، توجهتُ إلى نفسي مباشرة بالسؤال: لماذا سألتُ كريمًا عن علاقته بأميرة؟ ولماذا أوشكتْ تلك الابتسامة على احتلال ملامحي؟! ثم شهقتُ في تلك اللحظة، لماذا وُلِدَت الابتسامة بداخلي من الأساس؟! لقد وُلِدَت لحظة نفي كريم لوجود أي علاقة بينه وبين أميرة.

حينما تأكدتُ من ابتعادي عن أنظارهم، تواريتُ إلى جوار جدار أتحدث إلى نفسي بصوت مسموع، أسألها بصدق عما تفكر فيه! لم أجد إجابة شافية، جزعتُ.. شهقتُ.. حتى إنني بكيتُ! لا أعلم لماذا.. لكني كنتُ في صراع رهيب في تلك اللحظات، صراع بين جبهتين غير واضحتين، لا معالم.. لا أهداف.. لكنه موجود، تنتابني تلك الحالة من ذلك الضيق الذي ينتابنا أحيانًا بلا سبب واضح، وإن بحثنا في داخلنا لن نجد أسباب واضحة.

زادتني حيرتي ألمًا.. أفقتُ بعد دقائق لأجد نفسي وقد أسندتُ رأسي إلى الجدار، دموعي تبلل وجنتيَّ، حقيبة يدي وقد سقطت أرضًا، اعتدلتُ، حملتُ حقيبتي، أخرجتُ منها مَنْدِيلًا ورقيًا، جففتُ دموعي لكني لم أجد لأسئلتي أي إجابات.. ولم أجد ما أجفف به دموع كانت تسري بداخلي.

بعد مدة كانت طويلة حقًا، عدتُ إلى المجموعة، رغم الابتسامة التي رسمتُها على ملامحي فإن نظراتهم، وبالأخص كريم، نحوي كادت تقرأ

داخلي، أو هكذا شعرتُ. جلستُ بينهم أحتسي مشروبي في هدوء، بعد دقائق من تبادل الحوار في موضوع التدريب في المؤسسة الصحفية ومناقشة تفاصيله، ألفيت منى تتأملني بدهشة، ثم ترفع يدها لتشير ناحية صدري متسائلة:

- هدى.. أين السلسلة؟

بسرعة نظرت إلى صدري، يعم الصمت المجموعة كاملة، نظرات تمتزج فيها الدهشة بالتساؤل، تكمل منى:

- أعتقد أنكِ أتيتِ بها اليوم؟

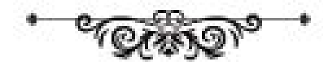
- نعم أتيتُ بها.

اعتدلتُ واقفة أبحث عن السلسلة الذهبية مكاني، سلسلة طويلة يتوسطها مصحف ذهبي، لم أجدها، بحثتُ في حقيبة يدي، الجميع وقف ليبحث عنها في المكان ثم اتسعت دائرة البحث رويدًا رويدًا، ذهب كل فرد في اتجاه، ينطلق أحمد إلى قاعة المحاضرات، أما كريم فقد يذهب للسؤال عند أمن الكلية، لعل أحدًا عثر عليها وسلمها لهم، بينما تصحبني "منى" لنسلك نفس الطريق الذي اتخذته منذ دقائق إلى الكافتيريا.

مرت ساعة حتى دب اليأس، لا أثر لها، عدنا دقائق إلى مكان تجمعنا ثم بهدوء وصمت تركتهم لأرحل بعدما وقفوا يحتويهم العجز، لم يعترضوا على رحيلي. قبل أن أصل إلى البوابة الرئيسية للجامعة ألفيتُ كريمًا في أعقابي، يطلب مني العودة للجلوس معهم بعض الوقت، لا يجب أن أرحل

والغضب يسيطر عليَّ، يجب أن أعود حتى أهدأ قليلًا ثم أرحل. لا أدري لماذا وافقته، عدتُ معه، من بعيد سُلِطت أنظارهم عليَّ وكريم يسير إلى جواري، قابلوني بعبارات تهدئة ومواساة وكانت فاتن قد انضمت إليهم وعدد آخر من الزميلات.

الغريب في الأمر، ما لاحظتُه في تلك اللحظات، أنني أشعر بهدوء غير مبرر، راحة تنتشر في خلايا جسدي، كنتُ دَهِشة من جزعهم وصمتهم لمواساتي. السلسلة تمثل مبلغًا كبيرًا، وهي هدية خطيبي وضياعها مؤكد سوف يحزنه، لكني لما وجدت الهدوء يحتويني كأني بفقدها نُزِعت عني بعض قيودي، ضحكتُ في وجوههم لأخفف عنهم، بالطبع نظروا ناحيتي بدهشة، وكأنهم يرغبون في قول: " أنتِ مكشوفة أمامنا يا هدى، فلا داعي لتمثيل القوة وعدم المبالاة". تركتهم يتخيلون ذلك، فهو أفضل من أن يصدقوا أني شعرتُ براحة نزع قيد وإن كان ذهبيًا.



وقد تأتيك الحياة .. على يد قاتلك.

(٨)

الشَّائِعَة

كنتُ صادقة الحدس عندما صنعتُ جدارًا بيني وبين فاتن فؤاد خلال السنوات الماضية، لكنها، في الآونة الأخيرة، اقتربتْ من مجموعتي بحكم صداقتها الملحوظة بأحمد فتحي، لم أجد بداخلي قدرة على رفضها منذ البداية لانشغالي بترك عزلتي أنا و"منى" والذوبان بين مجموعة جديدة من الأصدقاء، أجلتُ رفضي الداخلي لها، قد تتغير نظرتي نحوها مع الاقتراب والتعرف إليها عن قُرب، لكن ما حدث في الأيام التالية كان أكثر من أن يُحتمل.

في منزلي يمر أمر ضياع سلسلتي الذهبية بهدوء، توفيق لم يكن يمتلك ما يقوله غير أنه سوف يأتيني بأخرى في الإجازة القادمة وإن شعرتُ بضيق شديد في داخله يحاول كبته. في الجامعة يجالسني الأصدقاء بحكم العادة، حوارات تدور في عدة اتجاهات.

كريم يسأل أمن الكلية عن السلسلة الذهبية بشكل يومي ثم يخبرني بالنتيجة وقت اللقاء ونحن نحتسي المشروبات ونتسامر بعد نهاية اليوم الدراسي أو بين المحاضرات، وكأن ذلك السبب الذي نجتمع من أجله. في هذه الأيام كنتُ ألحظ نظرات فاتن نحوي، تتزايد حِدَّتُها كلما جمعنا حوار، كريم وأنا، تتزايد مراقبتها في الأوقات التي ينصرف عنها فيها أحمد فتحي وهي كثيرة.

في هذا اليوم على وجه التحديد، كنا في استراحة بين محاضرتين، نجلس في ظل الشجرة، تأتي فاتن، لم تجلس، طلبتْ بعبارات جافة من أحمد أن يتمشى معها قليلًا من أجل موضوع خاص، لم نهتم، أكملنا حديثنا الطبيعي إلى أن يعود أحمد، أفسحنا له المجال ليجلس، لكنه مال على أذن كريم يهمس بكلمات ثم ينصرف، من بعيد ألاحظ فاتن تتابعه بنظراتها، تتلاقى أعيننا فأشعر بحرارة تنبعث منها كأنها نيران تُرسل حرارتها.

يُخرجني كريم من شرودي، يميل ناحيتي هامسًا بكلمات:

- أحمد أخبرني بأن هناك خطبًا ما.

- ما هو؟

- لا أعلم.. فقط قال إنه يتعلق بي وطلب أن نلتقي بعد المحاضرة كي نناقش الأمر. أود أن نكون معًا يا هدى.

لا أدري لماذا صَعَّدتُه بنظراتي طويلًا، ثم سألته بكلمات جافة:

- هو يريدك أنت، ما دخلي أنا؟!

تكسو ملامحي قسوة لم أعهدها في نفسي، حتى إنه يرتد إلى الخلف، لا أعلم لماذا همس لي بكلماته بشكل يعزل به "منى" عن الموضوع تمامًا، أحزنني ذلك بطبيعة الحال فسألته:

- لماذا تهمس؟ ولماذا تود وجودي بينها لم تطلب ذلك من صديقتنا؟!

أنهيتُ عبارتي بإشارة خفيفة ناحية "منى" التي كانت مشغولة بالقراءة في كتاب ما، وأعتقد أنها ما فعلت ذلك إلا تفاديًا لموقف مُحرج وُضِعت فيه بسبب ذلك الهمس الذي حدث بين فاتن وأحمد، ثم أحمد وكريم، وأخيرًا كريم وأنا، شعرتُ من أجلها بضيق شديد، فازدادت ملامحي شراسة.

يلاحظ كريم ما يعتمل بداخلي ويظهر على وجهي تأثيره، فيقول:

- أنا لا أعزل "منى" عن مجموعتنا يا هدى، لكني أخشى أن يكون الأمر متعلقًا بشقيقتها أميرة.

- أخبرتني أنه لا شيء بينك وبينها!

- نعم.. (بانفعال) ولا أعلم أي شيء يا هدى مما يحدث..

ثم قام منصرفًا. بعد لحظات سألتني "منى"، وهي تطوي كتابها، عمَّ يحدث؟ لم أجد ما أقوله، قضمتُ شفتي السُّفلى بغيظ شديد حتى إنها آلمتني، لم أعقب بأي كلمات، تحترم "منى" صمتي دقائق ثم نغادر موقعنا إلى المحاضرة، جلستُ في نهاية المدرج، ولم تكن عادتي، رغبتُ في احتواء المشهد كاملًا. من بعيد ألحظ متابعة فاتن لحركاتي، لا أجد تفسيرًا لنظرتها التي سلطتها نحوي لحظات قبل أن ترسم على شفتيها ابتسامة بدت زائفة.

بحثتُ عن كريم، ألفيته بجوار أحمد في الصفوف الأمامية جهة اليمين، عدتُ بنظراتي فإذا بفاتن ما تزال تتابعني، لذا جلستُ في المؤخرة تمامًا. لم أفهم أي شيء، بل لم أستمع لما يقال في المحاضرة، كنتُ أتابع ظهر كريم، رأسه يتحرك يمينًا ويسارًا، أشعر بأطراف أذنيه حمراء، يبدو أنه يعاني ضغطًا شديدًا، الغريب أن أحمد لم تفارقه ابتسامته، أما فاتن فكانت تسترق النظرات نحوهما، بجانبي منى قلقة لكنها لا تفصح.

تنتهي المحاضرة، خرجتُ، بسبب مكاني، ضمن آخر مجموعة، بحثتُ عن كريم وأحمد أمام المدرج، الطبيعي أن يكونا في انتظاري، لم أجدهما، خرجنا أنا ومنى إلى الحديقة، نحو الشجرة، أسفلها خالٍ، كتمتُ حنقي، طلبتُ من منى مرافقتي لمغادرة الجامعة الآن، لا أرغب في الجلوس في أي مكان. كادت الدماء تتفجر من شفتي السُّفلى وأنا أعض عليها، لقد طلب مرافقته والآن يرحل ويتركني بدون أي إشارة، ماذا حدث؟! في أي أمر تحدث إليه أحمد؟!

وصلت إلى غرفتي يأكلني غضبي مثل نيران تنتشر في زرع أخضر، لماذا رحل كريم وتركني هكذا؟ إن لم يكن ليخبرني عن ذلك الأمر الذي همس به أحمد فتحي، فليكن من أجل صداقتنا التي تُحتِّم علينا الإذن في الانصراف، لقد مرت أسابيع على مجموعتنا، لا يفارقها أحد إلا بعلم باقي أفرادها أو على الأقل واحد فقط يتولى توصيل المعلومة للجميع. لكن السيد الفاضل المدعو كريم رحل فجأة، رحل بدون اعتذار عن موعد هو الذي حدده.

شعرتُ بصداع رهيب يكاد يأكل رأسي، شعرتُ بلهيب الغيظ يأكل داخلي، لو أني أعرف له رقم تليفون لاتصلت به الآن وسألته عن سبب ما فعل. من الممكن أن أتصل بأحد الزملاء لأحصل منه على الرقم، لكن لا.. إنه أمر غير أخلاقي أن أطلب من أحد رقم تليفون كريم، سوف يثير ذلك التكهنات. عليَّ التزام الهدوء والصبر حتى الغد.

لا أعلم كيف انقضى ليلي حتى أشرقت شمس الصباح، نومٌ لم يأتني براحة تُذكَر، إنما بآلام انتشرت في سائر جسدي، كنتُ أتأوَّه مع كل حركة، ثِقل رهيب في جفوني مع ألم يكاد يفتك بعينيَّ، الصداع ما يزال مستمرًّا بشكل أدخل يأس البُرْء منه إلى قلبي فنسيته.

لم أتناول غير لقيمات مع كوب شاي كبير، بالطبع لم أنجُ من ملاحظات أمي وأسئلتها عن حالتي وسبب ذلك التغيير الملحوظ، بررتُ ذلك بأنه ناتج عن تلك الظروف التي مررنا بها ثم ضغط الدراسة، بالإضافة إلى فترة التدريب التي اقتربت، وغير ذلك مما ورد على خاطري في تلك اللحظات.

ذهبتُ إلى الجامعة، سألتني منى عن سبب ذلك الإرهاق البادي على وجهي، لقد احمرت عيناي قليلًا، جفت بشرتي، هربت الدماء من شفتيَّ فبدتا جافتين مثل ورقتي شجر يابستين قد تذروهما الرياح. تؤلمني معدتي قليلًا، فأخبرتها بأنني سوف أتوجه إلى الكافتيريا لتناول بعض الأطعمة، فلم أتناول فطوري بعد، تنظر ناحيتي بدهشة، فقد أوشكت المحاضرة الأولى على البدء، بهدوء أخبرتها بأنني لن أحضرها. زادت دهشتها، والحقُّ معها في ذلك، إنها المرة الأولى التي أكون موجودة فيها بالجامعة وأتغيب عن محاضرة

ما، مهما تكن الظروف لم أكن لأتغيب عن محاضراتي، لديَّ قناعة بأن تلك المحاضرات هي أصل دراستي وعليها يتوقف تفوقي. اتخذت من الصمت سبيلًا لتفادي النقاش مع منى، لمَّا لم تجد أي فرصة للتأثير فيَّ تركتني لتلحق بالمحاضرة.

توجهتُ ناحية الكافتيريا، كانت خالية تقريبًا في ذلك الصباح، أنغام موسيقا خفيفة تنساب في المكان، آثار السهر على وجوه العمال، حصلت على قطع الباتيه مع مشروب ساخن، توجهتُ إلى منضدة جانبية، جلست أتناول ما بين يديَّ بذهن شارد.

لماذا غيرتُ جدول يومي ولم أذهب إلى المحاضرة؟ ففيها كنتُ سأقابل كريمًا، ألستُ آتية وبداخلي ألف سؤال له؟! ألا أبحث عن إجابات تحمل هدوءًا نفسيًّا؟! عضضتُ شفتي السفلى متسائلة في غيظ: "كانت المياه تسير في جدولها هادئة، لماذا ألقيتَ بهذا الحجر لتفسد ذلك الهدوء يا كريم؟!"

انتهيت من مشروبي، قضمات صغيرة من قطع الباتيه، تركتُ كل شيء ورحلت عن المكان، شعرتُ بالخواء والوحدة وأن لا أحد في الكون رغم تلك الكثافة من حولي، انتشار الطلبة في مجموعات، حتى عمال الحدائق لم ألحظهم وأنا في طريقي كي أجلس أسفل الشجرة التي اعتدنا الجلوس في ظلها، حتى فوجئت بأحدهم يشير نحوي بالرجوع، فالماء يغمر المكان.

بالقرب من مكاننا المفضل جلستُ على سور عريض لحوض زهور، بدت الشمس قريبة إلى أقصى درجة، غمرتني حرارتها، في داخلي حرارة مماثلة.

بحثتُ بين الوجوه عن زملاء ينبئون عن انتهاء المحاضرة، لا أعلم لماذا بحثتُ عن وجه كريم خاصة كنموذج لكل وجوه الزملاء، ملامحه كانت مثل قناع حيٍّ يرتديه الجميع، حتى الفتيات، ابتسمتُ لهذا الخاطر وأنا أتأمل العشرات من كريم يتحركون حولي وإن اختلفت الملابس فالوجه واحد ويحمل نفس التفاصيل التي توحي بروحه الهادئة ونظراته التي تُنبئ بالكثير، ثم فزعتُ.. شهقت.. ما يحدث غير طبيعي، ما يحدث غير طبيعي، لماذا ألصقتُ ملامح كريم على كل الوجوه؟! لماذا تسيطر صورة كريم على تفكيري مثل كلمات أغنية تلتصق على اللسان منذ الصباح؟

بعد لحظات توصلتُ إلى تفسير منطقي يتفق مع ذاتي، بحثي عن كريم كي يقدم تفسيرًا لِما حدث أمس، هو ما جعل صورته تحلق في المكان.

ظهرت منى بين زملاء الدفعة ينتشرون في كل مكان، لم ألحظ ابتسامتها الشغوف التي تحمل قلقًا، بحثتُ خلفها وإلى جوارها، لعله سألها عني فأتت به إليَّ، لكنني لم أجده، بلعتُ مقتي، ورسمتُ ابتسامة شعرت بزيفها على وجهي، سألتُها عن المحاضرة كي أهرب من الإجابة على سؤالها بخصوص ذلك التغيير الذي لاحظته عليَّ، أجابتني مع استطالة من شفتيها بأن لا جديد.

بعد دقائق ظهر أحمد بمفرده، كدتُ أسأله عن كريم، لكنني امتنعتُ، على ملامح أحمد قرأتُ عبارات كثيرة، كان يشيح بوجهه كي يتحاشى أن تلتقي عيوننا فتفضحه، هروب أكَدّ أن هناك ما يخفيه، وإن كان يتمنى أن يُفصح. بعد قليل سألته منى عن كريم، سؤال بسيط تملأ به فراغًا، لكنه كان من أجمل الهدايا التي وضعتها في طريقي بدون قصد، لكنه إن كان هدية جميلة وضعتها

منى فإن إجابة أحمد كانت أسوأ عقبة وضعها في طريقي على الإطلاق، وإن كانت بدون قصد أيضًا، فقد قال:

- رحل كريم.. لديه بعض الأمور الأسرية و....

لم أستمع إلى باقي كلماته، ولماذا أستمع وقد وصلني المضمون مع الكلمة الأولى "رحل". لم أتخيل أن ذلك يحدث بالفعل! يرحل كريم الآن ويتركني هكذا؟! لولا شيء من عقل تحكمتُ به في انفعالي لصرختُ في أحمد ولطلبتُ منه أن يُسرع ليأتيني بكريم ولو بالقوة.

أطلقتُ ضحكة خفيفة وأنا أحاول أن أبدو طبيعية لحظة وقوفي طالبة منهم أن نذهب معًا لتناول الطعام والمشروبات، نظرتْ منى ناحيتي بدهشة، ثم تساءلتْ:

- هدى.. لم تحضري المحاضرة لتناول الطعام.. وقد أخبرتِني بأنك فعلتِ ذلك ونحن في المحاضرة!

ألجمتني دهشتي، منى معها كل الحق فيما قالته، ماذا عني أنا؟! بماذا أتحدث؟! بحثتُ في داخلي عن مهرب، وجدتُه سريعًا، أكملت ضحكتي المبتورة وأنا أقول:

- بصراحة لم أشعر بلذة الطعام بدونكم.. هيا.. وعلى حسابي.

هنا صفَّق أحمد بمرح فضحكنا وتخطينا الموقف، لكن بداخلي نيران، لا أعرف كيف أتخلَّص منها، وحده كريم الذي يستطيع أن يُطفئها، وحده كريم الذي لو قابلني.. لو أفصح...

كان من الممكن أن أسأل أحمد عن تفاصيل موضوع الأمس، ولديَّ ما يبرر سؤالي، فقد طلب كريم مقابلته بعد المحاضرة لكنه نسي فيما يبدو فرحلَ، واليوم ينشغل بأمور عائلية فينصرف، لكنني لم أسأل أحمد، لماذا؟ لأنه لو كان لديه ما يُقال لأخبرني به مباشرة بدون سؤال، أحمد لا يحتفظ بسرٍّ مثل أسفنجة لا تحتفظ بماء، ثم.. ثم إنني أودُّ أن أسأل كريمًا. نعم، كريم مدين لي بعدة إجابات عن أسئلة كثيرة تكاد تذهب بتفكيري.

عدتُ إلى منزلي، حالتي أكثر سوءًا مما كنتُ عليه بالأمس، لم أكن في حالة تسمح لي بالحديث مع أي فرد، فما بالنا بتوفيق الذي أتى في زيارة أخيرة قبل سفره، لقد أوشكت إجازته على الانتهاء.

عدتُ إلى منزلي، حالتي أكثر سوءًا مما كنتُ عليه بالأمس، لم أكن في حالة تسمح لي بالحديث مع أي فرد، فما بالنا بتوفيق الذي أتى في زيارة أخيرة قبل سفره، لقد أوشكت إجازته على الانتهاء. تعاملتُ معه بمنتهى الجفاء، وبَّختني أمي بنظراتها، يبتسم توفيق، يُلطِّف الأجواء بعبارة بدت غريبة جدًّا لكنها فيما يبدو عبرتْ عن كل ما يدور بداخله، فقد قال:

- يبدو أن هدى حزينة لسفري يا زوجة خالي.

تلك هي المرة الأولى التي أضبط فيها نظراتي مشمئزة نحو توفيق، لا أدري لماذا شعرتُ بغثيان وأنا أتأمل ابتسامته العريضة التي رسمها على وجهه، زاد من ضيقي أنها بدت ابتسامة ثقة. وافقته أمي، مقتنعة أو غير مقتنعة، لا يهم، ما شغل تفكيري في هذا اليوم، هو: كيف وُلِدَت نظرتي تلك؟ لماذا أنا غاضبة إلى هذه الدرجة حتى إني أرى الأشياء الطبيعية كريهة؟!

فسروا صمتي وتلك النظرات المحايدة التي رسمتُها على وجهي بأنها حزن طبيعي للفِراق، يأتي والدي من الخارج، تغمز له أمي بما معناه أنى حزينة لسفر توفيق، يتطوع أبي لنشر روح الدعابة ونحن نتناول طعام الغذاء، وكانت أمي قد بذلتْ جهدًا مضاعفًا في إضافة أطباق جديدة للمائدة كنوع من الاحتفال بتوفيق، فلا أم له تطعمه قبل سفره، يحاول والدي أن يطعمني بيده قطعة لحم، ولما رفضتُّ، يصمم والدي، ثم يمد توفيق يده ليلتقط الشوكة المغروسة في قطعة اللحم على شكل قلب من والدي ليلاحق بها فمي.

توفيق يرغب في أن يطعمني قطعة اللحم وعلى وجهه سعادة لا حد لها، بينما يتابعنا والداي وكأن ما سيحدث الآن هو أمر مصيري تتوقف عليه علاقتنا. أشحتُ بوجهي إلى الناحية الأخرى ولما أصرَّ مددتُ يدي لألتقط الشوكة، لكنه جذبها إلى الخلف، يُصرح أنني لن آكلها إلا من يده. حسماً للموقف وعدم رغبتي في التمادي الطفولي أكثر من ذلك، أخذتُ قطعة اللحم بفمي من طرف الشوكة التي يمسك بها توفيق، لا أعلم لماذا شاهدتُ أسنان الشوكة حادة مثل أسنان رماح مسلطة نحوي فشعرتُ برعدة تسري في جسدي.

تمر عدة أيام وهذا حال كريم معي، لم يعد لديَّ أدنى شك بأن كريماً يتهرب، وإن تصادف وتقابلنا يتعمد أن يكون اللقاء بين المجموعة، لا يبدأ حوارًا معي، وإن توجهتُ إليه بالحديث كانت إجاباته مقتضبة. تهربه كان واضحًا للجميع، شاركتني "منى" هذا الرأي، بينما يُعلق أحمد وفاتن بأنه

يتصرف بشكل طبيعي وعلى وجهيهما ملامح لا أستطيع قراءتها ونظرات غامضة.

ثم حدث ما لم أرَهُ طبيعيًّا بالمرة، فقد تم تعليق كشف بمجموعات التدريب، لكل مجموعة رقم وأسفل الرقم أسماء أفراد تلك المجموعة، ذهبتُ مع "منى" لمعرفة موعد التدريب ومكانه، فوجئنا بأننا، أنا ومنى، في مجموعة أخرى غير تلك التي تضم كريماً وأحمد وفاتن، تم تبديلنا بزملاء آخرين، لماذا؟!

لا بد أنها إحدى بنات أفكار كريم، استكمالًا لما يتبعه معي منذ عدة أيام. شعرتُ بغضب شديد، ظهرت علامات انفعالي على وجهي، لم أجد ما أتحدث به، فإن نطقتُ الآن وأظهرت غضبي لكشفتُ عن شيء ما بداخلي أنا نفسي لا أعرف تفاصيله.

لكن لا بد أن أضع لهذا الأمر نهاية، سوف أعرف لماذا يتعامل معي بهذه الطريقة؟! لقد جنت على نفسها براقش.. وعلى الباغي تدور الدوائر، كشرتُ عن أنيابي وقبضتُ يدي كأني سألكم أحدهم بضربة أهشم بها أنفه الذي يرفعه متعاليًا.

في اليوم التالي تعمدتُ مقابلة كريم وجهًا لوجه، فوجئ بي أقف أمامه تحوطه نظراتي حتى حد التكبيل، يهرب بنظراته لحظة قبل أن يواجهني، يتحدث في أمور عامة، لم أكن أحتاج إلى فراسة لأتعرف على أن هناك شيئًا عظيماً يُخفيه عني. انتظرتُ حتى أفرغ كل ما في جوفه ثم يقف صامت مثل

طفل كُشِفَت كذبته، تفرستُ ملامحه، تورد وجهه، أصابع يديه التي تعبث بلا وعي، نسمة هواء تداعب خصلات شعره فيرفع يده ليسحب شعره إلى الخلف، شفتاه ترتعشان وهو يتأملني، لو أنني أمتلك قدرات خاصة لشاهدتُ أشياء ما تنبعث بيننا، أشياء لا أستطيع تسميتها ولكني أثق بوجودها بيننا، سألته بهدوء:

- ماذا يا كريم؟

بعد صمت طال بشكل ملحوظ كان يتأملني فيه، يزفر بحرارة ثم يقول:

- لا شيء يا هدى.. لا شيء.

بضيق زفرتُ أنا الأخرى، لم أهتم بكل مَن حولي، أقول بلهجة غاضبة وإن كان صوتي منخفضًا:

- كيف لا شيء.. أريد تفسيرًا لكل ما حدث خلال الأيام الأخيرة.

- ماذا حدث يا هدى؟!

سؤال ساذج مقيت، كان عليَّ أن أنتفض في وجهه، أن أنهره لادعائه الغباء بهذا الشكل، لكني، وهذا ما أدخل العجب في قلبي، لم أجد أي رغبة في تنفيذ أيٍّ من ذلك، لقد نظرتُ نحوه مبتسمة، حتى إنه خجل لحظات قبل أن يكفهر وجهه معلنًا عن ضيق وقلق شديد، بعدها يخبرني بأن تبديل الأسماء في مجموعات التدريب هو أمر يرجع إلى المسئول عن التدريب وليس له أيُّ دخل فيه، لقد تم تقديم كشف بأسماء المجموعة التي تم الاتفاق عليها من البداية، وقد فوجئ بالتغيير كما فوجئتُ أنا.

تابعتُه بنظراتي مرة أخرى لكنها تحمل أسئلة غير السابقة، يسقط بعينيه إلى الأرض كأنه يتأمل حذائي، لا أعلم لماذا رجعتُ إلى الخلف خطوة!

لم يستطع كريم أن يهرب من نظراتي كثيرًا، كان يحمل سرًّا ولا يتحمله، يبدو من نظراته صراعه الداخلي، سرٌّ عظيمٌ بدت تفاصيله على نظراته الحانية وهو يتأملني، ثم يقول بهدوء وانكسار:

- ماذا تريدين يا هدى؟!

- الحقيقة كاملة يا كريم.

كنتُ أضغط على حروف كلماتي علامة إصراري، لم يجد مهربًا.. يتنهد.. يقول:

- إذن.. لنجلس في مكان بعيد عن الكلية.

بعد دقائق كنا نجلس بعيدًا عن مبنى كليتنا، نمسك بين أيدينا بمشروبات ساخنة، لم نتذوقها، بل.. نسينا أنها معنا، لقد تحدث كريم كمن يجلس فوق كرسي الاعتراف، كلماته كانت تحمل دفء قلبه وانكسار روحه، قال:

- عندما أخبرني أحمد بأنه يريدني في أمر ما، كان وقتها عائدًا بعد حديث له مع فاتن وعدد من الزملاء، طلبتُ منكِ أن ترافقيني بعد المحاضرة للتعرف على ما يريد، لكنه أخبرني قبل أن تبدأ المحاضرة مباشرة بما يتحدث به الزملاء، يتحدثون عن الأمر في جزع يا هدى، يقولون إن.. إن بيننا قصة حب.

هنا يصمت قليلًا، أشعر بصدره ينتفض، ثم يُكمل بكلمات مصوغة من حروف ترتعش كألسنة اللهب:

- لقد فسروا ما بيننا من صداقة بأنها قصة حب، ثم علقوا جميعًا بأنكِ فتاة مخطوبة وعلى وشك الزواج وبأنني فتى بلا أخلاق.

كنتُ صامتة أُصغي إليه وأتابع حتى أنفاسه، بعد فترة يفرقع فيها أصابعه، يقول:

- لذا آثرتُ الابتعاد يا هدى، حجَّمتُ علاقتنا في أقل الحدود حتى أُخرس الألسنة. هذا كل شيء.

يصمت.. الآن.. إما أن نرحل، أو أتحدث أنا، بعد لحظات ألفيتني أفضل الأمر الثاني، اعتدلتُ لأواجهه، نظرتُ إلى عينيه مباشرة، تأملته، تمس أنفاسه الحارة وجنتيَّ، فقد كانت المسافة بيننا تسمح بذلك، ما تحدثتُ به كانت لا يتناسب على الإطلاق مع طبيعة الموقف، لقد قلتُ ساخرة:

- إذن.. لتظل على ما تقتنع به من هجر ما دامت "شائعة" مثل تلك قد أثرت عليك بهذا الشكل.

تعمدتُ أن تحمل كلماتي لا مبالاة، كأن أمره كله لا يعنيني، أيضا كي أُظهر مدى قوتي، مثلي لا تتأثر بمثل هذه الشائعات، خاصة إن كان مصدرها فتاة مثل فاتن، لقد صدقت نظرتي نحوها منذ البداية.

بعد كلماتي الأخيرة، أقف لمغادرة المكان، شاهدتُ على وجه كريم علامات صراع حتى إن الدماء فرت هاربة من وجهه لتساعد قلبه على انفعاله وأطرافه على التحفز، لقد قبض يديه بعنف، ولو أنهما أمسكتا بشيء لحطمتاه. أكان ينتظر أن أُثني على أفعاله السابقة حال تجاهلي، أم أسأله البقاء؟!

ليتذوق مما أذاقني. رحلتُ وتركته، أكلتُ شفتي السُّفلى حتى أدميتُها.



وقد لا ندرك أن ساعات نعيشها بقلب نابض..

تعادل سنوات.

(٩)

التدريب

قررتُ ألا أذهب إلى الجامعة حتى نهاية الأسبوع كي لا أتقابل مع كريم، أما الأسبوع التالي فسوف يذهبون فيه إلى التدريب، والذي يليه نذهب نحن إلى التدريب، وبذلك تطول المدة التي لا نلتقي فيه. شعرتُ بنوع من الارتياح نحو قراري هذا، لكن سلوكي كان على العكس تمامًا، كنتُ مضطربة، عصبية، متوترة، باستمرار شاردة الذهن.

تلحظ أمي شرودي وبعض التغير البادي على أفعالي، تسألني مرة، ابتسمتُ.. ثم ضحكت.. ثم أشحتُ بيدي في الهواء علامة اللامبالاة وغيرتُ الموضوع. وبعد فترة سألتني ثانية فأخبرتُها بأن صداعًا رهيبًا يكاد يفتك برأسي، أما في الثالثة فقد تركتُها وأغلقتُ خلفي باب حجرتي مؤثرةً وحدة وصمتًا.

في اليوم الثاني، تأملتُ ذاتي، بينما كنتُ أمر أمام مرآتي، فإذا بي مثل امرأة متزوجة أنجبت من الأطفال سبعة، ثوب منزلي يخلو من أي نقوش، إيشارب أعقده حول رأسي، شعري، وهو ناعم، مهوش منفوش، بشرة جافة صفراء لخلوها من الدماء، عينان غائرتان تموج فيهما شعيرات دموية حمراء، صدر رقيق لا يتحرك وكأنه لا يتنفس.

جلستُ أبحث عن هدى لأناقشها، ماذا يحدث؟!

لقد انطلقتْ شائعة ما، لا أساس لها، والطرف الآخر، كريم، آثر الابتعاد خوفًا من انتشار الشائعة، وكما قال لي: "يخاف عليّ".. المفترض أن ينتهي الأمر عند هذا الحد يا هدى!

أنا في نهاية الأمر فتاة مخطوبة ومُحدد موعد زفافي، لي خطيب يحبني، ذهبياته تحوطني، والدايَ يباركان بسعادة، حتى زملاء الدراسة امتعضوا من فكرة وجود مشاعر من نوع خاص بيني وبين كريم، كل الطرق تصبُّ في نهاية واحدة، لا توجد علاقة ما بيني وبين كريم، نحن فقط مجرد زملي دراسة.

يا هدى..؟!

سخرتُ من نفسي وأنا أتوجه لها بذلك السؤال الساخر، وكأني أقول لها، إن كذبتِ على الجميع فلا يجب أن تُخفي مشاعرك الحقيقية عن ذاتك، اعترفي يا هدى؟

أعترف بماذا؟! لا يوجد ما أعترف به، أنا فتاة طبيعية، كل ما أشعر به هو شعور بالملل، حيث لا تحمل الحياة الجديد.

بعد لحظات من البحث، وجدتُ هناك في أعماقي.. في القاع بالتحديد.. نقطة سوداء، هي نقطة غضب.. غضب من فاتن وغيرها ممن تحدثوا في خصوصياتي، لماذا أطلقوا مثل تلك الشائعة؟ لم أهتم يومًا بأحد منهم، ليفعل كل فرد ما يريد، لهم مطلق الحرية، لماذا يحاصرونني بهذا الشكل؟! لقد قضوا على لقاءاتي مع كريم، لم نعد نلتقي، وإن كنا بين المجموعة وفي وضح النهار، لم أعد أتنسم عبير الزهور يسبح في هواء الحديقة، لم أعد أشعر بروعة ظلال الشجرة وهي تتراقص على وجهه، أفتقد أصوات الزملاء والضحكات، أفتقد صوت العصافير المحلقة، أفتقد روعة المشروب المثلج يأتيني به كريم ليقضي على حرارة تصهر داخلي.

تمر الأيام ثقيلة، تتزايد فيها همومي، يقتلني شوقي للخروج، يقتلني عقلي الذي يفرض قيود حديدية تكبل حركتي، صراع مرير أسقط فريسته، يتزايد ألمي، رأسي ثقيل لا أستطيع حمله، أظل في سريري بالساعات، أتجنب لقاء والديَّ، لا أجيب على اتصالات "منى"، أمسك بالكتب الدراسية أقرأ فلا أعي شيئًا، أعيد القراءة لعلي أُبعد تلك الصور التي تسيطر على تفكيري عن ذهني، أفشل، تعود الصور أكثر وضوحًا، الجامعة.. الحديقة.. الأصدقاء.. كريم.

في اليوم الثالث من أيام بقائي في المنزل، قررتُ أن أشارك أمي أعمال المنزل، النتيجة كانت أسوأ شيء يتوقعه إنسان، فقد حُرِقَ الأرز فوق النار وكان مصيره القمامة، ولولا رائحة الأرز المتفحم لما أسرعنا وأنقذنا الدجاجة التي أوشك مرقها على الجفاف التام، تتابعني أمي بنظرات ملؤها الدهشة

وهي تشير لي بالخروج من المطبخ، سوف تُعد هي الطعام، إن كنتُ أرغب في مساعدتها حقًا فلأحمل الملابس من الغسالة لنشرها على حبل الغسيل، بعد دقائق كنت أنادي أمي لتلحق بتلك الملابس التي سقطت من بين يدي إلى الشارع. في النهاية تقرر أمي الاستغناء التام عن خدماتي.

في اليوم الرابع قررتُ الاتصال بـ "منى"، حديث طويل بعيد كل البعد عما تتوق له نفسي، ألقيتُ عبارات محايدة تجعلها تذكر ردود أفعال الزملاء في الجامعة على تغيبي، لكنها تتهرب بلطف كأنها تتعمد إثارتي، تنتهي المحادثة بلا جديد.

في حجرتي تمددتُ على سريري، أشعلتُ جهاز الكاسيت على أغنية لأم كلثوم، أذوب مع لحنها، تأخذني كلماتها التي تعبر عن ذاتي "طول عمرى باخاف م الحب.. و سيرة الحب.. و ظلم الحب لكل أصحابه" كلماتها رقيقة عذبة تعبر عن حالي، يسري في جسدي خدر لذيذ، أعود إلى الأغنية "طول عمرى باقول: لا أنا قد الشوق وليالي الشوق.. ولا قلبي قد عذابه.. وقابلتك إنت لقيتك بتغير كل حياتي".

أغمض عينيَّ، قلبي مثل عصفور صغير يرتجف بين ضلوعي، أضم يداى على صدري لأحتويه كطفل رضيع. تنساب الكلمات حانية، تعاني الخوف والرغبة، مع الموسيقا مثل ماء صافٍ يترقرق عبر جدول تحوطه شجيرات الصفصاف تمس أهدابها صفحة الماء، بين الشجيرات رياحين وزهر البنفسج، بين الأغصان يتوارى بلبل يصدح بلحن عذب، تأتي نسمات ناعمة مُشبَعة ببرودة الماء ومُحمَّلة بعطور الجنة لتمس وجنتيَّ، ترهف مشاعري

حتى تكاد روحي تنطلق من جسدي لتطوف المكان، بحثتُ عن أنفاسي لعلي أستعيد روحي، مع "ولا قلبي قد عذابه.." أشعر بسخونة دموعي تنساب على وجهي، أجففها بأطراف أصابعي، خدر ينطلق في جسدي من مَسِّ يدي، كنتُ مثل طيف.. " قابلتك إنت.. " يظهر طيف كريم أمام عينيَّ، انتفضتُ مكاني مرعوبة، بيد ترتعش فصلتُ جهاز الكاسيت، ماذا أفعل؟! كيف سمحتُ لنفسي بمجرد التفكير في هذه الكلمات، كيف رسمتُ طيف كريم بريشة خيالي على صفحات أنيني؟!

هي ليست المرة الأولى التي أستمع فيها لأغنيات أم كلثوم، لكنها المرة الأولى التي أتفاعل مع كلمات الأغنية بهذا الشكل، يبدو أنني أنزلق إلى هوة لا أعلم مدى عمقها، أسير في حجرتي باحثة عن ذاتي، أحاول التشبث بتفاصيل الماضي كي أعود، لا يجب على الإطلاق أن أفكر في كريم بهذا الشكل، هو مجرد زميل دراسة تطورت علاقتي به فأصبح صديقًا، نعم هي صداقة وسوف تستمر صداقة مع الأيام.

تنفستُ بهدوء.. ابتسمتُ في محاولة لجعل الأمور تبدو طبيعية حتى إنني عدتُ إلى جهاز الكاسيت لتنساب الكلمات والألحان الرائعة لتحلق بي في دنيا غير الدنيا التي أعيش فيها، تنتظم أنفاسي، تنشد ملائكة الحب أنشودة عشق تهدهدني كلماتها، ترسم على وجهي ابتسامات العمر " اللي بيشكي حاله لحاله.. و اللي بيبكي على مواله.. أهل الحب صحيح مساكين.. "

أشعر بنفسي أحلق في فضاء لا نهائي، أشاهد أهل الحب.. في كل مكان زوجين.. أطفال.. شباب.. كهول.. طير.. حيوان.. زهور بنفسجية تعانق

زهور الياسمين البيضاء.. الجميع على صفحة الأرض الخضراء الممتدة إلى ما لا نهاية، الجميع ينظر إلى أعلى.. يلوِّحون نحوي أن تعالي يا هدى.. أقترب منهم.. أوه.. أنا أحلق بجناحين أسطوريين أضرب بهما الهواء، أطير وأطير وأطير بين أسراب لا نهائية من طيور تحمل ألوان الكون.. زقزقة العصافير تحتويني، أسمع نقراتها مثل دق، فإذا بها عصافير الصباح تدق نافذتي، تصيح تستدعيني كي أصافح يوم جديد.

لا أعلم لماذا صحوت من نومي سعيدة لدرجة أني فتحتُ نافذتي، ملئتُ صدري بنسمات الصباح، ألقيتُ بعبارات الترحاب، بل ألقيتُ قبلات في الهواء لكل شيء، عصافير صغيرة تلهو، أشجار متناثرة أمام البنايات، طفلة صغيرة تمسك بيد أمها بينما عيناها تنظران نحوي، لوحت لها في سعادة، خرجتُ من غرفتي، قبلتُ أمي وأنا منطلقة إلى الحمام، تركتُها تنظر نحوي دَهِشة. الماء ينساب على جسدي ليحتويني في حنان، حتى صوته كان جميلًا.

تناولتُ طعام الإفطار بشهية غير مسبوقة، ارتديتُ ملابسي، تعطرت بمزيج من عطر الياسمين مع النرجس، خرجتُ إلى الجامعة، هو يوم الأحد أول أيام الدراسة في الأسبوع. سوف أقابل "منى"، نجلس أسفل الشجرة بين زهور الحديقة، بين المحاضرات نأتي بالمشروبات والأطعمة من الكافتيريا، ثم أتحدث إليها بالمفاجأة.

بالفعل.. يسير يومي كما أريد بالضبط، حتى ينتصف النهار، قبل المحاضرة الأخيرة أمسك بيد "منى" لا ألتفت إلى دهشتها، أنطلق بها إلى

غرفة المعيدين، تتبعني كطفلة، أقف أمام "المعيد" المسئول عن التدريب، بعد تبادل عبارات قليلة أطلب منه أن يعطيني خطاب التدريب الخاص بنا كي نتوجه إلى المؤسسة الصحفية، يندهش قليلًا لتمتزج دهشته بدهشة "منى" التي تقف صامتة، يقول:

- وفقًا لجدول التدريب أنتما في مجموعة الأسبوع القادم.. أما المجموعة الحالية فقد بدأت التدريب منذ الأمس.

استخدمتُ كل ما أملك من أسلحة ومبررات واستعطاف حتى ينصاع "المعيد" في نهاية الأمر ويأتينا بخطاب مختوم بشعار الكلية يحمل اسمينا وموجَّه إلى المؤسسة الصحفية، كنتُ أحمل الخطاب في يدي كمن يحمل وثيقة السعادة الأبدية، أنطلق في طريقي إلى مكاني المفضل، أسفل الشجرة، تتبعني "منى" متعثرة في ثوبها، يتملكها ذهول يتزايد كلما شاهدتْ تحركاتي وتعبيرات وجهي، كان يجب أن نتوجه إلى المحاضرة الأخيرة، لكن هأنذا أترك مبنى الكلية، أطير إلى عُشّي بأجنحة فيروزية، جلستُ أتأمل المكان وأملأ صدري من نسماته التي تحمل عبق أيام مضت، فجأة تذكرتُ "منى" التي ما تزال تتأملني بدهشة، أخبرتها بكلمات حاسمة:

- سوف نذهب غدًا إلى التدريب يا منى.. سوف نلحق بهم..

للمرة الأولى تتحدث "منى" بعد صمت وذهول دام مدة طويلة، تقول محاولة كبت انفعالها:

- هل لي أن أفهم ماذا يحدث يا هدى؟

ابتلعتُ نشوتي، بحثتُ عن كلماتي، بهدوء أجبتها:

- لا شيء يا منى.. سوف نذهب للتدريب مع زملائنا.. لأنني لا أشعر براحة نحو المجموعة الـــ..

تقاطعني بشدة وقد أمسكتْ بيدي بين راحتيها كمن يجذب غريق:

- هدى.. أرجوكِ يا صديقتي.. (تنفعل حتى تفر منها الدموع) أخبريني.. ماذا يحدث؟ فيما تفكرين يا هدى؟

- أخبرتُك يا منى أنه لا شيء و..

- أشعر بقلبك ينتفض يا هدى.. تعبيرات وجهك غريبة.. أرجوكِ يا حبيبتي.. لا تُخفي عني أي شيء؟

حاولتُ أن أهدئ من روعها، أمسكتُ بيديها، قبلتُها في حنان، احتويتها بنظراتي لأطمئنها وأنا أقول:

- صدقيني يا حبيبتي.. لا يوجد أي شيء.. إصراري على الذهاب للتدريب معهم ما هو إلا تأكيد لذلك، لن أهرب من مواجهة شائعة لا أساس لها يا منى!

بطبيعة الحال كانت "منى" قد علمت بشأن تلك الشائعة، تخشى مواجهتي، لكن نظراتها تفضح مكنونها، تخطيتُ مرحلة النقاش حول كيفية معرفتها وماذا يُقال، استرسلتُ في وصف صداقتي بكريم، وأنها مثل صداقتي مع أحمد، ومع كل مَن تقربتُ منهم بالفعل خلال الفترة الماضية، وما هي إلا سنة

دراسية أخرى غير تلك التي انقضى معظمها ونفترق لتلتهمنا الحياة، وأنا بالذات حياتي المستقبلية مخططة سلفًا، لي خطيب ومنزل زوجية في انتظاري، ذهبياته في أصابعي وحول معصميَّ.

بعد نصف ساعة تقريبًا تفهمتْ "منى" موقفي بل شجعتني على الذهاب إلى التدريب مع المجموعة لتأكيد طبيعية الأمور. يحتوينا الهدوء مرة أخرى، استدعيتُ سعادتي التي لازمتني منذ استيقاظي من نومي، بحثتُ عن طيور مغردة لتشجيني، نسمة هواء حانية لتربت على وجنتي. عادت ضحكتنا وسعادتنا، افترقنا على وعد باللقاء في صباح اليوم التالي لبدء التدريب في المؤسسة الصحفية.

عندما تسيطر السعادة على الفرد قد تأخذه بعيدًا عن النوم، يحلو السهر، يذوب الجسد، تُحلق الروح في فضاء الكون، تنسكب الألحان لتروي الخلايا. تقترب الساعة من الثانية بعد منتصف الليل، بعد يوم طويل يهجرني النوم، تؤلمني كلمة الهجر، تأخذني بعيدًا عن سعادتي، أجلس فوق سريري أتأمل فضاء الغرفة، الهجر مقابل الوصال، أي وصال يا هدى؟! ألم نتفق على أنْ تسير الأمور في مجراها الطبيعي، الصداقة؟!

أنفض رأسي، يجب أن أبتعد عن تلك الأفكار، لقد أنهيتُ هذا الجدل في داخلي، لا مجال لعودة التفكير في تفاصيله مرة ثانية، يجب أن أنام الآن، ساعات قليلة متبقية على موعد خروجي للتدريب. أجذب الغطاء، أغطي رأسي محاولة الهرب من تلك الأفكار التي تحلق في المكان، أستدعي كل الطرق التي تعمل على ارتخاء الأعصاب وجذب النوم، تفشل جميعها حتى

يتردد صوت مؤذن الفجر. أتوضأ.. أقف على سجادة الصلاة بين يدي ربي، أطلب العون، أبكي حتى تبلل دموعي وجنتيَّ وتتخلل شفتيَّ.

أعود إلى سريري وقد شملتني راحة، يسري في جسدي خدر، ثم أذهب في نوم مليء بالأحلام المؤلمة، سيارة مسرعة تصدمني وأنا أعبر الطريق تاركةً توفيقًا لشراء شيء ما، على الجانب الآخر يقف كريم، جسدي مسجًّى في بركة دماء، ولكني أشاهد كل شيء، أمدُّ يدي نحو الأمام مستغيثة، عشرات المارة يحجبون صورة كريم، أصرخ وأصرخ حتى ينتفض جسدي، فأجدُني على سريري.

لم أتوقف كثيرًا أمام هذا الحلم المزعج، لستُ ممَن يتأثرون بالأحلام، هي في النهاية مجرد جولات للعقل الباطن يحقق فيها بعض ما يعجز صاحبه عن تحقيقه على أرض الواقع. ارتديتُ ملابسي، كوب شاي فقط، أخرج مسرعة للحاق بموعدي مع "منى".

بعد قليل من الوقت والكلمات، وكثير من تعبيرات الأمل والرجاء الممزوجة بسعادة صامتة على وجهي، نصل إلى المؤسسة الصحفية، بداخلي صراع رهيب بين سعادة بلقاء، ولقاء يُدمي. قررتُ ألَّا أفكر في تفاصيل اللقاء، ليكن ما يكون، لقد دعوت ربي في صلاتي وسألتُه التوفيق.

في تلك المؤسسة الصحفية، المبنى عملاق يذهب بعقولنا، صور كبار الكتاب منتشرة على جدران البهو الذي أرشدنا إليه موظف الاستقبال،

حيث نجتمع ليصحبنا أحدهم كمجموعة والانطلاق بنا داخل أروقة المؤسسة ومطابعها.

جلستُ أتبادل الكلمات مع "منى" دقائق حتى سمعنا صوت أحمد يرن في المكان معلنًا عن قدومه، كان يتحدث إلى كريم، فقد ذكر اسمه، شعرتُ بقلبي يسقط من بين أضلعي، بصعوبة ملأتُ صدري بالهواء كي أشعر به، فجأة يعود قلبي منتفضًا، أجذب طرف الإيشارب على صدري إلى الأمام قليلًا حتى لا تظهر حركة القلب المنتفض، يقترب صوت كريم، يحاول قلبي الوقوف لمقابلته، أتشبث بمسندي المقعد، يرفض قلبي البقاء، يحمل عينيَّ لمصافحة كريم وهو يدلف إلى البهو، يتأملنا.. لم أشعر بأحمد يتأملنا هو الآخر، لم أشعر بعيون "منى" وأحمد وهي تتأرجح بيني وبين كريم مثل كرات تنس سريعة، كل ما شعرتُ به هو قلبي يصافح قلبه ثم يعود إلى مستقرِّه، أعاود التنفس، أنظر ناحية "منى" فأجد على وجهها تعبيرات حائرة وإجابات عن أسئلة صامتة لم تخرج إلى الواقع، إجابات تؤكد أن سبب وجودنا الآن هو "قلب" هدى، أو أنا أشاهد تلك التعبيرات على وجهها، وإن كانت غير حقيقية. أشرتُ نحوهم بسخرية كي أتخطى توتر اللحظة:

- أتعرفين هؤلاء؟!

ثم ضحكنا، وكنا نعلم أننا نضحك على أنفسنا، ثم تحاشينا أن نسير متجاورين أنا وكريم، ثم تحاشينا تبادل النظرات والابتسامات ما دامت هناك عيون تراقب، ثم ارتدينا ثوب الصداقة فوق ثوب الشوق وانطلقنا في تفاصيل اليوم حتى أوشك على الانتهاء، سوف يرحل كل منا في طريقه.

نعم لم أتبادل مع كريم أي كلمات تروي ظمأ، إلا أنني ارتويت برؤيته حتى شعرتُ بالسعادة تعود لتسري في عروقي بعد أن هدأ الصراع الداخلي.

قبيل الرحيل علمتُ أن أحمد وكريمًا وباقي المجموعة سوف يذهبون إلى أحد الفنادق القريبة لزيارة وفد من طلبة الصعيد أتوا للتدريب في نفس المؤسسة، نظرتُ نحو "منى" أسألها الموافقة على مرافقتهم، لم تخذلني "منى" أبدًا، هي أقرب إلى قلبي من نفسي، احتضنتها ونحن نتبع المجموعة في طريقنا إلى الفندق.

في بهو الفندق، بعد التعارف، جلستُ بجوار "منى" فوق كنبة في نهاية البهو بشكل يتيح لنا شيئًا من الخصوصية وفي نفس الوقت يسمح لنا برؤية المكان كله، لحظات قليلة تقترب منا إحدى فتيات جامعة الجنوب، تجلس للتعارف وتبادل بعض العبارات.. ثم تغادر ويخلو مكانها، تأتي فاتن لتجلس فيه، أشعر بنظراتها تخترق كل مكان في جسدي، شبح ابتسامتها الباهتة يغطي وجهها، بخبث شديد تتابع نظراتي تارة ونظرات كريم تارة أخرى، بصقتُ عليها في خيالي ثم نزعتها من الوجود بعد أن حملتُها مثل جيفة وألقيتُها من فوق قمة جبل، سرت الراحة في جسدي بعد أن قضيتُ عليها في خيالي.

تحدثتُ مع "منى" و رأسي يتحرك مع العبارات بشكل مصطنع بينما أتابع كريمًا بنظرات خفية، بعد وقت ألفيته وقد اندمج في الحديث مع إحدى فتيات الجنوب، يبدو أنهما يتحدثان في أمر مهمٍّ، فقد ظهرت على وجهه جدية مع تركيز شديد، تأملتُه.. يغمرها بنظراته، تمس أنفاسه وجنتيها، حرارة جسديهما تكاد تمتزج بينما أجلس هنا في مكان قصيٍّ أتأمل. ماذا يقول لها؟ ماذا تقول

له؟ كيف يقف ليتحدث معها هكذا بينما آكل بعضي بهذا الشكل؟! ابتلعتُ صرختي لتبقى مثل جمرة بداخلي.

تأتي فتاة جنوبية أخرى للتعارف، أستغل الفرصة وأدير دفة الحوار نحو الصداقة في مجموعتنا، وأن هناك أصدقاء نعتز بهم، وقبل أن يتغير الموضوع لأي سبب أسرعتُ بالإشارة كريم، طلبتُ منه أن يأتي للتعرف إلى هذه الفتاة، زينتُ وجهي بابتسامة صماء وأنا أتجاهل نظرات فاتن التي بالغتْ في جعلها مندهشة. يأتي كريم وأقوم بعملية التعريف، بعد تبادل العبارات المعتادة أقف من مكاني لأبحث عن ماء، يتحرك كريم ليأتي به، أتحرك مبتسمة طالبة منه ألا يجهد نفسه، الخطوة التي ابتعدنا بقدرها أفسحت لي المجال كي أهمس له بقسوة:

- فيما كنتَ تتحدث منذ قليلة مع هذه الفتاة؟

حركتُ رأسي بإشارة نحو المكان الذي كان يقف فيه منذ قليل، ينظر نحوي متعجبًا، لكنه لم يكن تعجب المستنكر، إنما كان تعجب راغب فاقد الأمل، يبتسم مُطلِقًا آهة طويلة حاول إخفاءها لكنه لم ينجح، تأملني، تأملته، شاهدتُه عملاقًا، تمنيتُ لو تعلقت في رقبته لأغوص في أحضانه، فجأة يهز رأسه مناديًا على صديقه أحمد كي يذهب معه لشراء الماء والعصائر، يرحلان، يتركني غارقة في بحر شوقي، تذكرتُ سؤالي الذي لم أتلقَّ إجابته، اندهشتُ.. كيف سألته هذا السؤال وبتلك اللهجة! بأي حق سمحتُ لنفسي بأن أسأله عن حوار له مع فتاة أخرى؟!

يعودان بعد دقائق ومعهما الماء والعصائر، يُقدم لي كريم زجاجة الماء، ألمح بين يديه علبة العصير المفضلة لديَّ، الجوافة، يعلم أنني أعشق رائحة هذه الثمرة، أتاني بها كي أطفئ ظمئي بدون أن أطلب منه، لماذا لا يقدم ما يطفئ نيران قلبي.

مهلًا يا هدى، هل نسيتِ ذلك العهد الذي اتخذته؟! ما بينكما لا يتعدى الصداقة، لا تنسي ذلك مهما حدث يا حبيبتي. نعم.. أَحيانًا كنتُ أنادي نفسي بـ "حبيبتي".. حبيبتي حقًا لا سخرية، أنا أحب نفسي وأقدرها، لذا يجب عليَّ ألَّا أنساق خلف هوى يقلل منها، فها هي فاتن ترمقني بنظراتها وأنا أتناول عصيري المفضل من كريم بالرغم من محاولات "منى" لشغلها عني.

أشرتُ لكريم كي يجلس إلى جواري، تأملتُ ملامحه الدَّهِشَة وقد تعمدتُ تجاهل الجميع وسألته بقوة:

- أراك تعيش حياتك بشكل طبيعي يا كريم؟

- وماذا يمنعني من ذلك يا هدى؟!

قالها بهدوء كمن يتحسس الحروف قبل أن تخرج إلى فضاء الكون، تنتقل مع كلماته، لا.. بل انتقلت عبر الفضاء الموجود بيننا تدفقات روحية جعلتني أشعر بداخله ينزف وهو يواري ما يئن قلبه من حمله. لكن ما دام تصنع الهدوء والاستقرار فقد سألته:

- إذًا رست مركبك على شاطئ آمن، بينما تركتني في قلب بحر ثائر.

- بمعنى؟!

- بمعنى أن تنقذني يا كريم.. لا تتركني وحدي.. أرجوك.. سوف أجن.. دلني على الطريق الذي سلكته حتى برئت كي أسلكه.

لولا المكان والأصدقاء لكنتُ ارتميتُ على صدره باكية ساعة.. باكية حتى الصباح.. باكية حتى أغيب عن الوعي، المهم أن يكون ذلك على صدره. يقول في هدوء:

- الأمر بسيط جدًّا.. لكن اهدئي الآن.. هناك مَن يراقب عن قرب.

وأشاح بنظره ناحية فاتن التي تتبادل الحديث مع أحمد ومنى ومجموعة من طلبة الجنوب، لم يعد يهمني أحد، نفسي هي الأهم ويجب ألا أتركها تغرق بين أمواج ثائرة، وإن كان قد نجا بالفعل فليأخذ بيدي.



ولن تستطيع الكذب على قلبك.. فهو منبع الصدق.

(١٠)

الخلاص

قبل أن ينتهي اللقاء، قبل أن يحدثني كريم عن تفاصيل درب الخلاص مما نحن فيه، حدث ما لم أكن أتخيل حدوثه على الإطلاق.

كنتُ أتحدث مع كريم بهدوء باحثة عن حل لما يمتلكني من فكر يكاد يقتلني، حتى حدثني كريم بأن هناك مَن يراقبنا وأشار بطرف خفي ناحية فاتن، قبل أن أصرخ فيه بأنني لم أعد آبه بأحد، نظرتُ ناحية فاتن بحركة لا إرادية، كانت بالفعل تراقبنا رغم وقوفها بين مجموعة أخرى تتبادل معهم الحديث، تصطدم نظراتنا، أنا وفاتن، تتكسر مثل زجاج محدثة ضجيجًا على بلاط بهو الفندق، تلحظْ فاتن مدى الحنق الذي تحمله نظراتي من جراء مراقبتها لنا، وكأن قوى خفية تجتذبها نحوي، تقترب وقد رسمت على شفتيها ابتسامة صفراء، يصمت كريم بل يتحجر مثل تمثال، لو أننا نعيش في غابة لنزعتُ أقرب غصن جاف أو حملتُ قطعة صخر مدببة وهويتُ بها على

رأس فاتن حتى يأتيني الغراب ليعلمني كيفية دفنها، هذا أقل عقاب مع تلك النوعية المتطفلة من البشر.

كان ذاك ما يدور بداخلي بعد نظراتها نحونا، ما بالنا بها أقدمتْ عليه، لقد اقتربت حتى احتلت ذلك الحيز الذي يفصل بيننا، كريم وأنا، وبهدوء أفعى مبتسمة تطلب من كريم أن يتركنا وحدنا لأنها تود أن تخبرني بأمر يخص الفتيات وحدهن، ثم تنهي كلماتها بضحكة تناسب ملهًى ليلي مليء بالخمور. صامتًا يتحرك كريم تاركًا المكان، شعرتُ به يكظم غيظه، فقد أطبق قبضتيه وصعدت الدماء إلى أذنيه.

نظرتُ نحو فاتن مستاءةً مستفسرةً، ترسم على وجهها تلك الابتسامة وهي تميل نحوي لتهمس بكلماتها:

- سؤال صغير يا هدى.. هل تحبين....؟

نطقتْ بتلك الكلمات على مهل وبشكل استعراضي أكثر منه استفهامي، ثم صمتتْ لحظات وهي ترنو ناحية كريم، ثم تعود لتلقي سهام نظراتها المسمومة نحوي وهي تُكمل قائلة:

- خطيبك؟

أين تلك القبضة الحديدية التي يضعها أحدهم في يده في أفلام الأكشن كي ألكمها بها في فكها السفلي فتسقط بالضربة القاضية؟ أين مخالب الفهد كي أنزع عن وجهها تلك البراءة التي ترسمها وأنزع معها جلد وجهها لأتركه وجهًا داميًا بلا تفاصيل؟

لا أدري بالتحديد على أي حال كنت، رعشة خفيفة تُمسك بجسدي، أفقد الحواس كافة، فلم أعد أرى أو أسمع أو أتكلم أو أشم، ولو غرس أحدهم سكين ما شعرتُ، أنا تمثال من غضب على شكل إنسان يقف.

هناك.. في نهاية الدوامة التي سقطتُ فيها شعرتُ بالدماء تفور في رأسي، تغلي في جسدي بأكمله، كدتُ أسقط مكاني فاقدة الوعي.

هي مواجهة مبكرة مع الوجود، إما التصدي للبقاء أو التلاشي. تتنقل فاتن بابتسامتها الساخرة بيني وبين كريم الواقف على بُعد خطوات، تابعتُ نظراتها حتى التصقت عيناي بكريم، تشبثتُ به، تمنيتُ لو تلقاني على صدره قبل السقوط، في داخلي حرب ضارية أسمع صليل سيوفها، صهيل جيادها، صراخ الجرحى، من بعيد يأتيني صوت سرب من الطيور الجارحة تنتظر القتلى لتنهشهم متلذذة، أتأمل فاتن فأراها مثل أنثى نسر تحلق فوق سمائي.

ملأتُ صدري بالهواء، يجب أن أخرج من اللحظة بأي شكل، يجب ألا أكون فريستها، لا بد من التحليق بعين الخيال لمواجهتها، تأملتُها مليًّا، نسجتُ على وجهي ابتسامة تُماثِلُ ابتسامتها، تكشفتْ لي في لحظة واحدة، هي من ذلك النوع الذي يسعد بتعذيب الآخر، وكلما ضعُفت فريستها يزداد هجومها. فصيلة نادرة من البشر، لا تترك أي فرصة للانتقام، لا ترحم ضعيفًا، تبذل كل ما تملك من قوة كي تظهر أمام نفسها بمظهر القوي، لكنها أضعف ما تكون إن وجدتْ مقاومة، ثم تكون مثل جيفةٍ إن وجدتْ هجومًا،

لهذا تتمادى في تعذيبي، يجب أن تعرف تلك الفاتنة مع أي نوع تتعامل، يجب أن تعلم حجمها الحقيقي.. والآن. اقتربت منها مبتسمة.. همستُ:

- نعم.. أحب خطيبي بمقدار محبتك لأحمد..

يتدلى فكها السُّفلي من فرط دهشتها، تشهق مصعوقة، لم أترك لها الفرصة، انقضُ عليها أنهش لحمها قطعة قطعة، أكمل:

- أحمد الذي يقول في كل مكان أنكِ تُعدِّينَ الولد الثالث بعده وبعد كريم.. الأنوثة روح قبل أن تكون جسدًا يا...

هنا تصدر عنها آهة تحمل من الفزع ما يعبر عن داخل قد اشتعل فجأة، يسقط من يدها منديلها الورقي، تتصاعد الدماء إلى وجهها، لو كنا نعيش في نفس الغابة، التي تمنيتُ فيها تهشيم رأسها، لعوتْ هي مثل أنثى ذئب، ولنفشت شعرها وشقت ثوبها من أعلى صدرها ثم كشرتْ عن أنيابها لتهجم علي وتغرس أسنانها في رقبتي مثل مصاص دماء. أكملتُ لأفرغ حنقي وأهرب من لحظة انهياري:

- أحب خطيبي وسوف نتزوج بعد نهاية الدراسة يا فاتن.. وسوف تصلك دعوة زفافي المكتوبة بماء الذهب.. بينما أنتِ تأكلك نيران الغيرة.

تركتُها في ذهولها، كنتُ أستشعر نيران غضبها تلفح ظهري، زيادة في إذلالها، توجهت ناحية كريم، ناديتُه بصوت مرتفع بعض الشيء، يلتفت ثم يقترب، أدور على عقبى لمواجهة فاتن التي ما زالت تقف مثل مومياء في مخزن مظلم ترشح في أرضه ماء الصرف، مددتُ يدي ناحية كريم لآخذ بيده، من

بين دهشته يمد يده كطفل، أمسكتُ براحته اليمنى، يا لروعة عناق راحتينا! لو كنا في مكان غير المكان لكنتُ حملتُ كفه إلى وجهي ليمسه مسًّا رقيقًا، لكني الآن في معركة مشتعلة، جذبتُه خطوة حتى اقتربنا من فاتن، بصوت مسموع تحدثتُ إليه أمامها:

- أرجوك يا كريم.. ارحم قلب هذه المسكينة.

تجاهلتُ دهشة كريم وفزع فاتن وأكملتُ:

- لك الأجر والثواب إن جعلتَ قلب أحمد يميل نحوها.. لقد اعترفتْ منذ قليل بأنها تذوب فيه عشقًا بينما يتجاهلها هو.

مع أول حروف تظهر منهما ما بين دهشة واستنكار أكملتُ وقد توجهتُ بحديثي إلى فاتن:

- ليتكِ تنجحين في تحقيق رغبتك يا حبيبتي، ويكون حفل زفافك مع حفل زفافي إلى توفيق خطيبي.

ضغطتُ بشدة على اسم توفيق، ثم تركتهم يغرقون أكثر في بحر دهشتهم ورحلتُ عن المكان وأنا أشير إلى "منى" بأن هيا، فتبعتني بهدوء وقد كانت تشاهد ما يحدث في صمت، صافحنا بنات الجنوب على وعد بالمراسلة، ثم خرجنا من الفندق، عند الباب، وفي مرآة جانبية شاهدتُ صورة فاتن حمراء كأنها كتلة نارية مشتعلة تمامًا.

سلكنا شارعًا جانبيًا بعيدًا عن الزحام، تسألني "منى" عن تفاصيل ما حدث، فقد لاحظتْ التوتر علينا، أجبتها بكل التفاصيل، ثم ختمتُ بقولي:

- الآن فقط يا منى أشعر براحة عظيمة.. سقيتُها من نفس الكأس.. لتجرعه بالهناء والشفاء.

لحظات ولم نكن قد ابتعدنا كثيرًا، ألفينا أحمد وكريماً خلفنا، يسأل كريم عن سبب ما حدث، نظرتُ نحوه وقد ذهبت قوتي التي تولدت من شدة كراهيتي لـفاتن، زفرتُ بهدوء كأني أقول لا فائدة من أي كلام.

صديقتي الحبيبة "منى" تقرؤني بشكل غير طبيعي، في اللحظة التالية طلبتْ من أحمد مرافقتها لشراء شيء ما من محل مجاور لتترك لي مساحة حرية مع كريم الذي كانت عيناه تفضحان شوقه الدفين، أجبته بما قالته لي فاتن وأنني تعاملتُ معها بقليل من أسلوبها، ثم أنهيتُ:

- هل ترى.. وحيدة أنا.. أغرق بلا أمل في نجاة .. وأنت.. أنت يا كريم يا مَن تمتلك الطوق الوحيد للنجاة تغض الطرف وكأنك لا تراني.

- أرجوكِ يا هدى.. أنا.. أقصد نحن.. لا نمتلك أي حرية.. ما نمر به ما هو إلا موجة سوف تتكسر وتتلاشى حين اقترابها من الشاطئ.. سحابة سوف تمر.. بركان ثائر سوف يخمد.. علينا فقط الالتزام برابطة الصداقة و..

يقطع كلماته مع وصول أحمد ومنى، أشير إلى منى بالرحيل، نتركهما بهدوء ونرحل، أفكر في كلماته الأخيرة للخلاص " علينا فقط الالتزام برابطة الصداقة ".

أدخل غرفتي و أغلق بابي، أشغل جهاز الكاسيت، تنساب الألحان ثم يأتي صوتها المفعم بالحب والشجن "من أجل عينيك عشقتُ الهوى.. بعد زمان

كنت فيه الخلي.. " ترفرف الكلمات والألحان حولي وكلمات كريم الأخيرة يتردد صداها في رأسي "علينا فقط الالتزام برابطة الصداقة ".. أتساءل: أي صداقة يا كريم؟! إن كانت صداقة.. لماذا يخفق قلبي أمامك أنت بالذات ولا يفعل ذلك أمام الآخرين؟! لماذا أشعر بحرارة أنفاسك؟ لماذا ذاب جسدي عندما تعانقت راحتانا؟ لماذا أنت الوحيد الذي أتمنى أن أنام على صدره؟ لماذا.. لماذا؟

ألقى بأسئلتي تلك بينما عيناي تذرفان الدمع، بينما قلبي يئن، بينما روحي تغادر جسدي لتبحث عن روح أخرى هي مصدر حياتها، بينما أمسك بوسادتي بين ذراعيَّ لأحتضنها ثم أقبلها.

طال صمتي، طال خفق قلبي، طال شجني، زادت آهاتي، يملؤني الحنين إلى لحظة لقاء. تمر الساعات لا أشعر بها، لا أشعر بجوع أو بعطش، لا أشعر حتى بوجودي، هل أستطيع فعلًا أن أبرأ مما أنا فيه كما برأ كريم؟

لا أعتقد أنني أمتلك تلك القدرة، وإن كان قد فعل ذلك فهو حقًّا يمتلك قدرات غير عادية، قدرات لنموذج بشري نادر يمكن أن نطلق عليه اسم كريم. لكن هل أستطيع أن أبتعد بقلبي عن هذا النموذج النادر الذي تجتذبني قدراته؟!

سوف أطلب منه في الغد أن نجلس معًا، وحدنا، هناك.. على أطراف الكون.. بعيدًا عن كل البشر.. ليدلني إلى الطريق.. لن يخذلني، أرى في عينيه كلمات وكلمات.. يود لو يخبرني بها، أشعر بذلك مع كل دفقة هواء تدخل إليه

أو تغادره حاملة صمته الرهيب، آه لو يتحدث.. أو لو يخبرني بحقيقة داخله، لَمَ ترك لخيالي العنان؟ لَمَ جعلني أُحلِّق في فضاء الكون أنهل من آماله وأحلامه؟

في الغد..

لم يأتِ كريم..

كدتُ أقتل أحمد فتحي، أين كريم يا أحمد؟ يخبرني بأنه قرر عدم الحضور إلى التدريب أو إلى الجامعة حتى موعد الامتحانات! مدة شهر تقريبًا، لو كنا نعيش في نفس الغابة لسحبتُ عصا خيزران طويلة ألهبتُ بها ظهر أحمد فتحي حتى يُسرع ليعلو صهوة أول حصان شارد في الغابة، أو يمتطي ثورًا، أو يتعلق في أقدام تنين.. أو حتى يحمله جني على صفحة ريح.. المهم أن يأتيني بكريم. ولأن هذه الغابة لا وجود لها إلا في خيالي، سألتُ أحمد:

- لماذا يتخذ كريم هذا الموقف؟

يحاول أحمد أن يكسو وجهه بجدية، تنافت مع طبيعته الساخرة، ليضفي على كلماته شيئًا من الأهمية، يقول:

أخبرني كريم بأنه بدون قصد منه قد تسبب لكِ يا هدى في مشكلة ما، لذا فضَّل الابتعاد.. كريم قال لي بالحرف الواحد " أريد أن أغلق بابًا فتحته ريح عاتية". ثم تركني وانصرف.

لم أفكر في شيء، تلك الريح العاتية أطلقت لساني في حدة لم أعهدها في نفسي من قبل، نظرت نحو أحمد والشرر يتطاير من عيني، صرختُ فيه رغم محاولتي إمساك لساني:

- كريم لم يتسبب لي في أي مشكلات، يجب أن يفهم أنه بعيد تمامًا عما أمر به، لا يجب أن يتخذ موقفًا يزيدني سوءًا.. عليكم كونكم أصدقائي المقربين أن تتعاونوا معي على تخطي أزمتي، لا يجب أن تتركوني وحدي بين الأمواج..

خرجت كلماتي الأخيرة مع دموع غزيرة، يُحْبس صوتي في صدري، تمنيتُ لو أكملتُ حديثي، لو أخرجتُ كلماتي، لو ذكرتُ للعالم أجمع ما أعانيه. كيف يتخذ كريم قرارًا مثل هذا؟! يتغيب شهرًا كامل، ثم.. ثم تأتي الامتحانات ومن بعدها الإجازة الصيفية! هكذا يدبر أمره وينساني؟!

تأملت أحمد لعلي أجد فيه ملمحًا واحدًا من كريم أو حتى ابتسامته، فالأخلاء يتشابهون، لكني لم أجد غير نظرته المستفهمة الباحثة عن مخرج مما وضعتُه فيه، يود لو يسأل: ماذا أفعل يا هدى؟ أخبرته بصوت مبحوح:

- أريد كريمًا يا أحمد.. أريده كي أشرح له الأمر.. لكن.. لكن لا تخبره أي كلمة مما تفوهتُ بها الآن، أخبره أنني أريده و فقط.

تركتُ أحمد، تركتُ الجامعة، تركتُ العالم، عدتُ إلى غرفتي أبكي.. أتألم.. أبحث في أعماقي فأتعثر باستمرار في طيف كريم، أسأله منفعلة متوترة ولكن بصوت حانٍ: "لماذا تتركني هكذا؟! كيف ستغلق بابًا فتحته ريح عاتية؟! سوف تحطم الريح ذلك الباب يا كريم، ثم تحطمنا نحن، لا يجب أن نتصدى بعناد لما هو أقوى منا، يجب أن نجاريها حتى نجد أرضًا ثابتة وجدارًا قويًا.

وسائل للدفاع.. يا كريم.. وإلا انتهينا.. يا كريم.. أردد اسمه على لساني فأشعر بحلاة أتذوقها بسعادة.

أوااااه.. لماذا لا يريد هذا الليل أن ينجلي؟ لماذا يا شمس الغد تتلكئين عند غيري من البشر؟! ماذا يضر في أن تخلفي موعدك معهم مرة واحدة في العمر، أرجوكِ.. أتوسل إليكِ.. بكري اليوم.

استيقظتُ من نومي كعائدة من غيبوبة، كل خلية في جسدي تؤلمني، جفوني ثقيلة، ألم في مؤخرة رأسي وكأني أنا التي تلقتْ ضربة رهيبة من صخرة كبيرة في الغابة التي خلقتها في خيالي مؤخرًا.

مثل مغيبة، أو فاقدة الذاكرة مارستُ طقوس الصباح، ارتديتُ أي ثوب قابلني، لم أهتم بتناسق ألوان، لم أقف أمام المرآة، خشيتُ أن أشاهد نفسي فتسألني عن حالي، حتى حذائي لم أهتم به فخرجتُ أنتعل "سابوه" أسود.

ذهبتُ إلى الجامعة، إلى أسفل الشجرة، حجر ثقيل على صدري، لا أستطيع التنفس.. الزهور صامتة، العصافير هجرت المكان، حتى الهواء رفض مصافحتي، طلبتُ من صديقتي "منى" أن تأتيني بكوب شاي بسرعة، رفضتُ عرضها بأن تأتي بالعصائر، بشرتي جافة، عيناي حمراوان من أثر السهر، لكني عللتُ لها ذلك بأن هناك بوادر إنفلونزا حادة.

قبل أن تأتي "منى" يظهر أحمد تخترقه عيناي لتشاهدا من خلفه كريم، أووووووه.. أزفر بهدوووء..

نظرتُ إلى كل الكائنات من حولي، أسألها بحروف الصمت: هل شعر أحدكم في لحظة ما بروحه تغادر جسده ثم يشعر بها تعود ثانية؟ لو أن أحدًا مر بذلك من قبل سوف يدرك ما أمر به الآن.. عودة الروح هي عودة للحياة، ملأتُ صدري بالهواء، أشعر به نقيًّا باردًا، أقبلت العصافير تشدو، تهب نسمة خفيفة لتحطم أشعة الشمس المدببة، تهتز زهور الأقحوان راقصة بين أغصان الريحان فتنثر على المكان عبقًا يجعل الخلايا مثل طيور الجنة تحلق في فضاء الكون.. لا عجب في أن يتبدل حالي في لحظة واحدة.. فـ كريم يقترب..

نظراته نحو الأرض كمن يخشى التعثر فيحدد بدقة مكان خطواته، لن يكون ما بداخلي نحوه بهذا القدر إن لم يكن هناك قدر مساوٍ بداخله نحوي، ألم يقل العلماء بأن لكل فعل رد فعل مساويًا له في المقدار ومضادًا له في الاتجاه؟! لكن كريم يُوارى.. يُخفي.. يقتل مشاعره.. لماذا يا كريم؟

لماذا تقتل تلك المشاعر البريئة بداخلك؟! متأكدة أنا من أن إجابته ستكون " من أجلك يا هدى ".. آه.. آآآآه.. من أجلي أنا؟! أتُمسك قلبك بقبضة حديدية كي لا ينبض من أجلي؟! هذا التفاني.. تلك المشاعر النبيلة.. هذا الكيان.. لا يجب أن يُغَادر.. إنما كلها مقومات تجعلني أقترب أكثر وأكثر يا كريم.

دقائق تمر ثقيلة مثل جبل، أحتسى الشاي الذي أتت به "منى"، نتحدث في أمور عامة، ثم أقف وأطلب من كريم أن نتمشى قليلًا فقد شعرت بالخدر

يسري في ساقيَّ، كلماتي تشير بوضوح إلى رغبتي في أن نكون معًا.. وحدنا فقط، وليكن.. وهو كذلك أيها الكون.. أريد أن نكون معًا، ليتنا نرحل على بساط الريح ليلقينا إلى الغابة المفضلة التي أتمنى العيش فيها، هناك لا أحد غيرنا، نلهو بين الأشجار، نتدحرج على رمال بيضاء منفوشة مثل رغوة الحليب، نسبح على صفحة مياه زرقاء لا نهائية، لكن بساط الريح لن يأتي، وغابتي المفضلة لا وجود لها إلا في خيالي.

في مكان قصيٍّ على أطراف الجامعة، نجلس وبين أيدينا عصائر أتى بها كريم ونحن في طريقنا، أتاني بمشروبي المفضل، عصير الجوافة المثلج، ما إن شاهدتُ ثمرة الجوافة على علبة العصير حتى شعرتُ براحة عظيمة تسري في جسدي، كريم يتذكر كل شيء، لم ينس ما أحب، كريم يحمل في داخله شيئًا عظيمًا، ليتني أعلمُ ما بداخلك يا كريم!

تحدثنا في بعض الأمور العامة، ندور بارتباك حول ما يخفيه جسدانا. يجلس قبالتي، يتأملني ما إن خفضتُ عيني، أتأمله ما إن خفضَ عينيه، تنهار حصوننا إذا ما التقت أعيننا، يدور بنظراته على جسدي، يتأملني مليًّا، أشعر بحرج شديد من ثيابي غير المتناسقة حتى إنني سحبتُ قدمَّ للخلف لأخفي "السابوه" الأسود، ظاهري المتضارب أنبأ عن داخلي المشتت. بعد فترة صمت مارسنا فيها التأمل، أحدنا يتأمل الآخر، الصمت بيننا أبلغ من كلمات الكون، كان لا بد من أن أستمع إليه، لماذا يود هجراني؟ لماذا يتخذ القرار بالفرار؟ هناك إجابات لابد من الاستماع إليها.

بعد فترة يزفر بشدة، يفرك يديه في بعضهما، يملأ صدره بالهواء، ثم يستخرج ورقة يعطيها لي بهدوء، أتناولها موارية دهشتي، لا يود أن يتحدث فكتب ما يريد على ورقه! أم أنه كان يستعد بها ليرسلها لي عبر أحمد أو منى؟!

عمومًا سوف أقرأ ما بها وأعلم ما بداخله عبرها، بأطراف ترتجف مثل صريع العطش في صحراء يعثر على حفنة ماء. أقرأ بنظرات شوقي.. إنها قصيدة شعر، من تأليفه، عنوانها "جنة الهجر" أيكون الهجر جنة والاقتراب نار؟! الأبيات يصور فيها مشاعره.. حبه الذي نما مثل طحالب على أطلال، هو لا يريده وسوف يهجر، حينها لن يتعذب كما هو الآن، حينها سيكون قد خرج إلى الجنة الحقيقية، فقرة تالية يطالب فيها محبوبته أن تحذو حذوه وتهجر، وإن لم تفعل محبوبته ذلك فسوف يستمر في الهجران حتى يقضي على ذلك النبت بداخله، نبتُ أتى على غير رغبة منه.

طويت الورقة، بحثتُ عن منديلي، جففتُ دموعي، ابتلعتُ آهاتي، ملأتني فرحتي، كل هذا الحب بداخلك يا كريم ولم تُصرح بكلمة واحدة منه؟! إن كانت أشعاره تقول إنه سوف يهجر، فهي تؤكد مقدار حبه، شوقه، أنينيه، أشعر بكلماته مكتوبة بدموع العشق.

تألمتُ بقدر ما يكون الألم، فرحتُ بقدر ما تكون الفرحة، تركني مدة حتى تستقر مشاعري المتضاربة، التي تظهر بوضوح على وجهي، بخجل رفعتُ عينيَّ لأشاهده، عيناه مغرورقتان بدمع كالمطر يأبى الهطول، هو قوي مثل بطل أسطوري، رقيق مثل فراشة ترفرف بين زهر الحديقة. يبتسم قائلًا:

- والآن قد أخرجنا ما بداخلنا يا هدى، الاعتراف يُريح القلوب القلقة، علينا أن نهدأ ونفكر بعقولنا لا بقلوبنا، نسلك الطريق المفروض وليس المحسوس.

- المفروض على هو توفيق يا كريم.

- اختيارك الأول يا هدى.. علينا احترام قرارك.

- لكنني لا أشعر بوجود توفيق في حياتي، تمر الأيام والشهور لا أتذكره خلالها، هو مجرد شخص تربطني به قرابة عائلية.. ما أخشاه يا كريم هو توفيق نفسه، إني أشفق عليه من قلب لا يحمل له أية مشاعر، الأفضل له أن..

يقاطعني كريم بإشارة من يده:

- الأفضل أن تغيري نظرتك نحو توفيق يا هدى، أن تشاهدي الجوانب الإيجابية التي كانت بادية في أول الارتباط.

- تلك أمور تولد في القلوب يا كريم، لا يتم استدعاؤها!

- أتعلمين ما هي أزمة توفيق معكِ؟

بإيماءة من رأسي طلبتُ منه أن يكمل حديثه، لم أكن أريد أن أتحدث بكلمات في هذه الطريق التي يجرني إليها كريم، هو يود أن يقلل الفجوة بيني وبين توفيق في الوقت الذي تتسع فيه المسافة بيني وينه، لم أفصح عن رفضي، يُكمل:

- الأزمة أن توفيق قد أتى وفقًا للمواصفات.. ثم خُلقت بداخله محبتك.. ولما لم تبادليه نفس المشاعر، يقدم كل فروض الطاعة وقرابين الحب لعلكِ تفتحين له قلبكِ، مما زاده ولهًا و زادكِ نفورًا، الأفضل لكليكما يا هدى أن تبحثي عن إيجابياته، وأن يكون هو أهل لقلبك الكبير فيقدم لكِ ما تستحقينه، وبمجرد أن يتم الزواج وتتلاقى وجهات النظر تتحد القلوب.

لم أسمع كلمة واحدة مما تحدث به كريم، كنتُ أتأمله يتحدث كأني أنصتُ، لكني كنتُ أتأمل شفتيه، حركة لسانه مع نطق الحروف، أعد أنفاسه، أتخيلني مثل عقلة الأصبع أتخلل جسده وأسبح مع شلالات دمائه لأستقر بين حنايا قلبه لأحصي دقاته.

يسألني عن سبب شرودي، لا أسمعه، يمس يدي براحته اليمنى، ينتفض جسدي مثل مسوس بشحنة كهرباء، تصدر عني أَنَّةٌ مع شهقة شبه فَزِعَة، يعيد كلماته الأخيرة، أبتلع بعض عذاباتي مع دفقة من عصير الجوافة، أقول:

- توفيق يتعامل مع علاقتي به، أو حبي له كما يعتقد، على أنه هبة إلهية مقدسة لا تحتمل أي خطأ. صدقني يا كريم.. لقد بحثتُ بداخلي عما ينصف علاقتي به لم أجد.

يستمر بنا هذا اللقاء حول البحث عن جزئيات ألتقي فيها مع توفيق لتستمر علاقتنا، كريم يبحث معي بصدق، عيناه مهمومتان لأجلي، يفند الأمور، يبحث عن مزايا توفيق لعله يستطيع أن يقربني منه.

ينتهي اللقاء، قراره الأخير ما أقرته أشعاره، لقد بحث عن الهجر حتى وصل أرضه فألفاها جنة، وعلي - إن أردتُ مثل جنته - أن أسلك نفس دربه.

بداخلي جزء لا يصدقه، ليس للهجر جنة يا كريم، للحب فقط جنان، نقيض جنان الحب نيران لا نهاية لها.



كلمات حالمة من قلب عاشق .. تبث الروح في جسد
أوشك على مفارقة الحياة..

(١١)

القرار

في نهاية هذا اليوم، وبداخلي جرعة كافية من اللقاء الأخير مع كريم، قررتُ أن أسلك دربه، نحن صديقان وسنظل صديقين. رغم إحساسي بأن كريماً يعاني مثلي فإنه استطاع أن يتخذ موقفًا صارمًا حيال ما نتعرض له، ويجب عليّ ألا أعرض نفسي كسلعة رخيصة بهذا الشكل، أعلم أنه لا يراني مثل سلعة رخيصة لكنني يجب ألا أدع مثل هذا الخاطر يتسرب إلى عقله ولو لحظة واحدة في يوم من الأيام.

في هذا الليل بحثتُ عن أغنية عبد الوهاب "يا فكّر في اللي ناسيني وبانسى اللي فاكرني.. وبَهرَب م اللي شاريني وبَدوَّر ع اللي بايعني" استمعتُ إليها وقد احتوتني الدهشة من طبيعة البشر! هل هي بالفعل حالة رغبة فيما هو ممنوع وزهد فيما هو متاح؟! أم أن هناك قوة خفية تسيطر على أرواحنا فتوجهها كيفما تشاء؟! أعتقد أن الرأي الثاني هو الأصوب.

الشوق.. الحنين.. الحب.. الهُيام.. العشق.. الغرام.. كلها مسميات لحالة واحدة تهبط في لحظة ما.. نحو شخص ما، فتتآلف القلوب كي تمتزج، تذوب، تتلاشى من الوجود لتحلق بين ثنايا السحاب، ترقد على وسائد الورود المخملية، ترقص على لحن أنغام عِذاب، تفعل كل ما يُطلب منها صاغرة سعيدة.

لكن هناك عقبات، منها أنني فتاة مخطوبة، لي أسرة وخطيب، جميعنا على عهد واحد، الزواج بعد نهاية الدراسة، هناك أيضًا كريم الرافض لتلك العلاقة، لنترك داخله جانبًا، نحن الآن بصدد أفعال يتحدد المستقبل وفقًا لها.

الخلاصة كريم يرفض علاقتنا، كل الأصدقاء والزملاء يرفضون أيضًا، توفيق وأسرتانا لا شك لديهم في إتمام الزواج في موعده. يبقى رأي واحد فقط.. أنا.. يجب أن أتخذ قراري النهائي.

أسوأ ما فعلته هو أنني اتخذت قراري وبداخلي جرعة كبيرة من الهدوء والراحة بعد يومي مع كريم، طاقة لا مثيل لها، حالة من التشبع جعلتني أقرر أن تستمر علاقتي مع كريم كزميل دراسة وصديق.

إلى هذا انتهيت، وهكذا داخلتني تفاصيل الراحة، تعاملتُ مع والديَّ بروح جديدة غير تلك الشاردة التي ظهرت على السطح في الأيام الماضية، تجاهلتُ دهشتهما، سألتهما عن آخر أخبار توفيق، تعجبتْ أمي بشكل جعلني أتساءل عن سبب دهشتها، قالت إن آخر مكالمة هاتفية من توفيق

سألتُه أنا عن أخباره. أنا هاتفتُ توفيقًا مؤخرًا؟! تحدثتُ إليه وسألته عن أخباره وأجابني.

صُعقت.. كيف ذلك؟! كيف يحدث ذلك وأنساه تمامًا كأنه لم يحدث على الإطلاق؟! الحقيقة.. شَعرتُ لحظة واحدة بأن أمي تحاول خداعي، تظهر على ملامحي تفاصيل شكي، تؤكد أمي صدق حديثها بسؤال والدي، الذي يتحدث بهدوء بأن ذلك حدث مستشهدًا بأن توفيق قد أخبرني في تلك المهاتفة بأنه قد اشترى لي سلسلة ذهبية بدلًا من سلسلتي التي فقدتُها في الجامعة. تركتهما بدعوى المذاكرة، هربتُ إلى غرفتي لئلا تتزايد الأمور تعقيدًا فقد يتذكر أحدهما أمورًا أخرى نسيتها.

بحثتُ كثيرًا عن السبب، لم أجد تفسيرًا منطقيًا غير أنني كنتُ موجودة معهما بجسدي، أما روحي فقد كانت هناك، مع روح كريم في دنيا الأحلام. حالتي تسوء، يجب أن أعود إلى طبيعتي الأولى، الهدوء سمتي، التركيز صفتي، العقل زينتي.. كريم مجرد صديق.

في الأيام التالية كنت أبحث عنه في كل مكان، فقط لأقول له صباح الخير يا صديقي العزيز، ثم نبتسم ونمارس تفاصيل يومنا، يبدو أنه شعر براحة النجاة، تعامل معي طوال الوقت بمنطق الصديق، نظراته كانت محايدة جدًّا، يبتعد عن أي موقف يثير الشكوك، يوزع أحاديثه بين الزملاء بنفس المقدار وبنفس الحميمية، كنتُ أتعجب لقدراته الخارقة في القضاء على نيران هواه، كيف يستطيع تحقيق ذلك، راودني شك في أنه لم يصل إلى درجة قوية

في الحب مثلما وصلتُ أنا، لكني لفظتُ هذا الشك سريعًا، شوق كريم.. عاطفته الفياضة.. شاهدتُها من قبل في دموعه المتحجرة في مآقيها.

أما أنا فكانت سعادتي لقربي منه، وجودي معه يمد روحي بإكسير الحياة، أستقي جرعاتي منه الآن لتجعلني أواصل حتى الغد، يتزايد شوقي إلى الانفراد وحديث عشق لكني لا أستطيع أن أصرح بذلك حتى لنفسي، رضيتُ بقليل متاح، أفضل من كثير ممنوع، ظهرتُ أمام الجميع بأنني أعيش حياتي بشكل طبيعي، حتى أتى هذا اليوم. لكن قبل أن أخوض في تفاصيله يجب أن أذكر فاتن خلال هذه الأيام، كانت تبتعد عن أي مكان أكون فيه بعدما وجدت بداخلي غريمًا شرسًا، ويبدو أنها أخيرًا أدركتْ أن أحمد لا يكنُّ لها أي مشاعر فتركت مجموعتنا بشكل أشعرني بالانتصار.

في هذا اليوم، تقابلنا أنا وكريم كعادتنا، اختلستُ لحظة غفل عني فيها الجميع وطلبتُ منه أن نلتقي بعيدًا، بهمس قال إنني لو لم أطلب ذلك لطلب هو. شعرتُ بأنفاسه حارة.. كلماته الهامسة تحمل ألف معنى، يضطرب داخلي من فرط انفعالي، الحقيقة من فرط سعادتي بالاقتراب وخوفي منه.

بعد أن ينفرط عقد المجموعة نتقابل في مكاننا الجديد، مهما أستعِن بمفردات اللغة كي أصف كمَّ الهدوء والراحة والسعادة التي سرت في جسدي متخللة قطرات دمي، ما استطعت، فقررتُ الصمت مع ابتسامة خفيفة، كنتُ أطيل النظر إليه ثم أغمض عيني على صورته، أتذوقها.. أتنفسها، أطبعها على خلاياي.. يتأملني في حنان.. عيناه حالمتان.. شفتاه

باسمتان في ألم.. أنفاسه حارة.. قلبه ينتفض.. بعد دقائق سألته لأخرجه من صمته:

- لماذا كنت تريد لقائي يا كريم؟

يمد يده بكتاب صغير، رواية لكاتب روسي.. ثم يقول:

- لأعطيك هذه الرواية يا هدى.. لديَّ منها نسختان.. فضلتُ أن أهديكِ واحدة.. وأنتِ؟

تسألني عن مطلبي يا كريم.. ألا تشعر به؟! أم تعلم وتتعمد تجاهلي؟ أعلم أنك تقتل وليدك وتتجاهل رؤية وليد قلبي من أجلي أنا.. لكن وليد قلبي هو ابن شرعي للحب وإن كنتَ ترفض الاعتراف به.. إنني أعرف كل ما يدور في قلبك يا كريم.. لأني أشعر بقلبك يسكن حنايا قلبي.. كنتَ تستطيع أن تعطيني الرواية أمام الأصدقاء! لكنك جعلتها سببًا كي تجالسني.. سوف أُقنع نفسي بأنه سبب وجيه، إعطاء رواية لي أمر يستحق مقابلتي على انفراد، أترى.. إنني أتقبل أمورك ولا أقف أمامها.. فأنا أعلم ما بداخلك..

كنتُ أقلب صفحات الرواية بين يدي وفي داخلي أقلب صفحات ذاتي، أبحث عن نقطة بداية، عن انطلاقة.. بعد فترة صمت بدت طويلة وبحروف مبعثرة وبكلمات مبحوحة أخبرته بأنني أحتاج إليه كي أصل إلى شاطئ مثلما فعل، داخلي بركان ثائر لا أستطيع إخماده. كنتُ أمسك بلساني حتى لا يتفوَّه بكلمات تزيد الموقف اشتعالاً.

بعد تفكير يقرر كريم بأنه ثابت على رأيه الأول، لا يمتلك حلًّا لي غير نصيحته بأن أبحث في توفيق عن ميزات تقربني منه، ثم بعد لحظات أضاف:

- وفي المقابل تبحثين عن عيوب تبعدكِ عني.

تأملته مليًّا، ضحكت في داخلي سخرية! عن أي عيوب تتحدث يا كريم؟! عيون المحب لا ترى أي عيوب يا كريم، لم أنطق بتلك الكلمات، نقشتها برموشي على صفحة عينيَّ وأنا أمسك دموعي. يسود الصمت بيننا، لا نود الحديث فنغرق من جديد ولا نرغب في الانصراف فتشقى قلوبنا، حتى أوشك النهار على الانتهاء، فخرجنا نسير على مهل، نتبادل أحاديثًا بلا كلمات حتى نفترق.

نكرر اللقاءات خلال الأيام التالية في نفس المكان القصي، نتحدث في كل الأمور إلا في أمر واحد، خبايا القلوب، لنا في اللقاء ألفة، صفاء، سكينة. نهدأ ونصفو فلا نشعر بجسدينا كأننا مَلَكَان. يتحول اللقاء اليومي إلى موعد مقدس، حتى في الأيام التي تخلو من المحاضرات، كنا نختلق الأعذار كي نذهب إلى الجامعة لنتقابل حتى اقتربت الامتحانات وتغيب الزملاء، وكان علينا أن نفترق.

في هذا اليوم، مثل الأيام السابقة، التقينا وتحدثنا في أمور شتى، ينتهي اللقاء ونحن على العهد، ما زلنا صديقين. أعود إلى بيتي، أدخل غرفتي، أطفئ نورها إلا من بصيص يأتي من أباجورة شحيحة الإضاءة. أستمع إلى

صوتها يشدو بها يدور بداخلي، شجنها كان أروع ما يكون في تلك الأغنية: "أقبل الليل يا حبيبي.. أقبل الليل وناداني حنيني يا حبيبي ".

حقًّا.. يزداد حنيني كل ليل يا حبيبي، أهات الحب تنضج ليلًا، تتغلغل بين ثنايا الروح، تصهر جسدي، أذوب مع الكلمات والألحان وطيف حبيبي لا يفارقني، يحتويني بابتسامته، يمتلكني بصده، يذهلني بتفانيه من أجلي، كيف يتحمل كل ويلات الفراق من أجلي؟!

يستمر الشدو يترقرق كماء عذب في يوم ربيعي "أنا قلب خفاق في دنيا الأشواق.. أنا روح هيمان في وادي الأشجان.. تاه فكري بين أوهامي وأطياف المنى.. لست أدري يا حبيبي.. يا حبيبي مَن أنا.. أين أنا؟".

مَن أنا؟ أين أنا؟ سالتُ نفسي فلم أجد جوابًا، تعجبتُ.. كيف افترقنا اليوم ونحن على نفس العهد؟! كيف ستمر الأيام المقبلة حتى الامتحانات بدون أن نلتقي.. بدون أن نتبادل النظرات.. بدون أن تتبادل روحانا رسائل تأبى الكلمات أن تصوغها؟!

لا.. هذا ضرب خيال.. أمر مستحيل أن يحدث، أريد أن أراه الآن.. كيف سأنتظر؟! أريد أن أغوص في عينيه دقائق.. ساعات.. دهر، آه لو يمس راحتي. آه لو يروي ظمئي بكلمة واحدة ترويني عشقًا سنوات وسنوات، آه لو أسمع صوته حتى لو يتحدث في أي شأن.. أريد أن يكون معي.. أن.. أن..

أن أعترف له بحبي..

نعم.. سوف أعترف له بحبي.. بعشقي.. أريد أن أقول له دعنا نعيش أيام الحب وليكن ما يكون في المستقبل. آه.. يا قلبي.. أيها الطفل البريء المسكين.. كيف لك أن تعيش بدونه؟! لا تتحمل فراقه أيامًا قليلة حتى موعد الامتحانات فكيف لك أن تتحمل فراقه العمر كله؟!

الآن فقط اعترفت أمام نفسي بأنني أحبه.. اعترفت أمام نفسي فقط لأني لو اعترفتُ أمام العالم.. فلن ينظروا نحوي كوني عاشقةً.. بل سينظرون نحو مذنبة.. نعم سوف يصفونني بالمذنبة.. مذنبة جريمتها الحب.

تحاملتُ وتحملتُ.. يوم.. يومان.. كنتُ مثل دجاجة صغيرة تبحث عن مأوى، فإذا ما ظنت أنها وجدته، اكتشفت عدم صلاحيته، بل اكتشفت زيفه، ترحل لتبحث عن آخر، كنتُ مثل عصفور بلا عشٍّ تائه بين أغصان متشابكة لا نهاية لها..

لقد لجأتُ إلى والديَّ، أُبعد ولهي وعشقي بتقربي منهما، فبدوتُ مثل دُمية مبتسمة، كنتُ معهما جسدًا بلا روح، روحي هناك تسكن صدر كريم. لاحظتُ نظرات مُتبادلة بين أبي وأمي، نظرات متسائلة عن حالي، لكنهما لم ينطقاها بكلمات، خشيتُ اكتشاف أمري، تركتُ والديَّ باحثة عن مأوى آخر.. صديقاتي من الجيران.. اتفقتُ معهنَّ على الخروج ليلًا للتنزه، خرجنا.. شاهدتُ روحي تهيم حول عشاق الليل، أيدٍ تتعانق، همسات عشق تُسكب في الأذن لتبث الحياة في الأجساد، دموع بلون الزهور تروي وجنات آلمها الوجد، حتى شجيرات على ضفاف النهر أرسلت أهدابها لتمس صفحة الماء في مداعبة عشق لا تنتهي.

الكون من حولي يعزف مقطوعة موسيقية واحدة.. إنها مقطوعة الحب، الكون من حولي خُلق من أجل الحب، فلماذا أخرج من نوتة العزف مثل نغمة شاذة؟! يجب أن أعيش بين النغمات لتكتمل معزوفة العشق الكونية، يجب أن.... آه.. جسدي ينتفض.. يئن.. ينتشي..

يجب أن نلتقي..

سوف نلتقي.

اتصلتُ بكريم تلفونيًّا من كابينة تليفون في الشارع تعمل بالكارت، يأتيني صوته مشروخًا كأنه يبكي منذ أن افترقنا، كلماته كانت تعلو وتهمس كأن قلبه ينتفض في صدره، لكن ما جعلني أنتشي عشقًا ذلك الشجن الذي تحمله نبرات صوته، صوت مثل آلة موسيقية يتوغل لحنها حتى شغاف القلوب، إنه شجن حزين.. كأنه طائر روان يحلق في أعماق الليل والسماء شاديًا بآهات لا يستشعرها غير الساهرين المتألمين على جمر الحب.

لحظة أن أتاني صوته كأن دفقات الحياة قد عادت تُسكب إلى روحي شلالات تهبط من السماء، كأنني زهرة عانت الظمأ فأتاها الفيض ومن دهشتها تصمت لحظة ثم تعتدل غير مصدقة، ثم تصدق.. فترقص.

يغلفني صمتي كما يغلفه صمته، شعوري بأنه معي وإن كانت بيننا مسافات يعيد إلى قلبي الحياة، الصمت بيننا الآن يكفي لأن نعيش الدهر.

بعد طول حديث بقلوب تئن بآهات الحب سألته:

- نلتقي يا كريم؟

فأجاب قبل أن انتهى:

- نعم نلتقي يا هدى.

والتقينا..

صباح مشرق تلمع أشعة شمسه على قطرات ندى ما تزال معلقة على أطراف وريقات الشجر، تتردد صدى أنغام طيوره بين قلوب العاشقين، تمس نسماته وجنات المحبين لِتُغلف خجلًا عذريًّا فتزيدها توردًا، صباح يشهد نزول كل آلهة الحب عن عروشها لرؤيتنا نلتقي.

التقينا..

وكل أرواح عشاق الكون قد أتت لتشهد عناق روحينا، التقينا وكل طيور المحبة تشدو.. التقينا بنظرات تتسع لآهات العالم.. بشوق يتحمل ظلم الكون الذي يرفض عشقنا..

التقينا..

وتصافحنا بأيدٍ مثل الجمرات، تُلهب بلا ألم، أيدٍ تنتفض باحثة عن مأوى، تصافحنا لنرسل ونتلقى عبارات لم ولن تفلح معها لغات العالم.

التقينا..

وجلسنا فوق مقاعد ترسل إلى جسدينا سعادتها بأنها الوحيدة من بين مقاعد الكون سوف تشهد الاعتراف الأول بيننا، مقعدان كأنهما صُنعا من أجل هذا اليوم، يبدو أن من صنعهما كان عاشقًا وقرأ عليهما تعويذة عشقه متمنيًا أن يستقبل صُنع يديه عاشقين مثلنا.

وكأن عامل الكافتيريا كان يشعر بنبض قلبينا فأتى بهذين المقعدين إلى هذا المكان القصي بين شجرتين متجاورتين تتعانق أغصانهما لتهمس بأناشيد العشق.

التقينا..

تأتينا نغمات ملائكية عبر همسات صاحبة الصوت الشجي تشدو "و التقينا".. وكأني في حلم أستدعي ما أرغب فيأتي في لمح البصر، أمتلك سر الكون فيستجيب لي صاغرًا، تُسكب الألحان والكلمات إلى روحينا، ننتشى شوقًا وألمًا، ننهل من شهد الكون أنهارًا من عشق مصفًّى.

التقينا..

ولم أتكلم.. وكيف أتكلم.. ولماذا أتكلم بعدما امتلكتُ الكون؟! الصمت أبلغ من لغات العالم.. تعود روحي هادئة، يستقر قلبي مستشعرًا راحة بعد عذاب، ترتخي أعصابي في خدرٍ لذيذ، أملأ صدري بهواءٍ مشبع بعبق المستقر أمامي يتأملني.

هناك.. هناك على أطراف لهيب عشق اللقاء استيقظنا فوجدنا أنفسنا على الأرض بين البشر، صحونا على عامل الكافتيريا يأتينا بما طلبناه منه، فيما يبدو، منذ لحظات.

يستشعر كريم أنيني.. حنيني.. ضعفي.. عصفور يحط بالقرب منا يتأملنا مُصْدِرًا صوتًا مثل لحن جميل، يتأملني كريم.. يهمس قائلًا:

- لقد صرحتِ بمشاعركِ من قبل يا هدى.. وقررنا وأدها في مهدها.. الآن أقرُّ أمامك.. أنني لم أستطع فعل ذلك.. بل.. زاد شوقي وألمي.. زاد

أنيني كل يوم عن سابقة حتى تبدلت حياتي.. لم أعد أشعر بطعم الأشياء ما دمتُ بعيدًا عنكِ يا هدى.. تخيلتُ ألف مرة أنني قادر على النجاة.. لكن.. لا مفر.. الآن.. أقول لكِ يا هدى.. أحبكِ.. أحبكِ.

قال "أحبكِ"..

عذرًا يا لغات العالم.. عذرًا يا كل المحبين والعشاق.. عذرًا يا كل أصحاب الخيال اللانهائي.. لن يدرك أحدكم تلك الحالة التي أعيشها الآن.. تدركها الطيور المحلقة حولي في ذلك الفضاء اللانهائي، تدركها السماء الصافية التي تحتويني.. تدرك حالتي آلهة الحب التي تحلق بين السماء والأرض تنثر الحب.. تنثر العشق..

قال "أحبكِ"..

يا كل آلهة العشق.. يا إيزيس.. يا حتحور الفرعونية.. عشتاروت الكنعانية.. أفروديت اليونانية.. فينوس الرومانية.. يا كل آلهة الحب لتنحني جميعًا تبجيلًا لهذه اللحظة التاريخية..

يا كل عُشاق الكون.. يا عبل.. يا عامرية.. يا جوليت.. يا أصحاب القلوب النابضة.. يا ضحايا العشق.. يا زهور الأرض.. يا طيور السماء.. يا نسمات الغرام .. يا قطرات المطر.. يا حبات الرمال.. يا فراشات العالم.. هلموا إلي.. هلموا حاملين الدفوف، ونايات الغرام، وقيثارات الهوى لتزفوا قلبي إلى قلب كريم.

قال "أحبكِ"..

أيتها الصحراوات المجدبة إن أخرجتِ زهورك لتشعري بحبي.. أيها الناقمون لو أفقتم ونقيتم قلوبكم لشعرتم بحالي.. أيها الأثرياء أفيضوا على الفقراء تشعرون بروعاتي..

قال "أحبكِ"..

للكلمة لحن جديد.. مذاق فريد يستشعره قلبي.. "أحبكِ" كلمة سمعتها من قبل ولم تتخطَّ أذني، لم أكن أعلم أن لها مثل هذا الأثر إن خرجت من قلب عاشق إلى قلب وَلِه به مثل قلبي..

قال "أحبكِ"..

هي كلمة هبطت مباشرة من الجنة، تحمل ريحها، تنقل روعتها، تنثر نشوتها، تفيض بذهولها. يا لجمال الكون عندما يسكُب في القلوبِ أسراره! كلمة واحدة بين عاشقين مثلنا تحمل من الشوق بحارًا، من العشق أنهارًا، من الغرام فضاءً لا يرى العشاق نهايته.

قال "أحبكِ"..

تعود روحي مغردة.. يرقص قلبي طربًا.. تذوب خلاياي.. أتلاشى.. أشعر بجسدي مثل ريشة.. آه.. تتخللني النسمات.. تخترقني أشعة الشمس.. لقد شعرتُ بالامتلاء.. بالحيوية.. ماذا أنتظر بعد أن قال لي: "أحبكِ"؟ هل هناك في الكون ما هو أكثر من ذلك؟! لا أعتقد.. لو أن هناك أكثر من ذلك لفاضت روحي من فرط سعادتي.

تأملتُ الوجود من حولي في صمت، أود لو ألملم ابتسامات الزهر الذي يتمايل طربًا، سعادة الطيرِ يشدو.. لم أتخيل يومًا أنني سوف أشعر بها أشعر به الأن، لم يصل خيالي المُحلّق إلى ذلك.

هل كنتَ تعلم يا كريم أن كلمات حبك سوف تعيد لي روحي.. حياتي.. بهذا الشكل.. وكنتَ تبخل بها؟! هل كنتَ تعلم أنك تمتلك مفتاح قلبي وتخفيه عني؟! أكنتَ تعلم أنك تحفظ حروف شيفرتي يا كريم؟!

يطول زمن عودة روحي.. زمن استقرار قلبي.. زمن بحثي عن هواء يملأ صدري.. يطول تأملي.. صمتي..

هناك.. هناك على أطراف سعادتي ألحظ نظرات كريم.. يبدو أنه يسألني عن شيء ما وينتظر إجابتي.. "هه" خرجت من بين شفتي مع اهتزازة بطيئة من وجهي تعني: "نعم؟ " بهدوء الخارج من قلب صراع داخلي محبب يقول:

- هذا قلبي بكل ما يملك من مشاعر بين يديكِ يا هدى.. وأنتِ؟

بهدوء مضطرب وعينين خَجِلتين وأصابع تعبث في حرف المنضدة أمامي أجبته:

- لقد أنهيتَ بكلماتك ما أتيتُ من أجله يا كريم.

- وما الذي أتيتِ من أجله يا هدى؟

- لا داعي لسؤالك يا كريم.. أنت تعلم مقصدي.

لا أعلم لماذا صعدت الدماء إلى وجه كريم دفعة واحدة وهو يتساءل مندهشًا:

- ماذا يا هدى؟! ألا تريدين الإفصاح يا صاحبة القلب الكبير.. هل حققتِ ما ترغبين.. لا تتحدث يا كريم.. ابتعد عن طريقي يا كريم.. تعالَ يا كريم.. اعترف بمشاعرك يا كريم! هل هذه صورتي لديكِ.. مجرد دمية تحركينها وقتما تشائين؟!

تكاثرت الدماء إلى رأسه حتى احمرت أذناه، رعشة غريبة ظهرت على أطراف أصابعه، يزفر بشدة.. يسحب الهواء إلى صدره بصعوبة.. لا أعلم أي حال تلك التي أصابت كريم في تلك اللحظة، الخلاصة هي حال غريبة، تنم عن مدى انفعال داخلي رهيب. لم أعتقد لحظة واحدة أن كلماته وليدة صراع، لقد نسيتُ تمامًا ما ينتظر هذا الحب، عشتُ اللحظة بكل تفاصيلها، لكنه فيما يبدو شاهدها من زاوية أخرى؛ لذا نضجت كلماته على نيران آهاته، أما أنا فقد تقبَّلتُها سببًا لحياتي، فاستدعيتُ كل جماليات الحب لأعيش بها. يخرجني كريم من صمتي بكلمات حنون:

- أليس من حقي يا هدى أن أستمع إلى تلك الكلمة منكِ؟!

حبستُ دهشتي بداخلي، تساءلتُ:

- هل تود سماعها يا كريم.. ألم يتشربها قلبك؟!

- يبدو أني تسرعتُ عندما حدثتُكِ بها في قلبي.. أو.. أخطأتُ.

ثم تنفس بصعوبة أكثر، تتزايد رعشة أطراف أصابعه، يُصعِدني بنظراته صامتًا.. تأملتُه وهو يُبعد عينيه عن مواجهتي، يحتوي وجهه بين راحتيه، يعلو صوت تنفسه، تتملكني الدهشة من هروب كلماتي وصمتي، استجمعتُ روحي، قلتُ:

- ماذا حدث؟ أرجوك يا كريم.. أجبني.. أرجوك انظر نحوى.. في عيني.. كريم.. لا تحملني فوق طاقتي.

من بين أصابع يديه أتاني صوته المبحوح:

- لقد أخطأتُ عندما حدثتُك بما قلبي.. كان يجب ألَّا أبوح يا هدى.

بسرعة أجبته:

- لا يا كريم.. لم تُخطئ.. لم تتسرع.. أنت اختصرتَ كل مسافات الشوق والأنين عندما أخبرتني بحبك، وما اتصلتُ بك وطلبتُ لقاءك إلا لنفس الأمر.. لأقول لك يا كريم: أحبك.. أحبك وكأن الحب ما خُلق إلا لي.. أحبك يا كريم ولو كان ذلك نهاية حياتي.

أوه.. ما هذا؟! ماذا يحدث؟!

لقد اكتشفتُ لذة جديدة انتشرت بداخلي مع كلمات حبي، ارتجافة رائعة تصاحب نطقي لكلمة "أحبك"، أكررها بداخلي: أحبك.. أحبك.. أحبك"، أهمس بها بين حنايا قلبي "أحبك.. أحبك.. أحبك"، أغرد بها بين تفاصيل روحي" أحبك.. أحبك.. أحبك".. هل تسمع نبض روحي يا كريم؟

- كريم.. أرجوك.. ارفع يديك عن وجهك.. انظر نحوي.. أشتاق إلى عينيك.. لقد اعترفتُ لك بحبي.

بهدوء يسحب يديه عن وجهه، وكأنه مصهور على جمرات عشقه، تخرج حروف كلماته تائهة:

- كيف لاعتراف أتى بعد طلب أن يهز بداخلي وتر؟

وكأن جبلًا عظيمًا هوى على رأسي، تفجرتْ الدماء من كل مكان لتحتل وجهي، لا أعلم ماذا حدث ولا ماذا أفعل، خرجت كلماتي وكأنها تخرج من جسد آخر:

- إن كان الأمر كذلك.. فلا فائدة من وجودي.

ثم انتصبتُ قائمة، حملتُ حقيبة يدي، وقبل أن أُلقي جملتي الأخيرة، تمنيتُ أن يُمسك بيدي، يمسك بي، يحملني بين راحتيه، يضمني إلى صدره، يحتويني في قلبه، لكن صمته قتل أمنياتي، أقول منسحبة:

- بعد إذنك.

يا لمصيبتي! لقد قال:

- مع السلامة يا هدى.

بقدمين أنتزعهما من الأرض كأن لهما جذورًا ضاربة عبر الزمن، أرحل عن المكان، أرنو نحوه بنظرة أخيرة، أجده قد أعاد وجهه إلى قلب راحتيه، يختفي عن الوجود، لا يود رؤيتي. أسير بهدوء حتى أدع له فرصة اللحاق بي، أبتعد ولا يلحق بي.

***

وكما نحيا في لحظات الحب.. نموت لحظات الفراق.

(١٢)

أسيرة العشق

انطلقت بين الزهور أجرُّ قدميَّ، تتلاشى الظلال، تهجر العصافير أوكارها، تتوارى الورود بين وريقات الشجر مثل أطفال يختبئون فزعًا، تنهمر دموعي أنهارًا. ماذا حدث؟ لِمَ تحولت دفة الأمور هكذا؟! ماذا فعلنا بأنفسنا؟! أي عشق جمعنا وأي جنونَ فرَّقنا؟!

كنتُ أشعرُ بجوقة مؤلفة من عشرات الذكور والإناث، يرتدون أثمالًا بالية، يقفون على حافة المشهد وقد تسابقت دموعهم وهم يتابعون فراقنا، لا ينطقون بكلمات غير آهات حزن يعزفونها لحن يغلف المشهد، يتحركون بلا أقدام خلف تحركي، لو كان لهم في الأمر شيء لطلبتُ منهم أن يعودوا بالزمن إلى ما قبل لحظة الجنون هذه.

وكأن أثقالًا مثل جبال معلقة بقدميَّ لا تتركني أمشي، وكأن قوة مغناطيسية جبارة تجذبني إلى الخلف، وكأن الكون من أمامي يلفظني، يأمرني بالعودة.

بحثتُ عن الهواء لأتنفس.. لأعيش.. لم أجده.. بحثتُ عن أي مكان يتلقاني قبل السقوط.. لم أجد.

يا كل جرحى قلوب أدماها العشق.. أغيثوني.

آهة.. آهات.. أنين.. أشعر بخواء رهيب.. مَن أنا.. وأين أنا؟! تذكرتُ صوتها الملائكي يشدو بتلك الكلمات من رائعتها أقبل الليل، تخيلتُها ترفرف بجناحي عشق بالقرب، نعم.. أشاهدها مثل حمامة بيضاء تملأ الكون.. تبتسم لي ثم تشير برأسها إلى نقطة بعيدة في الخلف.. أتأملُها مرة أخرى.. أدور على عقبي لأشاهد إلى ماذا تشير.. أوه.. إلى موضع كريم المتواري بين الأشجار. تطلب مني العودة! كيف أعود وقد أخبرني أن كلماتي لم تهز بداخله وتر؟! كيف أعود إليه بعد أن أخفى عني وجهه.. عينيه.. براحتيه؟! كيف أعود له وقد اتخذتُ قراري بالرحيل؟!

مرة ثانية تسكب في أذني شدوها "ناداني حنيني يا حبيبي".. الحنين.. بداخلي يئن.. يهتز.. يتمرد.. يرفض التحرك خطوة واحدة للأمام، يأمرني بالعودة.

لا.. لن أعود إليه.. لقد رد سلامي ولم يطلب بقائي، لم يقف ليتحدى صراعاتي ويهزم تمردي، لم يقف ليحتويني بين أحضانه. لقد تركني أرحل وكنتُ أحسب أني إن أسمعتُه كلمات حبي ما تركني لحظة واحدة، كنتُ أنتظر أن يتحول من جسد إلى سائل يسير مع دمي، إلى نور يسكن قلبي، إلى ضياء يملأ عيني، لكنه يحجب عينيه، ويواري آهاته، ويبارك رحيلي بصمته.

لكن..

كيف أعيش بدون قلبي وقد تركته قربانًا على عتبات معبده؟! كيف أعيش بلا روح وقد نزعتُها من جسدي لتمتزج بروحه؟! كيف أعيش ويداي تتوقان للمس يديه.. شفتاي تتألمان لهفة وشوقًا.. جسدي المصهور يذوب فيه وجدًا وحبًّا وعشقًا وغرامًا..

سوف أعود..

كي أسكب في قلبه أنهار عشقي، أذوب بين راحتيه، أُبحر بسفينة قلبي على صفحة بحور عينيه، كي أقول له: إني أحبه.. حبي أسطورة جديدة في كتاب أساطير العشاق.. عشقي حدود جديدة للكون..

سوف أعود..

كي تبتسم الطيور وتغرد.. كي ترفع الزهور أكُفَّها إلى السماء وترقص.. كي تتهادى النسمات.. عودتي إليه فرض.. كي تستمر السماء في مكانها، كي تأتي السحب بأمطارها، كي تُنبت الأرض زرعها، كي يُكمل الكون مسيرته.

بهدوء أدور.. أشخص ببصري نحو مكانه بين الأشجار.. تخف قدماي وتلقيان أثقالها.. تدفعني من الخلف قوة خفية، أخطو.. أتحرك أسيرة للعشق.. تعود ابتسامتي.. خطوة أخرى يشدو طائر بالقرب.. الثالثة.. أسمع كلماتها الرائعة "أنا طير رنان.. في دنيا الأحلام" مع الرابعة والخامسة.. الكون كله يتغير من حولي.. أهل الجوقة يرفعون رؤوسهم إلى فضاء الكون يتغنون بلحن العودة البسام.

أقترب.. أقترب.. أوه.. ها هو.. قد وقف متحركًا.. خلفي.. نعم في نفس اتجاهي لا الاتجاه الآخر.. يتأملني صامتًا، أتأمله مشتاقة.. يقترب.. أقترب.. يفرد راحته اليمنى.. ألقي عليها راحتي اليسرى.. كأنها تحملان بصمة خاصة ما إن تمتزج حتى تُفتح أقفال بوابات عالم السعادة الخفي، من خلف أبوابه تبدو جِنان مترامية الأطراف.. يلهو فيها عشاق الكون، حتى أطفالهم، أطفال العشق، يمرحون في سعادة.. حينما فُتِحت الأبواب انتبهوا جميعًا.. شخصوا نحوي، بعد لحظة رفعوا أيديهم ملوحين.. هنيئًا لكِ الحب.

جلسنا في نفس المكان.. أُفضل أن أجلس في مقعده ويجلس هو في مقعدي، نوع من تبادل الأدوار، لقد قررتُ أن أسقيه من نهر عشقي، أغسل وجهه بنور روحي.

قبل أن أبثه حبي ألفيتني أتأمله لحظات ثم أقول:

- هي المرة الأولى التي أعود فيها.. هي المرة الأولى التي أشعر فيها بضعفي.. لقد..

قبل أن أفيض في وصف انكساري يرفع يده أمام وجهي علامة السكوت، يبتسم، يحتوي راحتي بين يديه، يقول بحروف مصوغة من دمع القلوب:

- لا ضعف ولا انكسار في الحب يا هدى.. لقد أعادك قلبك.. كما حملني قلبي كي أهرول خلفكِ. والآن يا حبيبتي.. دعينا نعِش الحب.

حينما قال "يا حبيبتي" تسري بداخلي هزة عنيفة لها لذة تفوق ما مررتُ به في حياتي السابقة، رعشة تُمسك بقلبي لتحلق به في سماوات الغرام، حالة لا أجد لها وصفًا دقيقًا، همستُ:

- ماذا؟

- أقول: دعينا نعِش الحب.

أستمع إلى روحي تسأله هامسة:

- لا.. لا.. الكلمات التي سبقت تلك الجملة؟

يبتسم وقد أدرك ما تصبو إليه روحي، ابتسامته جميلة، نظرات عينيه الحالمة رائعة.. أنفاسه عبق يحوطني، يضغط على راحتي يبثها العشق، يقول:

- و الآن .. يا حبيبتي.. دعينا..

أشير إليه هامسة:

- أسمعني كلمة "يا حبيبتي" فقط.. تحدث بها فقط.. لا تُلحق بها أي كلمات حتى لا تفقدها روعتها.

يبتسم أكثر، يحتويني بعينيه أكثر، يضغط راحتي أكثر ، يقول:

- يا حبيبتي.. يا حبيبتي.. يا حبيبتي.. يا حبيبتي.. يا حبيبتي.. يا حبيبتي.. يا محبوبتي.. يا معشوقتي.. يا عمري.. يا روحي.. يا أملي.. يا شهدي.. يا لذتي.. يا أحلامي.. يا كوني كله.

ينطقها في كل مرة بلحن مختلف، فكان لها وقع مختلف في قلبي، وكأنه يسقيني دفقات الحب والعشق مع كل كلمة كي أرتوي، يمتلئ قلبي.. يتسع رويدًا رويدًا ليضم في داخله كريمًا.. ثم يضم المكان.. يتسع حتى يضم الكون.

يا الله.. ما كل هذه السعادة المخبوءة داخل قلوب العشاق؟! كنوز أبدية هابطة من السماء إلى الأرض لا يكتشفها إلا المحبون مثلنا، الولهون مثلنا.. العشاق مثلنا.. الرائعون مثلنا.. لم أجد ما أعبر به عما بداخلي غير أن سحبتُ يدي من بين راحتيه لأضم أنا راحتيه وأقول:

- ملأتني عِشقًا يا حبيبي.

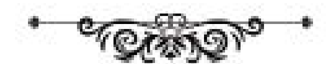
كنتُ أعلمُ أنه سوف يبتسم ويهز رأسه مستفهمًا عن كلمتي الأخيرة، وقد فعل.. أسكبُها في روحه ليتذوق مما تذوقتُه:

- ملأتني عشقًا يا حبيبي.. يا حبيبي.. حبيبي.. يا حبيبي.. يا حبي.. يا عمري.

كنتُ أنطق بالكلمات فتسعدني أنا قبل أن تصله لتسعده، التفوه بكلمات الحب يترك لذة في كل خلايا الجسد، لذة لا تروي ظمأ روح عاشقة مثلي، وقلب العاشق باتساع الكون يرغب في عشق لا نهاية له.. أكررها باحثة عن الشبع، أكررها حتى تخرج من بين شفتي همسًا، أكررها مثل طفل يتعلم نطق

الكلمة الأولى، مثل طير يرفرف بجناحيه يتعلم الطيران، أشعر معها بسعادة لا حدود لها.

جلسنا لا نعلم أين نحن ولا كم مَرَّ علينا من الوقت، جلسنا وبداخلنا روعة لن يشعر بها إلا مَن هم مثلنا، جلسنا حتى هبط الليل وآن الرحيل.



وحنايا القلب زهور ترتوي بترياق العشق..

فتنبض من جديد.

(١٣)

أنشودة عشقي

عدتُ إلى منزلي لا أعلم كيف، أو متى.. كنت نشوى، حالمة.. فراشية الجسد.. عصفورية الفكر.. مختالة مثل طاووس.. رشيقة مثل ريم.. باسمة كزهرة.. كنتُ أطير.. لا تمس قدماي أديم الأرض، أشاهد كل البشر رائعين، حتى الطير والجماد حدثني.. سعداء بحبي كانوا.

لم أكن أعلم أن الحب يحمل ذلك الكود السري الذي يفتح أقفال النفس والكون، والمحب مثلي يُفتح له الكون ليشاهده بشكل آخر. أتأمل كل شيء بدهشة، هي هي نفس الأشياء، ولكنها الآن تتحدث.. تُلقي رسائلها إلى القلوب العاشقة.

العشاق مثلي فقط يفهمون لغة الكون.. الطير.. الجماد.. يبادلونهم البسمات.. الإشارات.. الكلمات.. الآن علمتُ لماذا يصفون العشاق بالجنون.

ألفيتُ نفسي أتمدد فوق سريري، أستمع إلى صوتها يناجي قلبي بأنشودة عشق خطها بدمع قلبة شاعر رائع يدعى أحمد شفيق كامل. تقول بصوت هو أقرب إلى آلة موسيقية تُكمل عزف اللحن: "حبيبي قول للدنيا معايا.. ولكل قلب بدقته حس.. يا دنيا حبي و حبي و حبي.. دا العمر هو: الحب وبس.

نعم.. العمر هو الحب وفقط، فلا يحتسب العمر إلا بتلك الأيام التي ندركها. لا بد أن يُحتسب العمر هكذا: كم عشت من الحب؟ وليس كم عشت من الأيام؟. إجابة هذا السؤال تكون هي عمر الإنسان.

تغرد معشوقتي بجواري من بين آهات وشجن، تُشعرك بأنه لا حياة بلا حب، تشدو.. والحب ارتواء.. والمحبون عطشى، فتقول: "واسقيني واملا واسقيني تاني.. من الحب.. منك.. من نور زماني.. اسقيني ياللي، من يوم ماشوفتك، حسيت كأني اتخلقت تاني"..

خُلِقْتُ من جديد..

ذاك هو أفضل وصف لحالي في تلك اللحظات، خُلقت من جديد.. من نور.. من عشق.. أوه.. الآن علمتُ الروعة التي تعيشها الملائكة، علمتُ كيف أن الحب يسمو بالبشر إلى مصاف الملائكة.

لو أني استمعتُ إلى قصص العشاق منذ أن عشق آدم وحواء حتى اليوم، ما شعرتُ بتلك الروعة التي أعيشها الآن، ما تملكتني تلك المشاعر، ولا حلقتُ في فضاء الكون أسابق الطير، أو غصتُ في أعماق البحار ألهو بين الصدفات وأجمع لآلئ العشق.. مَن عاش الحب غير مَن يسمع أو يقرأ الحب.

إدراكي السابق نابع من حياتي السابقة، اليوم لي حياة جديدة يتبعها إدراك جديد، فلا يمكن لفكري.. لثقافتي.. للغتي الماضية أن تعبر عن جديد أحياه، فكنت تراني صامتة شاردة خلال ما تبقى من هذا اليوم والأيام الثلاثة التالية.. لا أعي من الوجود أي شيء غير أني أحب، لا أشاهد أي شيء على الإطلاق غير صورتنا نتبادل نظرات الغرام، لا أسمع أي صوت غير كلماته " أحبكِ.. حبيبتي " تترددان في أذني، في أعماقي.. كلمات تحمل سر حياتي الجديدة.

يا لعجب ما مررتُ به! ومهما يكن.. كنتُ أبتسم سعيدة.. فلو أني خرجتُ من غرفتي لقضاء أمر ما.. في منتصف الصالة أنسى تمامًا ما خرجتُ من أجله، أضحك وأعود.. كيف أتذكر أمرًا آخر غير حبي؟!

بالطبع تلاحظ أمي ما طرأ على من تغيير، تهمس في أذن أبي فيرتبك لحظات، ولكنه لا يعقب، يثقان بي ويكذبان شكهما، تأخذني نزعات حبي بعيدًا بعيدًا.. فهل لمثلي، وقد نسيت نفسها، أن تتذكر مَن حولها؟!

إني أحب.. أعيش خدر الحب.. لذة العشق.. أوه.. ها هو اليوم الثالث يأتي ولم نتقابل، كيف اتخذنا هذا القرار القاتل بألَّا نلتقي حتى الامتحانات؟! كنا لحظتها ممتلئين حبًّا ووجدًا، لم نكن نعي أننا سوف نعاني الفراق بعد ساعات.. وكيف لنا أن نعلم ونحن لم نحب من قبل؟! كيف نعرف ولم نعشق قبل اليوم؟! لم نتلقَّ رسائل العشاق قبلنا.. لكني اليوم أقولها لكل عاشق يأتي من بعدي.. تشبث بالحب.. عانق عشقك.. لا تفقده ساعات.. لا تلقِ نفسك إلى نيران الفراق مثلي.

يومي الثالث أعود من نسوتي مثل عائد من حلم جميل، أرى جسدي.. إنني أعيش على الأرض بين البشر، نظرتُ نحو السماء أحدث ملائكة الحب.. لمَ تركتموني أهبط إلى الأرض؟! تسيل دموع فقدي على وجنتيَّ، دموع راحلة عن عالم ملائكي هابطة إلى أرض البشر.. آه يا أمي حواء ويا أبي آدم.. كيف تقبلتما الهبوط؟ كيف عشتما على الأرض بعد حياة السماء بين الملائكة؟!

بالحب..

تتردد هذه الكلمة في الفضاء من حولي، صوت ملائكي يخبرني بها، أثق من يقظتي تمامًا، لستُ أحلم، أتأمل فضاء غرفتي، أنصتُ أكثر.. يهمس صاحب الصوت الخفي الذي يملأ الفضاء من حولي يخبرني بأنهما تحملا عذاب الهبوط بروعة عشقهما، ذابا، فصنعا على الأرض جنتيهما.

كيف افترقنا يا كريم وفي قلوبنا كل هذا الشوق؟! ليتني أنظر في عينيه لأملأ حنايا قلبي، تمس يداي راحتيه لترتوي خلايا جسدي، أود أن أرتشف من نعيم اللقاء.. هل أهاتفه لنتقابل؟

فتاة عشرينية.. جسد قُد من عشق.. خلايا لو نُثِرت في الهواء لتحولت إلى فراشات.. شفتاي ملتهبتان.. كنتُ عاشقة ظمأى.. كنتُ حبيبة تفتقد صدر حبيبها.. تفتقد أنفاسه.. ألا لجسدي على الحب حق؟! ألا لروحي على العشق حق؟! كيف ينمو الزهر بلا ماء؟!

وكأن الكون يتآمر ضدي.. في يومي الثالث.. يوم هبوطي من بين الملائكة إلى دنيا البشر.. تهاجمني أمي وتسألني عن حالي وكيف لا أهتم بدراستي والامتحانات بعد أيام؟!

تسألينني عن حالي يا أمي؟! اسألي الطيور المحلقة في السماء.. الماء يترقرق في الأنهار.. الفراشات ترفرف بين الزهور.. ابحثي بداخلكِ يا أمي عن حنان توارينه.. شاهدي دمعاتي المحبوسة ألمًا تبحث عن حبيبي.. انظري إلى السماء واطلبي لي الرحمة.. والغفران.. ولقيا حبيبي.

عدتُ إلى بشريتي وأمسكتُ كتبي.. حقًّا لا يجب أن يكون عشقي سببًا في عثراتي، الحب قوة تدفع للنجاح وليس العكس، هربتُ من شوقي إلى مواد الدراسة، أتقوى بحبي.. أستمد طاقتي من تلك الرسائل التي أتلقاها من كريم عبر فضاء الكون، أستمع إلى صوته الحاني يهمس: "أحبكِ".. تحنو على الوسائد بملمس راحتيه.. تتحول نقوش الستائر إلى عينيه.. تتأملانني.

تمر الأيام.. بطيئة.. ولكن على أمتع ما يكون.. كنتُ أعيش تلك الحالة التي نسعد فيها بآلام الغرام، حتى وصلنا إلى اليوم الذي يسبق اللقاء، في هذا اليوم يحدث أمران مهمان، الثاني هو استدعاء والدي لي. كان الاستدعاء مفاجئًا، خاصة عندما شاهدتُ علامات غريبة تكسو ملامحه، في خلفية الصورة أشاهد أمي تتركه وتدخل المطبخ، إذن هي مَن سكبتْ في أذنيه المخاوف، حدثتني هي من قبل وأقنعتُها بأنْ لا شيء، الآن يبدو أنها لم تقتنع هي بطبيعة الحال كثيرة الشك وتفزع من أدنى الأصوات.

جلستُ أمام أبي ضاحكة مستبشرة، ناديتُه باسمه وداعبته وأنا أمس أرنبة أنفه، يضحك كثيرًا وهو يدفع يدي برفق وإن لم ينجح في إخفاء قلقه. الحقيقة أن والدي يضعني في أعماق قلبه في مكانة عظيمة تجعلني باستمرار أخشى حزنه ولو لحظة واحدة. رفعتُ حاجبي متسائلة عما يريدني فيه، تحدث في عدد من الموضوعات على رأسها مستقبلي والامتحانات التي تبدأ غدًا وأهمية نجاحي، فأنا لا أمتلك أي رفاهية في التأخر الدراسي، يقصد بالطبع توفيق زوج المستقبل.

لم يحدثني أبي فيما كنتُ أخشاه، بمَ كنتُ أجيبه إن هو سألني عن تبدُّل أحوالي؟! كنتُ أتضرع بقلبي إلى ربي أن ينقذني من هذه اللحظات، لا أود طرح ما جَدَ عليَّ الآن.. ربما يحمل المستقبل ما لا نعرف من الحلول. يبدو أن والدي أدرك خطورة طرح شكوكهما في هذا التوقيت، لذا يكتفي بهذا القدر من التوجيه.

أعود إلى غرفتي يشغلني الأمر الأول عن الأمر الثاني، أمري الأول هو انتظاري للقاء الغد، كيف سيكون اللقاء بين كل هذه المعوقات؟ بشر في كل مكان.. تركيز في الامتحان! تمنيتُ أن تتحول جزيرتي التي أمتلكها في خيالي إلى واقع، نلتقي فيها وحدنا بعيدًا عن أعين البشر. أغدًا ألقاك.. يا كريم؟ يصدح الكروان، إله الحب في عصرنا الحديث، بتلك الكلمات التي يئن بها قلبي " أغدًا ألقاك.. يا خوف فؤادي من غدي.. يا لشوقي واحتراقي في انتظار الموعد.. آه.. كم أخشى.. غدي هذا.. وأرجوه اقترابا.. كنتُ أستدنيه لكن هبته لما أهابَ".

كيف لكل هذا الشوق أن يمتزج بكل هذا الخوف؟! عجيب أمر نفس تُحب.. تعشق.. هي باستمرار، قلقة في القرب، قلقة في البعاد. لو أن كل العشاق يمتزجون.. لو أن كل حواء تعود إلى مكانها في صدر آدم الذي تعشقه! أوه.. في ماذا أفكر؟! يبدو أن عشقي سيذهب بعقلي.. نعم.. سوف أجن بحبي.. كما جن عاشق ليلي!

ليكن حالي جنونًا.. وكيف لا وصورة حبيبي.. عشقي.. مرسومة أمامي على كل شيء.. متجسدة في الهواء.. صورة حبيبي هي انعكاس كامل لأشواقي واشتياقي. يتسلل اللحن عبر خلايا جسدي.. تهمس لتناديه وتصفه وتحبه وتسأله: "أنت يا جنة حبي واشتياقي وجنوني.. أنت يا قبلة روحي وانطلاقي وشجوني.. أغدًا تُشرق أضواؤك في ليل عيوني"؟!

بقدر ما يقترب الغد يرتعد قلبي، كأن ما مضى كان حلمًا.. لا أصدق أن أعيشه ثانية في الغد.. ما تزال تفاصيل اللقاء الأخير، لقاء الاعتراف، تسيطر على خلايا فكري، على حنايا قلبي، أرفرف بعيدًا في سماء الحب، لا أعي ما يدور بين سكان الأرض وإن كنتُ أعيش بينهم.. أغدًا يكون اللقاء؟!

كيف سيكون؟

هل أعانقه.. أم أكتفي بمصافحته؟! هل حقًّا تُشبعنا المصافحة.. أتستطيع راحتانا نقل جمرات قلبينا؟ هل نهمس بكلمات الحب خلسة.. أم تتحدث عيوننا لترسل مشاعرنا الملتهبة؟ أم سَيُغلِف الصمت اللقاء؟

لا أعلم ماذا سيحدث لأني لم أمر بمثل هذه اللحظات من قبل، أتمنى أن يكون لقاء حارًّا يستطيع نقل أشواقي وآهاتي.

ماذا عن موعد اللقاء؟ هل يكون قبل بدء الامتحان أم بعده؟ لا بد أن يكون قبل البدء.. كيف أستطيع الانتظار؟ وكيف يمكنني التركيز والإجابة بدون أن أرتوي برشفات الحب؟! نعم.. سوف أُبكر كي ينهل قلبي من نهر العشق قدر طاقته.

ماذا سأقول له؟ وماذا سيقول لي.. بعد طول فراق؟ سوف أخبره بشوقي ولهفتي.. بحنيني وآهاتي.. سوف أخبره بما لاقيته من عذاب في البُعد عنه. لقد حفظتُ بين حنايا قلبي كل تفاصيل حياتي وأنا بعيدة عنه كي أحكيها له وقت اللقاء، سوف أخبره بأنه شاركني كل ما فعلت في الأيام الماضية، بل امتزج مع كل نفس دخل إلى صدري، عَطَّرَ كل نقطة ماء لامستْ جسدي، كان معي مثل روحي. سوف أخبره بما تبوح به معشوقتي حينما غَردتْ: "لو كل حب في كل قلب اتجمعوا.. أنا حبي أكتر ".. ليت البشرية توصلتْ إلى اختراع ينقل دفقات العواطف بين القلوب!

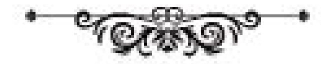
الآن سوف أنام حتى يأتيني الصباح.. أطفئ نور الغرفة.. أسبح في فضاء حبي.. أوه.. أجلس فجأة على سريري ويدي تعيد الضوء إلى الحجرة، ماذا سأرتدي غدًا؟

أقف أمام دولاب ملابسي.. أختار كل قطعة بعناية فائقة.. أحرص على تناسق الألوان.. أيُّها يناسب تلك الابتسامة التي سوف أُزين بها وجهي..

حتى حذائي انتقيتُه بشكل يبرز جمال أصابعي التي صبغتها بلون وردي خفيف. أحمل زجاجة عطر من دولابي، محفوظة من سنوات، رائحتها سوف تكون رائعة. وضعتُ كل شيء بحرص على المقعد الموجود أمام مرآتي. ضحكتُ وأنا أنظر إلى ثيابي وأتذكر فرحة الأطفال بملابسهم ليلة العيد.

وأتى الصباح.. لو عاد أحد بعد ليلة قضاها في الجنة لوصف حالي بعد ليلتي تلك. لا وقت لديَّ لوصف حالي، أنتهي سريعًا من تفاصيل الصباح، أقف أمام مرآتي أنقش بريشة حبي على صفحاتي تفاصيل الجمال. الآن أثق بمقولة أن جمال الروح أنقى وأعمق من أي جمال، ينتقل بالأجساد إلى مرتبة عليا، إلى عنان السماء، بعكس روح متدنية مع جسد جميل، فهي تجذبه إلى أدنى الأرض.

وطئتُ أرض الجامعة، الصباح ألقى بدفقات الحب المتبقية من جولات ملائكة الفجر على الوجوه حتى الزهور ابتسمت والطيور تغنت، شخصت الأبصار ترقب لقائي بحبيبي.



وقد لا تتحمل بشريتنا صفات الملائكة

فتهرب من روعة العشق.

(١٤)

الهروب

لا أعلم كيف فعلتُ ذلك؟! لا أمتلك أي تفسير لما حدث، لكنه حدث وكان!

اقتربتُ من مبنى الكلية في صباح اليوم الأول للامتحانات، تعثرتْ قدماي قليلًا، شعرتُ بداخلي يهتز مثل أوتار عود مع طفل يصدر أصوات نشاذ، مرتبكة كنتُ، بحثتُ عن سبب ارتباكي لم أجد، يزداد ضيقي من عدم قدرتي على تحديد ماهية داخلي. أتوقف في جانب بعض الوقت، أعض على شفتي السفلى أدميها، كيف أتوقف هكذا وقد اقترب وقت الامتحان؟! حتى الوقت القليل الذي أتيته مبكرًا لألقاه، أقف فيه بعيدًا بهذا الشكل؟!

تخلو الساحات من الطلبة مع بدء لجان الامتحان، تحركتُ بهدوء حتى وصلت إلى المدرج، كل الزملاء في أماكنهم، الموظفون والمعيدون يقومون بتوزيع الأوراق، وهناك على الطرف الآخر يجلس كريم وعيناه مثبتتان على

باب الدخول، تلتقي الأعين لتبث الأشواق، يبتسم لي مع إيماءة تحمل الكثير من المعاني، فسرتُها على هيئة سؤال يستفسر عن سبب تأخري؟ ابتسمتُ له مع هزة خفيفة من رأسي حملتُها أكثر من معنى، لا سيما معنى أن انتظر يا كريم؛ فقد خبأتُ لك داخل حجرات قلبي شوق العمر وسوف أودعه قلبك بعد قليل.

تسلمتُ أوراق الامتحان وبدأتُ في قراءة ورقة الأسئلة بذهن مشغول يبحث عن سبب لتلك الحالة التي انتابتني منذ قليل، هل الاقتراب من الحبيب يفعل هذا؟ لا أعلم.. كنتُ أختلس النظرات ناحيته، مرة أجده وقد بدأ في الكتابة ومرات أجده ينظر ناحيتي يتلقى أشواقي. ما وجدتُ غير قليل من التركيز بدأتُ من خلاله الإجابة عن أسئلة الامتحان، بعد دقائق تشغلني الأسئلة وتتحرك المادة الدراسية المتراكمة بداخل ذاكرتي لتتحول إلى إجابات.

ثلاث ساعات مدة الاختبار مرت طويلة، مشحونة بتوتر رهيب، توتر لقيا حبيبي بعد غياب وقلق الامتحان. سلمتُ ورقة الإجابة وخرجتُ شاردة، على باب المدرج، في الطرقات، أمام المبنى، الزملاء في جماعات يتبادلون أحاديث حول الأسئلة والإجابات، لا داعي أبدًا لمناقشة أمر قد فات، أي حديث لن يُصلح ما فيه من عوار إنما يزيد الضيق ويؤثر على الحالة النفسية بشكل يضر بالمواد المقبلة.. ابحثوا بداخلكم عن جمال.. عن عشق.. فذلك أبقى وأروع.

تتلقفني "منى"، صديقتي القريبة إلى نفسي، بالأحضان، فلم نتقابل منذ فترة، بالفعل أخرجتني من شرودي الذي فسرتْه على أن سببه الامتحان، جاريتُها في معتقدها ونحن نسير الهوينى في اتجاه الشجرة التي نفضل الجلوس أسفلها. كنتُ أشعر بخطوات كريم خلفي، إنه يقف بين عدد من الزملاء في جانب يختلس النظرات نحوي في انتظار إشارة التحرك إلى مكاننا الجديد البعيد عن أعين الزملاء، لكني لم أرسل نحوه أي إشارة، بل إن ما حدث كان على عكس ما هو منتظر تمامًا، قبيل شجرتنا بخطوات قليلة توقفتُ وأنا أتأمل "منى" لحظات، تُبادلني النظرات بدهشة متسائلة عن سبب توقفي، فجأة طلبتُ منها الرحيل:

- أود أن أعود الآن إلى منزلي يا منى، إن كانت لديكِ رغبة في البقاء فليكن وأرحل أنا.

بالطبع تساءلت "منى" عن أسباب ذلك، وبالطبع لم أجد ما أقوله لها لأنني لا أمتلك إجابات مقنعة حتى لنفسي، النتيجة أننا رحلنا عن الجامعة فجأة.

عدتُ إلى منزلي، إلى غرفتي، إلى سريري، شاردة ذاهلة، وبعد دقائق.. باكية.. لِمَ رحلتُ عن الجامعة؟ لِمَ لم أدع روحينا تتلاقيان لتصنعا من أشواق الحب جَنة؟! لن ألقاه غدًا.. الغدَ راحة.. يوم آخر بدون لقاء، بدون أن يبث أحدنا مشاعره الآخر.

آلمني التفكر في الأسباب حتى شعرتُ بإعياء، لكن هناك وبعد انتصاف الليل، بعد أن تورمت عيناي من البكاء، بعد أن لازمني السهاد، تلقيتُ

إشارة وجهتْ تفكيري ناحية السبب الحقيقي، حينما فتحتُ درجًا بجانب سريري ألتقط كبسولة للصداع، فتعثرت يدي في علبة مصوغاتي، مصوغات توفيق.. خطيبي.

حملتُها بين راحتي باكية من أعماقي حتى كان لبكائي صوت خشيتُ أن يوقظ والديَّ فحبسته بداخلي فخرج مثل آهات صريع ينتفض، تأملتُ القطع الذهبية منفردة، أتذكر كيف اخترتُ كل قطعة بعناية وبشكل يتناسب مع رغباتي ولم أهتم وقتها برغبات أحد، توفيق على وجه التحديد الذي لم أهتم برأيه على الإطلاق، وما ذلك إلا ليقيني بأن رأيه مؤكد يصب في صالحه الخاص، فهو المتكفل بدفع ثمنها، مصلحته تتوجه إلى ترشيد الاختيار وانتقاء كل ما هو أخف، ذاك كان يقيني.

هل القطع الذهبية، خطبتي، توفيق، والداي سبب فيما فعلتُ اليوم؟! قد يكون ذلك.. تظل مثل هذه الأفكار تسيطر على حتى أوشك فجر اليوم التالي، أذهب في نوم مؤلم متقطع، يبدو أن عصا قيادته كانت بيد شيطان عدو لملائكة الحب التي كانت تهدهدني على أجنحتها حتى أغرق في نوم هادئ جميل، فقد تألمتُ و تألمتُ حتى بكيتُ من أعماق روحي فكانت دموع مشبعة بعبق العشق.

صحوت من نومي هادئة نفسيًّا بعض الشيء، مُجهدة جسديًّا بشكل كبير، حتى إنني توجهتُ مباشرة إلى المطبخ لأصنع كوب شاي قد يذهب بألم رأسي. تبقى آلام روحي تنخر داخلي، إن كانت ظروفي هي سبب ما فعلتُ

بالأمس، فهي ظروف موجودة بطبيعة الحال قبل أن نسقط في بئر العشق، أين كانت تلك التفاصيل في الأيام الماضية؟

تألمتُ الفراق الذي دام أيام، تألمتُ نظرات عينيه المشتاقة لحظة دخولي المدرج، تألمت مغادرتي بدون أن ترتوي الأرواح بنعيم القرب، تألمتُ ليلتي الماضية وحزني على ما آلت إليه حياتي. ماذا أفعل؟! هل أستمر على هذا الوضع الرهيب؟ هل أبتعد عن حبيبي؟!

لا.. لا.. صرختُ فزعة وإن لم تخرج صرختي من باب غرفتي وأنا أطرح سؤال الفراق.. وكأن الأرض زُلزلت من تحتي، وكأن السماء ألقت بقذائف تقتلعني من جذوري، كيف الفراق؟

لا تتألمي يا روحي.. لن تُقتل يا وليد حبي وأنت في مهدك.. لن يحدث ذلك أبدًا.. قررتُ أن أنحي تلك الأفكار جانبًا، سوف أعيش حبي. تُرى فيما يفكر كريم الآن؟ كيف هو؟ هل يتألم البعاد مثلي؟

نلتقي غدًا.. أبثه مشاعري، يحدثني بحبه ليروي أشواقي العطشى، نعيش معًا سعادة اللقاء. لن أتركه وأرحل مرة ثانية، يجب أن أعوِّضه عما فات، سوف أجزل العطاء، مشاعري الفياضة لن تُحبس، ينهمر حبي غدًا يا كريم كما المطر فلا تحزن.

وكان الغد.. لجنة الامتحان.. وتلاقت أعيننا لتنهل من نهر العشق فتعود إليها روحها بعد الجفاف، أبتسم له، لا تستطيع ابتسامتي محو آثار غضبه. أعلم أنك غاضب يا حبيبي، أنا سبب غضبك.. لا تجزع؛ فأنا سبب سعادتك، معي لن تحزن بعد اليوم.

تأخذنا روعة انتظار اللقاء، ننهمك في وضع الإجابات على الأوراق، نجيب عن الأسئلة بسرعة كي نختصر الوقت لنلتقي. بين الفينة والأخرى نسترق لحظة نتبادل فيها نظرة مع ابتسامة تحمل للحب ألف معنى.

لا تفصل بين جسدينا سوى أمتار قليلة حتى إنني أشعر بنبض قلبه كما يتلقى هو وجيب قلبي، إلا أنني كنتُ أشعر بانقباض.. يتزايد بعد دقائق حتى يصل إلى رجفة تسري في أحشائي، الآن أعتقد أنها رجفة اللقاء المنتظر، قلبي يرفرف طربًا.. لم أكن أعلم أنها مؤشر لما سيحدث بعد قليل، والقلوب العاشقة تستشرف الغيب.

أسلم كراسة الإجابات كأني أقدم أوراق اعتماد خروجي من هذا السجن إلى فضاء جنة تضم لقاءنا. انتظرتُ كريمًا بالقرب من المدرج، تأتي "منى" نتبادل حديثًا لم أعِ منه كلمة واحدة، عيناي معلقتان بباب الخروج، لا أعلم لماذا تأخر كريم هكذا، تقريبًا انتهى الوقت المحدد، خرج الجميع إلا هو.. يتزايد الانقباض، تهتز أطراف أصابعي، تتحرك عيناي بقلق يُلفت انتباه "منى" فتسألني عن أمري فلا أجيب، تحركتُ خطوتين نحو باب المدرج، كنتُ أنتوي الدخول بحثًا عنه، حتى ألفيتُه يخرج بهدوء، على وجهه علامات حزن حقيقي، لماذا؟ لا أعلم، يقترب حتى يواجهني تمامًا، يتأملني كثيرًا، نظراته تحمل ألف كلمة، يبتسم بسمة كسيرة وهو يسألني:

- كيف حال امتحان اليوم؟

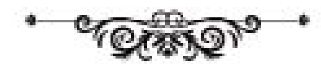
فهمتُ من سؤاله أنه سوف يواري أشواقه، سوف أغوص بداخلك يا كريم حتى أخرجها، لا تقلق يا حبيبي، دقائق فقط حتى يحتوينا أيك عشقنا. يقترب أحمد فتحي وفاتن، وكأنهم قد اتفقوا على الاجتماع مثل لجنة سوف تصدر حُكمًا قاسيًا، وكأني أراهم للمرة الأولى، لقد استطالت أنوفهم حتى احتلت تلك المساحة الضيقة بيني وبين كريم، وتلونت أعينهم بلون أصفر باهت، حتى إن أنيابهم قد بدت مثل مصاصي دماء، بينما أنا فريسة أفكاري، يثرثرون فيما لا معنى له.. يعتدل كريم، يُلقي التحية على الجميع ثم ينصرف بهدوء!

لقد ألجمتني المفاجأة، شعرتُ للمرة الأولى في حياتي بالمعنى الحسي لكلمة "الشلل".. شُل لساني، خمدتْ أطرافي تمامًا، عقلي نفسه توقف عن التفكير وتحول إلى قطعة من حجر أصم، أما قلبي فقد شعرتُ به رخوًا مثل قنديل بحر ميت. جسدي الخاوي من أي حواس يتردد بداخله صدى سؤال حتمي: "ماذا يحدث؟"

بعد لحظات أدركتُ أن كريمًا يغادرني الآن، يتركني اليوم كما تركته من قبل وانصرفتُ بدون إبداء الأسباب، يُسقيني من نفس الكأس، هي جرعات مرارة يا كريم وقد تذوقتُ منها الكثير بالأمس، أتيتُ اليوم أحمل إليك كؤوس الشهد.. شوق العمر.. لِمَ ترحل الآن تاركًا شهدي المصفَّى يا عصفوري الجميل؟!

إنه على مسافة خطوات.. أتأمله يسير الهوينى، تنبعث من جسده رسائل تستدعيني، أتحرك خطوة.. أقف مكاني فجأة، قاومتُ رغباتي الملحة في

اللحاق به، نظرتُ إلى الأصدقاء من حولي فإذا بهم يتأملونني في صمت وعلى وجوههم علامات دهشة، عدتُ إلى مكاني، غيرتُ ملامح وجهي المذهول، أمسكتُ قلبي المصدوم بأن عقدت ذراعيَّ على صدري بقوة، حاولتُ خلق موضوع جديد للحوار حتى أذهب بتفكيرهم بعيدًا عما يعتقدونه الآن، لكنني في الجملة الثانية أو الثالثة تركتُ الموضوع الجديد وتساءلتُ فجأة عن سبب مغادرة كريم؟! ولم يُجِبني أحدُهم وهم يتبادلون نظرات دهشة.



وتتحول الأرض إلى جنة في عيون العُشاق.

(١٥)

لقاء الحب

كم هي مُرة مثل صبار لحظات فراق الأحباب! كم هي قاسية مثل صحراء لا نهاية لها! يا لوعة قلبي! بل يا لقسوة قلبي حينما تركتُ كريمًا ورحلتُ! هل عانى كريم كما أُعانى الآن؟ هل تألم من قبل مثلما أتألمُ أنا الآن؟!

لكن.. ألم يمتلك قوة تُبقيه لحظات.. لحظات يا كريم! والله لحظات يا حبيبي.. آه..

تنهمر دموعي بلا حدود.. تضمني غرفتي فلا تستطيع أن تحتوي أوجاعي.. آه.. أريده الآن.. أريد رؤيته فقط.. أسمع صوته.. أريدك يا مَن تشرَّبتك خلاياىَ.

قررتُ مهاتفته تليفونيًّا.. لكني تراجعتُ بعد لحظات، الحديث عبر الهاتف لن يروي ظمئي، لن يُشبع قلبي، فليكن انتظار جديد حتى لقاء.. لقاء عتاب.. لكنه سيكون عتابًا خفيفًا.

والتقينا صباحًا.. قبل دخول المدرج.. وكنتُ البادئة:

- سوف أنتقم منك يا كريم.. لماذا تركتني ورحلتَ؟

كانت هناك ابتسامة حلوة تعلو ملامحي تفضح قلبي العاشق، يبتسم كريم لكلماتي ثم يجيبني وهو يضمني برموش عينيه:

- أنا على أتم الاستعداد لتلقي كل أنواع الانتقام.. ما دامت منكِ يا هدى.. كل ما أرجوه أن نكون معًا.

شرب كل منا كأس الغرام من عيني حبيبه، ثم دخلنا قاعة الامتحان مثل طائرين يغردان، كنتُ أشعر بجسدي خفيفًا تحمله النسمات، كل شيء حولي كان يبتسم في سعادة، الزملاء يمسكون بأقلامهم ويكتبون إجابات الأسئلة في سعادة مَن يكتب خطاب غرام، النوافذ المفتوحة تستقبل ريحًا خفيفة محملة بروائح زهور الحديقة المجاورة، صوت كروان يأتي من بعيد، يبدو أنه كروان عاشق، فقد اختلط نهاره بليله فخرج يحوم، حتى القلم في يدي كان ينساب على الصفحات في يُسر وكأن قوى خفية تُحركه.

تغمرني سعادتي.. أسألُ قلبي: كيف تتحول الأشياء إلى جنة في عيونِ العشاق؟ يأتيني صوت كريم.. أشهق.. أنظر نحوه فأجد عينيه مثبتتين عليّ، المسافة بيننا لا تسمح بوصول صوته، لكن صوته يرن في أذنيَّ، بل في قلبي.. يجيب عن سؤالي قائلًا: الأشياء تتحول إلى جنة في عيون العشاق لأن الجنة هي العشق ذاته يا حبيبتي، فمَن وصل إلى مرحلة العشق، مَن وطئت قدماه أرض العشق، فقد دخل الجنة، فيرى كل شيء حوله كما يراه قاطن الجنة.

نعم يا حبيبي.. لقد خُلقت الجنة لكل عاشق يدرك حقيقة الوجود.. وهأنا قد أدركت.. أدركتُ أن وجودي مرتبط بك.. قلبي مكانه صدرك.. آه يا حبيبي.. سوف نلتقي بعد قليل لننهل معًا من أنهار جنة عشقنا.

ينتهي الامتحان، نخرج إلى مكاننا البعيد عن الأعين، لم ننتظر الزملاء، لم نهتم بأحد، سوف ينتظرون.. ثم يتساءلون.. يبحثون عنا.. وفي النهاية سيرحلون.. ليفعلوا ما يحلو لهم، وسوف نفعل نحن ما يحلو لنا.

جلسنا تظللنا أشواقنا، تحوطنا لهفاتنا، تصهرنا آهاتنا، ترفرف حولنا كل ملائكة الحب، كل أرواح العاشقين نشعر بهم سعداء لأجلنا، الأشجار زاد لونها الأخضر فأضحى لامعًا، أوراقها تتجاذب وتتباعد وكأنها ترقص على لحن قلبينا، النسمات تأتي حانية تترك بصمتها بنغمات هامسة، لو تأملتها لوجدتها همسات عشق.

يمد كريم يديه ليحتوي راحتي فتسري في جسدي مشاعره مثل فيضان نهر، بعد مدة لا أعلم كم هي بالضبط يهمس "وحشيتني".. أسحب راحتي من بين يديه، أملأ صدري بهواء الكون، لقد حملتني كلمته إلى عنان السماء، نعم.. إني أراني هناك أرفرف بين ملائكة الحب، تحملني السُّحب الفضية، تتكسر على وجهي أشعة الشمس الذهبية. يا إلهي.. أي روعة تلك التي تحملها كلمات الحبيب؟! نفس الكلمات لا تترك أي تأثير إن خرجت من شخص آخر غير حبيبي. أحتوي راحتيه بين يدي، أضغطهما بحنوٍّ، أُلقي أشواقي حوله، ثم أجذبه في رفق حتى أضمه إلى صدري، أجيبه هامسة: "أنت أكثر يا حبيبي"..

أوه.. ماذا يحدث؟! من جديد كلمات الحب التي أهمس بها لها أثر جميل في داخلي، كلماتي أيضًا تُشعرني بلذات لا حدود لها، فلا كلمات تستطيع وصفها. تستمر نظراتنا.. تمتزج أشواقنا.. تتلاشى البشرية بأكملها، ننتقل إلى ذلك العالم الملائكي.. عالم العُشاق.

لا نعلم كم بقينا.. لا ندري كيف بقينا.. لكننا كنا معًا حتى عُدنا إلى كوكب الأرض مع غياب الشمس ورحيل الملائكة وعودة الطيور أسرابًا إلى أعشاشها، أفقنا على الكون من حولنا يلملم أدوات العشق ويرحل، أفقنا وكنا لا نريد، لكن الكون كله يأمرنا بأن نفيق.

الجسد خُلق مثل حقيبة مليئة بالأسرار، كل يوم يمر ينكشف سر جديد، تتكشف الأسرار لَمن يبحث في أعماقه، تتكشف لَمن يود الحصول على الأسرار، مَن بحث عن قوة وجدها، مَن بحث عن عشق احتواه، مَن بحث عن ضعف ألفاه. حقائب أجسادنا مملوءة بالأسرار، فهل من باحث حقيقي؟ أنا.. أنا بحثتُ عن العشق فعثرتُ عليه، أنهاره تتدفق.

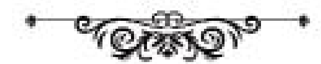
أنا أحب..

تحتويني غرفتي.. كوخ حبي.. أردد هامسة بنفس نبرة صوت كريم "وحشتيني" ثم بصوتي أنا: "أنت أكثر يا حبيبي". يا حبيبي.. يا حبيبي.. أهمس بها بكل اللهجات، بكل ما يتاح من طرق النطق، سريعة، طويلة، هامسة، مرتفعة، ممزوجة بآهات، أو من بين الضحكات، مطعمة بالزفرات أو مختلطة بدمعات الغرام.

أوه.. ماذا يحدث؟! إنها الدموع.. لقد اكتشفتُ الآن فقط أن الدموع ليست للتعبير عن الحزن والألم فقط، هناك دموع الغرام، إنها تنساب على وجنتي حانية مثل يد أم، لطيفة مثل قبلة عاشق.

كيف مر يومي.. بل كيف مرت الأيام التالية حتى كان اليوم الأخير في الامتحانات؟ لا أعلم.. لكن سكان الكون كانوا يتحركون، ينطلقون في حياتهم ولا أعلم كيف يتحركون غير مكترثين بعشقنا .. !! لماذا لا يتهادون مثل فراشات تشهد عشقنا؟!

وأتى اليوم الأخير في الامتحانات.. وحدث ما لم أكن أنتظر حدوثه.



وحينما ندرك.. تملؤنا السعادة..

وقليلٌ مَن يدرك ليسَعدَ.

(١٦)

اللقاء الأخير

كنتُ قد وصلتُ إلى مرحلة عليا، ذوبان وتلاش، مرحلة حب الحب.. لو سألني أحد عن اسمي لكانت إجابتي "عاشقة".. لو سألني أحد عن عمري لأجبته "هو عمر الغرام".. إن سُئلتُ عن آمالي، أحلامي، سر سعادتي، حياتي، سبب وجودي، آخرتي، لكان ردي كلمة واحدة..... " حبيبي"

ولما كان هذا اليوم هو اليوم الأخير في الامتحانات، فقد كان عليَّ أن أستعد له بشكل خاص، يجب أن أمضيه مع كريم بطريقة مختلفة، كل لحظة فيه يجب أن تحمل ذكرى تكون لنا مستقبلًا.. تاريخًا يُحكى.

ملابسي يجب أن تكون جديدة تمامًا، يراها كريم للمرة الأولى، والأشياء الأولى تحمل ذكرى، حتى عطري يجب أن يكون ماركة جديدة لم أستخدمها من قبل كي تتوغل إلى أعماق حبيبي لتنقش بين حنايا قلبه كلمات عشقي.

لمسات التجميل على وجهي، الرموش، الشفتان، الحاجبان، نظرات عيني.. كل شيء.. كل شيء يجب أن يكون في هذا اليوم مختلفًا عن الأيام السابقة، حتى كلماتي.. كنتُ قد جهزتُها.. كلمات مختلفة.. طريقة الأداء لكلمات حبي تدربتُ عليها ليلًا أمام مرآتي وأنا أمزجها بنظرات عيني مع ابتسامة ولهى على شفتيَّ.. العشق جنون.. وما أروعه من جنون! يا ليت كل الكون يعلم ما في قلبي! يا ليته يفعل مثلي! يا ليت العالم كله يعيش الحب! يعيش بالحب.. يعيش للحب.

انتهينا من الامتحانات، التقينا جميعًا لدقائق للوداع، كنتُ أنتظر أن ينتهي هذا اللقاء الجماعي سريعًا حتى نطير أنا وحبيبي إلى عشنا، لكن الزملاء جلسوا متكاسلين لا يرغبون في الرحيل، ما آلمني هو سكون كريم واستسلامه، أنا أعلم جيدًا أنه لو أراد رحيلهم لفعل، يمتلك قدرات غير عادية للتحرك في مثل هذه المواقف، لكنه مستكين كأنه يرغب في بقاء الوضع على ما هو عليه. جلستُ صامتة أنتظر، داخلي يحترق شوقًا حتى إن حرارته ظهرت على وجنتي فأصبحتا حمراوين.

أوشك النهار أن ينقضي، طاقة عشقي كادت تثور مثل بركان، نظرتُ ناحية كريم بعيني لوم وعتاب، يهز رأسه بهدوء، بعد لحظات يقف معلنًا الرحيل، فقد آن موعد انفراط عقد الجمع. تحركنا في اتجاهات مختلفة، صديقتي "منى" ترافقني نحو باب الخروج، يجب أن أعود إلى كريم في مكاننا، لم أجد ما أبرر به عودتي أمام "منى".. بعد لحظات تردد وصمت

أخبرتها بأني عائدة لمقابلة كريم، لم تشهق، لم تظهر عليها أي علامات دهشة، فقط علامة استياء واحدة، ثم تبحث بعينيها عن أساوري الذهبية، تذكرني بتوفيق خطيبي.

لم أجِبها بكلمة واحدة، تركتها بوجه جامد وانصرفت، تحول داخلي إلى بركان ثائر، لماذا تفعلون هذا بي؟! أي حق لكم يجعلكم أوصياء على أفعالي بهذا الشكل؟! لماذا يتعاون الكون كله فجأة ضد أشواقي وهُيامي؟!

أنا أحب.. أنا منذ الأمس أحمل طاقة إيجابية تكفي نصف سكان الكرة الأرضية، تأتون الآن وبمنتهى البساطة لتحولوها إلى طاقة سلبية؟! لماذا لا تجتمعوا هكذا لتحويل قوى الشر إلى قوى محبة؟ لماذا لا تذهبون إلى متخاصمين فتقربون بينهم محبة؟ لماذا لا تنشرون المحبة بقدر تصديكم لمشاعر حبي؟! أمامكم العالم المليء بالشرور والفتن والأحقاد والحروب والقتل ليل نهار، أصلحوه قدر طاقتكم واتركوني وعشقي!

وصلتُ إلى كريم وأنا أحاول إزاحة بقايا ثورتي من فوق وجهي لتحل محلها زهور حبي، لكني لم أكد أفعل ذلك حتى يسقط قلبي من بين أضلعي، كريم نفسه يقاوم لحظات انهيار.. على ملامحه شقاء لا حد له، أشعر بداخله يحترق، ولا أحد في الكون يشعر به مثلي.. حتى هو نفسه لم يعد يشعر بذاته كما أشعر أنا بها، فأنا أسكنه.

- ماذا يا حبيبي؟!

يتأملني صامتًا.. يتحرك لسانه ثقيلًا مثل "طفل ملاك" مكبل، تخرج الحروف واهنة تعاني دفع قوى خفية، تتكون الكلمات مثل ألسنة لهب تحرق كل شيء، يقول:

- آن الأوان يا هدى لـ...

انتظروا.. لقد قال "يا هدى".. لم يقل " يا حبيبتي ".. فليعطني أحد سلاحًا ناريًّا عيار تسعة مللي ويأتي آخر بفاتن فؤاد كي أقتلها الآن.. فلا بد أن أقتل أحدًا.. ابتلعتُ آهاتي وتأملته طويلًا.

الآن فهمتُ حاله، تيقنتُ مما كنتُ أخشاه، سوف يقول: آن الأوان لنهبط من سموات العشق، لترحل ملائكة الحب، لتخرس رُسل الغرام، لتغادر الطيور، لتجف أوراق الشجر، لتنسحب نسمات الهواء، لتغيب البسمات، آن الأوان لنعود إلى أرض الواقع؟!

لا أعلم بأي قوة تشبثتُ، ولا أدري لماذا لم أسقط في دوامات الغيبوبة، بل كيف أعيش حتى اللحظة ولم أفارق هذا الكون؟! هذا الكون الذي يتعاون فجأة ليسحب عشقي من بين يدي، ليسحب روحي! الآن فقط كان يجب أن أُفارق الحياة.. فإذا انتهى حبي انتهت حياتي. أفي هذا اليوم يا كريم تطلب الانفصال؟ في هذا اليوم الذي أعددتُ لك فيه ما لم يتخيله قلب من قبل، ولن يتوقعه قلب بعد يا حبيبي؟!

بعد طول صمت، بعد دموع لا نهاية لها تنهمر من شلالات عشقي، بعد آهات محبوسة تخرج إلى هذا الكون غاضبة لتحرق أغصانه الخضراء، بعد قوة تحولت إلى ضعف، بعد آمال صُدِمت بأرض الواقع، أقول:

- هكذا يا كريم.. تُنهي الأمر بهذه البساطة؟!

يتأملني صامتًا، ينفعل بقوة، أشعر به يلملم نيران قلبه لتظل بداخله، فلو خرجت إلى الوجود لأحرقت كل ما تقابله، لو لم يتحدث لانفجر، سوف يسقط الآن..

- تحدث يا كريم.. لا تصمتُ.. أخرِجْ ما بداخلك.

تخرج كلماته قوية مثل طلقات مدفع لكنها مكبلة بقوى خفية تجذبها إلى الخلف، لسانه بالفعل ثقيل مثل خارج من أزمة قلبية أثرت على جهاز النطق، يداه متشنجتان، نظراته ذاهلة مثل فاقد ذاكرة. يقول:

- ماذا تريدين يا هدى؟! أن أقول إني أحبك؟ تعلمين أني أحبك.. أن أقول إن حياتي بدونك هي العدم نفسه؟ نعم حياتي بدونك عدم.. أن أقول إني أقتل بداخلي حبًّا وغرامًا لو تم توزيعه على قلوب الكون لشَبِعت حبًّا وغرامًا.. هأنا أقول ذلك.. لكن.. إلى متى يا هدى؟! يا حبـــــ... يـــــ... بـــــــــتي.. إلى متى وأنتِ مكبلة بتلك القيود الذهبية؟!

يرنو بعينيه إلى ذهبياتي حول رقبتي ومعصميَّ، وكأني أتأكد من وجودها أبحث عنها لأشاهدها، وكأنها تحولت إلى ثعابين تتلوى على جسدي، فزعت

وتألمت، بكيتُ وخرجت آهاتي ساخنة، روحي تنسحب بهدوء، أفقد قواي، لم أعد أمتلك القدرة على الحركة، بل لم أعد أمتلك القدرة على التنفس بشكل طبيعي، تداخلت الصور أمامي، تمتزج الألوان تدريجيًّا حتى يحل لون رمادي قاتم على كل الأشياء، تفاصيل وجه كريم تتلاشى من أمامي، لولا مقعدي ذو الظهر والجانبين لسقطتُ أرضًا، حاولتُ البحث عن دفقة هواء أغذي بها روحي لم أجد، شعرتُ باختناق رهيب، حتى إن صوت تنفسي قد ارتفع ليلفت انتباه من هم في الجوار، سمعتُ كريمًا يناديني باسمي، شعرتُ به يُمسك براحتيَّ، يضمهما بقوة، كلمات متناثرة يرسلها جسدي إلى روحي التي تُحلِّق في المكان:

- هدى.. أرجوكِ.. لا تعذبيني..

أعذبك؟! لقد أتيتُ حاملة عشقًا لا حد له بين أضلعي لأسقيك من أنهاره، كي أجعلك تمرح بين زهوره، تغرد بين أغصانه.. أعذبك يا كريم؟! ماذا تعرف عن العذاب؟! لو أن ما في الكون من عذاب قد اجتمع مرة واحدة لكان ما أنا فيه يا كريم.. يا حبيبي وقاتلي..

يُخرج من ثنايا ثيابه ورقات مطويات، بعضها ملون أعلم محتواه جيدًا، رسائل غرام تبادلنها من قبل، وبعضها يبدو غريبًا عليَّ، يتملكني فضولي لحظة، تعود روحي إلى جسدي، أرفع يدي أتسلم منه الأوراق.. وثائق الفراق.

يقف كريم.. ينتزع نفسه انتزاعًا ليُنهي الموقف، أقف خلفه صامتة، أتشبث ببقايا كرامتي التي واريتها جانبًا منذ عشقت، إن كان لا يريد حبي فلن أفرضه عليه، سوف أكتفي بوليد عشقي في قلبي، أعيش به وله.

كيف كان حال الكون من حولنا ونحن نرحل عنه تحملنا سفن الفراق التي تُبحر فوق صفحة نهر الأحزان؟ تهدلت الأغصان.. توقفت النسمات.. رحلت الطيور.. توارت كل الأصوات إلا من صوت واحد يأتي من العدم، قط يبكي بألم.. بحثتُ عنه في الجوار، لم أجده، يختفي بين الشجيرات، أسفل سيارة، خلف جدار.

افترقنا في تلك الساحة أمام بوابات الجامعة، مزدحمة بالسيارات والمارة وكثير من الطلبة، شعرتُ بها ساحة حرب آتية من زمن بعيد، القتلى والجرحى في كل مكان، أنين، تأوهات، أصوات غربان تحلق فوقنا، نظرات عيون دامية، أياد بلا أجساد تشير نحونا، سيوف، وخناجر، ورماح، ودروع ممزقة، تغوص أقدامنا في بركة الدماء التي تغطي أرض المعركة. أيها العالم القبيح.. لماذا تقسو عليَّ؟! لماذا تنتزع روحي من بين أضلعي؟!

أشعر بدوار.. أقف مستندة إلى جدار جانبي كي لا أسقط صريعة بين القتلى.. يمد كريم يده كي يعاونني على الصمود، أبتعد عنه بعنف.. أي عون يقدمه لي وهو سبب شقائي؟! ثم.. لا يحق له أن يلامسني.. رابطة الحب التي تجمعنا تتهاوى.. يجزع.. يندهش من ابتعادي عنه.. بصعوبة أستجمع قوتي.. أسأله:

- وكأنك لم تتخيل آلام الفراق؟

تختفي زرقة عينيه خلف موجة دمع عاتية تأتي مسرعة، يزم شفتيه بقوة ليواري انفعاله، تهرب دمعة واحدة لا يقوى على صدها، تتدحرج على خده الأيمن، تمنيتُ لو ارتشفتُها بشفتيَّ، لكن يده كانت أسبق، يمسحها بهدوء قبل أن يقول:

- تخيلته يا هدى.. أعلم مقداره.. لا أعلم كيف غدى.. لكن.. (يصمت لحظات) الأقدار لها رأي آخر.

بأطراف أصابعه يمس يدي ثم يرفع رأسي من أسفل وجهي كي أنظر نحوه، يطيل النظر نحوي، أغوص في عينيه حتى أتسلل إلى جسده، يغوص في داخلي حتى يستقر في قلبي الذي ينتفض داخلي بشدة، تتخلل أصابعه أصابعي برفق، تتعانق، تبث بيننا حديثًا صامتًا، تنقل ما تعجز عنه ألسنتنا.. ثم..

يرحل كريم.. يتركني وحيدة.. يرحل بقسوة أسد عن غزالة رقيقة بعد أن غرس أنيابه في رقبتها لينزع روحها البريئة، يرحل ليتركني أبحث عن شيء أتكئ عليه، وكنتُ في أمسِّ الحاجة إليه كي يكون سندي في هذا العالم الظالم الذي يترك كل عصاته يلهون في مجون ويأتي على شغاف القلوب ليصيبها بخناجره المسمومة، يرحل كريم بعد أن قرر أن يكون ذلك هو اللقاء الأخير بيننا.

اللقاء الأخير؟!

تمنيتُ لو صرختُ حتى تخرج نيران قلبي.. لو صرختُ حتى ينتبه الجميع من حولي.. لو صرختُ حتى يعود إليَّ كريم.. في جزء من الثانية يخطر على بالي أن أصرخ وأقول "حرامي" وأنا أشير نحو كريم حتى يأتوني به.. يا لجنوني! هل أفعل أي شيء حتى يعود إليَّ؟!

لم أفعل أي شيء.. لقد رحل وتركني وحيدة.. تمر ساعة وأنا لا أعي مَن أنا أو أين أنا..!



وللحب خُلِقنا وبالحب نحيا وفي الحب نعيش

(١٧)

أنا أحب..

أنا أعيش.

لم أنتظر حتى أغلق خلفي باب حجرتي، بعدما ألقيت نفسي إلى أول سيارة أجرة، أخبرتُ سائقها بعنواني، ثم تصفحتُ الأوراق التي تركها لي كريم سريعًا حتى وصلت إلى تلك الأوراق الجديدة، يبدو أنه قد سهر على كتابتها الليلة الماضية، عيناه كانتا حمراوين من أثر السهر، بشرته كانت مجهدة، ذهنه المشوش جعله يعجز عن إيجاد طريقة أخرى غير الانفصال فجلس يخط كلماته على هذه الأوراق، أقرأ فيها:

هدى.. أقول هدى وتنازعني روحي راغبة في أن تقول: "حبيبتي"، لكني انتصرتُ عليها وكتبتُ "هدى". كل ما أتمناه أن تقرئي السطور التالية بعين العقل وليس بعين القلب، لقد نظرتُ مليًّا، تأملتُ كل تفاصيل علاقتنا، رأيتُ أن يد ملائكة الحب قد أخذت بقلبينا ليصنعوا منهما قلبًا واحدًا لروح واحدة تسكن جسدينا، لكنها، أي ملائكة الحب، تجاهلت، عن عمد أو عن

جهل، قلوبًا أخرى سوف تُسقى من نهر العذاب كؤوس الشقاء. أنا الآن أفكر في تلك القلوب، أفكر في توفيق، خطيبك يا هدى، ماذا فعل كي يتألم كل هذا الألم إن علم حقيقة علاقتنا؟! أفكر في والديك يا هدى.. وأعلم قدر محبتهما لكِ، كيف تكون علاقتهما بكِ بعد أن يعلما تفاصيل عشقنا؟!

أفكر بشكل عملي أكثر وأتساءل: إن كان توفيق يمتلك مقومات الزواج، فماذا أمتلك أنا؟ وتعلمين يا حــبــــــ.... يا هدى ظروفي المادية، نعم.. أعلم أنكِ ستقولين إنها ظروف طبيعية وتسمح بزواجنا.. لكنها ليست على نفس قدر ظروف توفيق، خطيبك يا هدى الذي يجب عليك أن تبحثي عن إيجابياته كي تقتربي منه، فاقترابك منه يُنهي علاقتنا، ابحثي فيه عن الرجل الذي ترتبطين به، نحي جانبًا فكرة أنه إنسان تابع التي ينبئ عنها سلوكه.

قبل أن أُنهي كلماتي أقول: ما أحببتُ يا هدى قبل.. ولن أحب بعد.. كما أحببتك.. بل أقول: لن أعيش بعد اليوم لحظة سعادة واحدة، فقد أدارت الدنيا وجهها عني، كشفتْ لي عن جوانب الشقاء. سوف أتحمل عذابات الأيام المقبلة وأتمنى أن تقدري وضعي الذي بدا في أرض حياتك مثل نبتة ضارة..

هدى فعلتُ ما استشعرتُ أنه طبيعي، متمنيًا لكِ حياة هادئة مستقرة.. فالحب أسمى من أن يكون سبب شقاء. لا أقول أن علاقتنا تنتهي للأبد، لا.. إنما أعني حالة عشقنا يا هدى.. يجب أن نعود إلى سيرتنا الأولى.. إلى تلك الصداقة البريئة الطاهرة التي عشناها في البداية.

أختم كلماتي قائلًا: مع عظيم تقديري

صديقتي العزيزة هدى.

انتهيتُ من قراءة كلمات كريم، أعدتُ تأملها بعينين باكيتين أكثر من مرة حتى أفقتُ على صوت السائق يخبرني بوصولي إلى العنوان الذي أعطيتُه. ترجلتُ من السيارة تغوص قدماي في أرض الطريق، أشعر بها رخوة تمتص قوتي فتزيدني وهنًا على وهن، لولا جِزع شجرة قريب استندتُ إليه لسقطتُ أرضًا، رَفعتُ أوراق كريم أمام عيني أتأملها من جديد، تساءلتُ في دهشة: كلماتك لن تبعدني عنك، بل تزيدني عشقًا يا حبيبي! لن تُكتب لنا النجاة بما تفعل يا حبيبي، ففي قرارك هلاكنا. ثم.. ثم هل عِشقنا مِلك يمينك وحدك؟! هل أنت المتحكم في مصير علاقتنا؟ أليس لي حق مشاركتك في اتخاذ القرار؟!

كان يجب أن أحدثه بذلك قبل أن يرحل ويتركني وحيدة أمام الجامعة ليذوب في الزحام، كان يجب عليَّ أن أصرخ فيه بأن يقف مكانه ولا يتحرك، فهو ملكي أنا.. حركته يجب أن تكون بموافقتي.

وصلتُ حجرتي، أغلقتُ بابي، قرأتُ الأوراق أكثر من مرة حتى ألفيتني أُردِّدُ بعض كلماتها بدون أن تقع عليها عيناي، كانت جملته التي يقول فيها: "ما أحببتُ يا هدى قبل.. ولن أحب بعد.. كما أحببتك" تتردد في أعماقي فتذيب قلبي.

رغم كل ما كنتُ أعانيه في تلك اللحظات، إلا أن داخلي لم يكن قانعًا بأنها النهاية الحقيقة، قلبي لم يستوعب ما حدث، فلم يصدق.. لكن هل سيصدق

بالفراق مستقبلًا؟! إلى أن يأتي هذا اليوم فهو حبيبي، وإن كان الانفصال نهائيًا فهو حبيبي أيضًا، يستقر بداخلي، أعيش قصة حبي.. لي أنا وحدي.

بكيتُ.. بكيتُ بصوت مسموع حتى إن أمي أتت تسألني عن سبب بكائي.. شقائي، ارتميتُ في أحضانها أنشج بلا كلمات حتى ذهبتُ في نوم هو للعذاب أقرب، شاهدتُ فيه ذئبًا يكشر عن أنياب حادة، يسيل لعابه، يقترب.. أصرخ.. أمد يدي لأدفعه وأحمي ذاتي، أستغيث.. أنادي كريمًا لأحتمي به.. أبحث عنه.. لا أجده.. أنصت كي أسمع صوته يأتي من بعيد، لا يجاوبني غير الصمت.. فجأة يصرخ الذئب وهو يقفز نحوي.. أتأمله فَزِعَة وقد فارقني أدنى أمل في النجاة، فإذا بوجه الذئب يتحول إلى ملامح أعرفها جيدًا، توفيق.. أصرخ.. لا.. لا..

هدى.. صوت يأتيني من الأعماق، يمتزج بصراخي.. لا.. هدى.. لا.. هدى.. أشعر بيد تهزني بقوة، أفيق لحظة.. أتأمل المكان، أغوص خلف غطائي، الذئب المفترس قادم.. أتأمل المكان مرة أخرى.. أمي تربت برفق متسائلة عن حالي، أعود إلى المكان، لا أجد ما أجيبها به، أهرب باكية إلى صدرها.

كنتُ أبكي لأنني قبل أن يقرر كريم الانفصال كنتُ سأحدثه بأننا سوف نعيش الحب بكل تفاصيله، فلن أستطيع التخلي عنه..

بكيتُ لأن الحب الأول ينسحب من بين يدي وأنا عاجزة..

بكيتُ لأن لحظات السعادة التي ظهرت لي مع عشقي انتهت سريعًا..

بكيتُ لأن حديث كريم في أوراقه أبكاني حبًّا وهيامًا، دمعه على وريقاته ارتشفته حتى ثملتُ..

بكيتُ لأنه الوحيد الذي أردتُ أن تمسه يداي.. أن أرتمي بين أحضانه..

بكيتُ لأنني يجب أن أعود إلى مَن لا أحب، أعود إلى توفيق الذي لن يجد ما بقي لنا من عمر على هذه الأرض غير جسد خاوٍ لا قلب فيه، فقلبي هناك يسكن روح حبيبي الأول والأخير، كريم.

بكيتُ بدموع أيام قد نلتقي فيها بعد سنوات وأنا زوجة لآخر ، كيف يكون اللقاء؟

يا حبيبي.. لِمَ الفراق؟ لم الخروج من الجنة؟!

تُخرجني أمي من دوامة أفكاري بالسؤال البديهي: ماذا حدث يا هدى؟

كان عليَّ أن أقدم إجابة مقنعة.. لكني لم أكن أمتلك الذهن الصافي لصياغة إجابة مناسبة.. آثرتُ الصمت، صمت غريب يتملكني، يُزيد من اضطرابها، خوفها على أجبرها على الخروج كي تأتي بوالدي.

غاضبين يخرجان من الحجرة بعدما أخبرتهما بأنني طبيعية ولا يوجد أي شيء، مجرد موقف عابر في الجامعة بيني وبين زميلتي فاتن فؤاد التي دائمًا ما تتربص بي، فهي غيور إلى أقصى درجة..

تركتُ غضب والديَّ جانبًا وعدتُ إلى مأساتي.. إلى دمع قلبي.. إلى ابتسامة حبيبي.. إلى لمسة يديه.. لن أستطيع العيش بدونك يا حبيبي.. سوف..

سوف أتحدث إليه.. أتصل به وأطلب لقياه.. إن كان قد فعل ذلك كي يريحني، فإن راحتي الحقيقية أن أعيش في دنيا عشقه.. في أحضانه.

لكن كيف أتصل به وقد رحل عني؟! لقد اتخذ قراره ولن يعود إن اتصلت به، فقد كنا معًا ورحل!

لكنه رحل من أجلي أنا.. فإن أنا أخبرته برغبتي في العودة ، سيعود إليَّ بحبه بلا شك.. إذن أتصل به الآن..

لا.. لا.. لن أتصل به.. إن أرادني.. إن كان حبه حقيقيًا فسوف يعود وحده..

لا.. لا.. يجب عليَّ أنا الاحتفاظ به إن كان عشقي له حقيقيًا..

آه.. يا لوعتي وشقائي! أليس ثمة استقرار؟!

يمر يوم ويوم يليه وأنا على تلك الحال، لا رغبة في نوم، في تناول طعام، في حديث.. أمكث في حجرتي، الإضاءة خافتة، يحتمى بعضى ببعضي، أحتضن وسادتي، أتقلب على جمرات عشقي، أستمع إلى صوت ملاك حبي الباكي تشدو بكلمات: "نسيت النوم وأحلامه، نسيت لياليه و أيامه.. بعيد عنك.. حياتي عذاب.. ما تبعدنيش بعيد عنك.. ماليش غير الدموع أحباب، معاها بعيش بعيد عنك.. غلَبني الشوق وغلِبني.. وليل البعد دوبني، ومهما البعد حيرني، ومهما السهد سهرني.. لا طول بعدك يغيرني ، ولا الأيام بتبعدني .. بعيد عنك".

كنتُ أشعر به في حجرته، يتمدد فوق سريره، الإضاءة خافتة، يستمع لنفس الكلمات، أبكي.. أتساءل للمرة المليون: لماذا نخرج من الجنة بأيدينا؟!
لو لم يكن حبنا مُقدَّرًا لَـمَا كان من الأصل يا حبيبي.

بعد استسلام والديَّ لصمتي تشجعني أمي على الخروج كي أُسري عن نفسي، أستجيب لرغبتها، أنا بالفعل أحتاج إلى ما يشغل تفكيري قليلًا، أذهب وحيدة إلى منطقة وسط البلد، لم أرغب في مرافقة أحد، حتى "منى" صديقتي التي نصحتني أمي بالاتصال بها، لم أنسَ نظرتها الأخيرة التي رمقتني بها عندما أخبرتها بعودتي لمقابلة كريم، تلك النظرة التي أسقطتها على قطعي الذهبية لتذكرني بأن لي خطيبًا، لم ولن أنسى يا "منى"، لم ولن أنسى أيها العالم، لكني لم ولن أنسى أيضًا أن لي حبيبًا يمتلك قلبي، يمتلك روحي.

الأزمات.. إن كان عشقي أزمة.. يجب أن تُعالج بحكمة.. بلين ورفق.. لا يجب مطلقًا أن يرمقني أحدهم بنظرات استنكار غاضبة، أنا لم أرتكب جُرمًا حينما أحببت!

أتجوَّل بين المحلات أشاهد الجديد.. ملابس.. أحذية.. زحامًا، وأحاديث.. عشاق تتعانق أياديهم.. يتناولون الأطعمة والعصائر والآيس كريم.. يمارسون عشقهم بمنتهى الحرية.. لماذا إذن يتكاتف العالم ضدي أنا؟!

كما تهب رائحة الخطر قبل حدوثه بلحظات ويستشعرها الطير والحيوان وتخفق لها قلوب الأنقياء، تخفق قلوب العشاق حينما تهب روائح السعادة،

فجأة تعود إلى ابتسامتي، يستقر قلبي بين أضلعي، أملأ صدري بالهواء، أتأمل الناس من حولي فأجدهم قد تغيروا فجأة وكست البشاشة وجوههم وذهبت قسوتهم وانتشرت في المكان روعتهم وهم يتشاركون في عزف لحن الأنقياء.. لحن الحياة اليومي.

أذهب، تتملكني الحيرة، لتناول الطعام.. آكل بشراهة.. ثم الآيس كريم.. كنتُ أتخيل كريمًا معي.. بل طلبتُ له طعامًا وتناولته نيابة عنه، وأيضًا طلبتُ له الآيس كريم "مانجو بالشيكولا " التي يعشقها، وأيضًا أكلتُها بدلًا منه وسألته عن مذاقها وأجبتُ على لسانه بأنها لذيذة جدًّا.

ضحكتُ ملء قلبي على ما أفعله، هل أصابني مَسٌّ؟!

لا.. إنه حبي أنا.. ويجب أن أعيشه بالطريقة التي تسعدني. تتزايد سعادتي وأنا أنتظر مقابلة كريم.. مؤكد سوف يظهر فجأة من قلب الزحام.. سوف أرتمي على صدره، نعم في وسط الشارع أرتمي على صدره.. أنا حرة..

طال بحثي.. حتى شعرتُ بإرهاق.. آن وقت عودتي إلى المنزل.. ترجلتُ.. لم أرغب في ركوب وسيلة مواصلات، كنتُ أرغب في إرهاق جسدي حتى أستغرق في النوم سريعًا.

أدخل الشقة وأغلق الباب بهدوء المرهق.. من بعيد يأتيني صوت أمي مرحبة بعودتي.. أجيبها بهدوء عن بعض الأسئلة، أدخل غرفتي لأستريح بعدما أخبرتها بأنني أكلتُ في الخارج ولن أتناول معهم طعام العشاء.. بعد

نصف ساعة تقريبًا تطرق أمي باب غرفتي، بالتحديد في اللحظة التي كنت أستمع فيها إلى ملاك حبي تشدو: "خد من عمري.. عمري كله إلا ثواني أشوفك فيها"..

أغلقتُ الكاسيت واعتدلتُ لمواجهتها، مؤكد سيدور حديث طويل تسألني فيه عما آل إليه حالي، لكنها لم تدخل الحجرة، وقفتْ تسد فتحة الباب لتحجب شلال الضوء المنهمر من الصالة، بكلمات غير مبالية تخبرني:

- على فكرة.. كريم اتصل بكِ وأنتِ بالخارج.

أكتم شهقتي.. أبحث عن قلبي فأجده يغادر جسدي ليرفرف فرحًا مثل عصفور في فضاء الحجرة وأنا أرقبه في سعادة طفل حتى يعود إلى مستقرِّه في صدري. أعود إلى المكان..

ماذا يا أمي؟! تقولين: على فكرة؟! وكأنك تذكرتِ للتو! أهذا أمر يُنسى يا أمي!

لم أنطق بهذه الكلمات.. تأملتها بدهشة.. لم تهتم وأحسب أنها تتعمد ذلك.. فلتفعل ما تفعله.. أنا الآن أطير في سماء الكون، أضرب الهواء بأجنحة حبي.. لقد اتصل كريم.. يود محادثتي.. لماذا خرجتُ ولم أنتظر بجوار التليفون؟! أوه.. أليس في العالم عصا سحرية تنقل العاشق إلى حبيبه في غمضة عين.. لماذا انتهى زمن المعجزات؟ ألسنا بشرًا لنا حقوق نالها مثلما نالها الأجداد حينما كانت تُسخر لهم الريح؟!

ماذا أقول؟!

يجب أن أتصل بكريم الآن.. على الخروج ثانية والاتصال به من السنترال، التليفون في منزلنا محلي والاتصال بكريم يحتاج إلى زيرو المحافظات، إنها إحدى عقبات الحدود الإدارية بين المحافظات، وإن اقتربت المسافات.. مستقبلًا.. بل في القريب العاجل جدًّا من هذا التوقيت الذي أعيش فيه هذه الأحداث، سوف تظهر المعجزات مرة أخرى ويحمل كل فرد تليفونًا في يده ويكون من خلاله على اتصال بالعالم أجمع صوتًا وصورة. ولو قيل لي ذلك في تلك اللحظات لوصفتُ قائلها بالجنون ولأخبرته بأن زمن المعجزات قد انتهى.

في لمح البصر أرتدي ثيابي، أستأذن من أمي لمحادثة كريم، فقد يكون قد علم شيئًا عن نتيجة الامتحانات. في الشارع كنتُ أجري، لا أعلم من أين أتتني تلك القوة، أعبر الجموع في الشارع مثل عداءة محترفة، لو شاركتُ الآن في مارثون اختراق الضاحية لربحت، لكن بشرط أن يكون كريم في نهاية المارثون.. أن يكون جائزة يحصل عليها الفائز.

حالما وصلتُ السنترال كنتُ ألهث لكن سعادتي كانت أكثر، كل زهور العالم قد زينت الشوارع، السنترال أمسى مثل كازينو على النيل يستقبل العشاق، كل الابتسامات تجمعت لتعلو الوجوه من حولي.. كنتُ أغرد.. أنا أحب.. أنا أعيش.. حبيبي أرادني.. لقد أمره الحب بالبقاء الجبري في جزيرة العشاق ليرعى بذور حبه التي أصبحت نباتًا يريد مَن يرعاه..

الحب سيد.. قراره نافذ على كل ذي قلب.. كريم صاحب قلب.. قلب كبير يسع الكون.. قلب عاشق.. يعشقني أنا.. يحبني أنا كما أحبه.. قلب يذوب هيامًا كما أذوب.

من خلال الهاتف.. ذلك الاختراع الرهيب الذي حمل إلى صوت حبيبي.. كان يود الاطمئنان.. لم أخفِ عنه حالي، حدثته بكل همومي.. ثم طلبتُ منه أن يتحدث.. فقال:

- لا أدري.. لا أعلم ماذا أريد يا هدى.. قوى خفية ساقتني إلى التليفون لأتصل بكِ.. ثم.. أنا.. أقصد.. هدى.. هل نتقابل؟

تُجيبه روحي:

- نعم نتقابل.

- غدًا.. في مكاننا؟

- نعم.. غدًا في مكاننا.

- إلى لقاء.

- إلى لقاء.

لم أترك سماعة الهاتف حتى تأكدتُ أن الخط قد أُغلق، قبلتُ السماعة ثم وضعتها بهدوء كمن يضع شيئًا ثمين، خرجتُ من الكابينة ساهمة لا أعي كيف أسير ولا إلى أين أذهب.. تجولتُ ساعة.. تحتويني سعادة لم أشعر بها من قبل، لا توجد في أبجديات اللغة كلمات تستطيع أن تعبر عما بداخلي.

عدتُ إلى المنزل، في الصالة تأملتني أمي مندهشة، مؤكد أنها شاهدتْ هدى أخرى غير تلك التي كانت قبل ساعة. ضممتُ أمي إلى صدري بقوة، بأصبعي داعبتُ أنفها مثل طفلة، لم أدع لها فرصة الاستفسار، تركتُ الصالة ودخلتُ إلى غرفتي، أغلقتُ بابي، رفعتُ صوت جهاز الكاسيت على ملاك حبي تشدو بكلمات " ليلة حب " الرائعة التي هزت مشاعري طربًا حتى إني، بعدما استبدلتُ ثيابي، وقفت في تلك المسافة الموجودة بين السرير والمرآة المواجهة أرقص على نغمات الموسيقا أردد كلمات الحب بصوت كله فرحة وشجن: "حب العمر كله نخلصه حب الليلة دي". أحمل وسادتي الصغيرة على صدري أراقصها كحبيب، تأتي معزوفة موسيقية تحلق فيها الآلات مثل الفرشات، فكنتُ أرقص معها مثل فراشة تحلق في الفضاء.. أنظر إلى نفسي في المرآة.. يا ملائكة الحب.. ما أروعكم وأنتم تعيدون إلى الحياة مرة أخرى.. لمساتكم السحرية تبث الحياة حتى في الجماد، ولِمَ لا وأنتم تملكون مفاتيح الحب، الحب يا كريم.. الحب الذي أعادك إليَّ مرة أخرى، الحب الذي تخيلتَه في وقت ما ذنبًا اقترفناه، لا يا حبيبي.. الحب حياة.. لقد خُلقنا بالحب وللحب.

استلقيتُ على سريري مرهقة من كثرة الرقص والتحليق في الغرفة، تذكرتُ يومي الطويل وما مررتُ فيه من أحداث، كيف بدأ وإلى ماذا ينتهي.. لأنام الآن كي ينقضي الوقت المتبقي حتى لقاء كريم سريعًا، لكن كيف أنام

وأترك ذكرى حبيبي؟! لا أدري ماذا أفعل أو حتى فيما يجب أن أكونه في هذه اللحظات.. كنتُ تائهة.. تذكرت كلمات ملاك حبي وهي تتغنى: "من فرحتي.. تهت مع الفرحة.. من فرحتي لا بانام ولا باصحى".. نعم.. أنا لا أستطيع النوم ولا اليقظة، ترى ما هو الحال الثالث الذي أنا عليه الآن؟ إنه.. حال المحب الولِه، أنا أحب.. أنا أعيش.



ومخبوء في الجسد ألف روح.. لا تولد إلا بالحب.

(١٨)

والتقينا

والتقينا في مكاننا.. الجامعة تقريبًا خاوية، الإجازات قد بدأت وانفضَّ الجمع، المساحات الخضراء زادت رقعتها مع خلوها من الطلبة، الأشجار بدت رائعة وهي تُلقي أهدابها لتمس الأديم، تغريد الطير يصنع لحنا رائعًا، نسمات الهواء رقيقة مثل يد أم تتحسس رضيعها، السماء زرقاء صافية مثل صفحة محيط هادئ، الظلال متناثرة على الأرض صانعة لوحات لا نهائية.

لو لم يكن فراقنا الأخير فراقًا نهائيًا لَمّا تاقت قلوبنا بهذا القدر، لم نبتعد غير يومين وبعض يوم، لكنه كان بعادًا يُقدر بسنوات. زادنا الفراق هيامًا، وألهب قلبينا عشقًا، فما إن التقينا حتى تأمل أحدنا الآخر بشوق لو وُزِع على أهل الغرام لفاض عن طاقتهم.

في منتصف الطريق إلى مكاننا يقابلني كريم ليختصر الزمن، يتأملني.. أتذكرها في رائعتها "هذه ليلتي" تشدو: قد أطال الوقوف حين دعاني.. لِيَلُمَ

الأشواق عن أجفاني.. فادنُ مِني وخذ إليك حناني.. ثم أغمض عينيك حتى تراني".

يحتوي يدي بين راحتيه، تتورد وجنتاي، تمنيتُ لو يضمني إلى صدره بقوة، لو يحملني لنغيب عن الوجود ساعات بين أغصان الأشجار، تمنيت لو كنا في جزيرتي التي صنعتها في خيالي، وقتها فقط كان سيجدني كما أريد، "هدى" التي لم يعرفها من قبل، لم يتخيلها يومًا.. جنون العشق يخلق لدى العشاق قوى هائلة، وأنا مجنونة به.

هبطنا من فوق وسائد الهوى إلى مقاعدنا في مكان تحوطه الأشجار، يحمل إلينا العامل عصائر الجوافة المثلجة، يضم كريم راحتي بحنان وعيناه تفترسانني شوقًا، يهمس: "وحشتيني"، أتنسم عبير كلمته كي أملأ بها صدري، أدفعها بقوة حتى تستقر بين حنايا قلبي، حركتُ يديَّ لتعانقا راحته أكثر، تتداخل أصابعنا مثل ضفيرة في شعر فتاة صغيرة، أبحث في أعماقي عن كلمة أجيبه بها، كلمة تحمل آهاتي وأشواقي، لم أجد بين صفحات قاموسي تلك الكلمة، حاولتُ مرات ومرات فلم أعثر على تلك الكلمة المستحيلة، في هذه اللحظة بالذات شعرتُ برعشة تسري في جسدي، تهزني، أسفلي ينقبض بشراسة، أغمضتُ عينيَّ كأني أحبس مشاعري ثم.. ثم أقدمتُ على فعل لم أكن أنا نفسي أتوقعه.. فعل يعبر عن مكنوني، هو بديل لتلك الكلمة التي عجزتُ عن العثور عليها.

ماذا فعلت؟

نظرتُ ناحيته.. تأملتُه بشوق الدنيا، احتويتُه بنظراتي، ضممتُ طيفه إلى صدري، اقتربتُ بجسدي منه حتى اختفت المنضدة الصغيرة التي تفصل بيننا، أخرجتُ يدي من بين راحتيه لأعكس الوضع، فاحتويتُ يديه بين راحتيَّ، تأملته أكثر، تنبعث من جسدي عصارة حبي، يتنسمها في الهواء ليملأ بها صدره، بهدوء العاشقين أضم شفتي ثم أحركهما برشاقة وألقي له " قُبلة " عبر المسافة الصغيرة الفاصلة بيننا..

يا لها من لحظة.. يرتجف جسدي كله إثر صعقة العشق الأخيرة التي اجتاحتني بعد قبلتي، تأملتُه بعينين خَجلتين، لاحظتُ ذهوله، غير مصدق ما فعلتُ، أنا نفسي غير مصدقة ما فعلتَ، لكنه الحب.

يهز رأسه مستفسرًا، أجيب استفساره بتساؤل ساذج:

- ماذا تريد يا حبي؟

- ماذا فعلتِ منذ لحظة؟

- ....

صمتٌ وارتباكٌ يظهر على أطرافِ أصابعي وقلبي المرتعد في قفص صدري وعيون لا تقوى على رفع جفونها لأعلى بل تسحبها مثل ستائر تتوارى خلفها.

- ليتكِ تكررين الفعل كي أتأكد من أنني لم أكن أحلم يا حبيبتي.

أهز جسدي في مكانه، أعود بظهري إلى مسند الكرسي، أضم شفتي حتى إن تركت بصمة حمراء على ورقة بيضاء لكانت مثل خاتم زفاف، تخيلتُ

هذا الخاتم يقدمه لي كريم وأنا أرتدي ثوب زفافي الأبيض المنفوش، يرقص قلبي طربًا وشوقًا.. يفهم من اعتدالي في جلستي أني أرغب في تغيير مجرى الحديث. يعتدل كريم ملقيًا زفرة ضعيفة تنم عن استسلامه لفقد لحظة غرام من نعيم جنة العشاق.

- ماذا بعد.. يا حبي؟

يتأملني كأنه يحفر كلمات سؤالي على جدران معبدنا الذي بنيناه من لبنات الهوى. أتقبل صمته لحظات، سؤالي يحمل من المكر والدهاء الكثير، إنني أتساءل عن مصير علاقتنا.. هل تستمر أم تنتهي بعد هذا اللقاء؟ وإن استمرت، على أي شكل تكون؟ وإن انتهت.. فكيف تكون النهاية؟ كل هذا في كلمتي: ماذا بعد؟ ثم ألحقت بهما "يا حبي" وهي طوق من ذهب صِيغ من رحيق قلبي، فكيف له أن يقرر الانفصال بعد أن طوقته بـــ"يا حبي".؟ ابتسمتُ في رشاقة، يا لي من ماكرة، لكن في الحب.. في العشق.. في الغرام.. كل شيء مباح.

هنا يزفر كريم بشدة وينتفض بشكل لا إرادي محركًا يديه في الهواء وكأنه يزيح عن صدره أثقالًا، ثم يقول:

- لقد اتخذتُ قراري يا حبيبتي.. لن نفترق بعد اليوم.. سوف نعيش الحب بكل تفاصيله.. حتى.. حتى يأتي الغد بما يحمله.. وليكن ما يكون.. لِمَ نعيش العذاب الذي نجذبه إلينا بلا مبرر حقيقي؟ نعم ظروفكِ اليوم معقدةَ

للغاية.. لكن.. مَن يعلم ما يحمله الغد لنا.. حتى هذا التوقيت لا يجب أن نتعذب يا محبوبتي.

تنفستُ كأني علمتُ فجأة أن هناك هواء حولي، لكنه الآن هواء محمل بعبق الحب لا الفراق، لقد قال كريم كل ما كنتُ أود أن أقوله، قرأ ما نقشتُه على جدران معبدنا من قبل، لو صمم على سماع رأيي أولًا لقلتُ له نفس ما قاله بالحرف الواحد، بل لتوقفتُ في نفس الوقفات التي توقف عندها، تنفستُ كما تنفس، لِمَ لا ونحن روح واحدة!

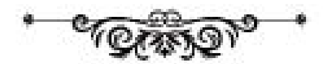
أحرك رأسي علامة الموافقة، على ملامحي يتجسد هدوء العالم في لحظات السلام الحقيقية.. وللأسف هي لحظات فقط، رعشة مختلفة تسري في جسدي، وكأن كلمة اللحظات جعلتني أفيق مما أعيشه الآن. يستشعر ذلك التوتر الذي بدأ يسري بداخلي.. يلحظ على عيني الخوف مما يحمله الغد، يقول:

- رجائي الوحيد يا حبيبتي.. ألَّا تغادري معبدنا، الذي بنيناه من لبنات غرامنا، فجأة.. يجب أن نتقابل ونتصارح ونتخذ أي قرار، مهما يكن، معًا.. وبشكل يضمن - على الأقل - راحة أحدنا..

هززتُ رأسي موافقة حابسة دمعة كادت تفارق مقلتي خشية هذا اليوم المنتظر، لكنه توجه مباشرة إليَّ بكلماته وقد اقترب وضم راحتي، فشعرتُ بسخونة تسري في جسده، يُقبل يدي بشفتين مثل جمرتين مشتعلتين، يكرر كلماته ثم يقول:

- عديني بذلك يا حبيبتي..

حملتُ يديه بهدوء وقربتهما من شفتيَّ.. لا أعلم كيف قبلتُهما.. لا أعلم كيف ارتعدت شفتاي مع رعشة أنامله، لكننا التقينا في تماسٍّ طويل يعبر عما تفيض به قلوبنا، بعد شوق الدهر وآهاته، نطقتُ بكلمة واحدة خرجت إلى الوجود همسًا مثل نغمة فريدة: " أعدك ".. تسقط دموعي لتبلل وجنتي وراحتيه، دموع عشقي، قوية مثل دفقات الحب بداخلي، بكيتُ من فرط حبي، بكيت لأنني كنت في تلك اللحظة مؤمنة تمامًا بقدرتي على الوفاء بالوعد، لم أكن أعلم أن هذا الكون يحمل في طياته ما هو أقوى بكثير من قدراتي، وإن كانت قدرات عاشقة.



ومصاب بالغرام أشقى.. قد يُقتل جراء عشقه.

(١٩)

دماء

بعد عودتي إلى منزلي ثملة عشقًا، أعيش كأني في حلم، شفتاه تقبلان راحتيَّ.. نتبادل الأدوار وألثم راحتيه، ننهل من نهر النظرات فلا تشبع أعيننا، دقات قلبينا تمتزج لتعزف كلمات الحب بيننا.

في المنزل كنتُ مثل فراشة تلهو بين الزهر، مثل نسمة هواء رشيقة تلاطف خدود العذارى، مثل روعة السماء تتناثر النجوم اللامعة على صفحتها، لا أتحرك.. بل أرقص.. لا أتكلم.. بل أغني..

صحوتُ في يومي التالي وكلي شوق ورغبة في مقابلة حبيبي.. الآن؟! لحظة واحدة صارحتُ فيها ذاتي.. عشقي في ازدياد.. غرامي في طريقه إلى أن يأخذ بي إلى مرحلة لا عودة منها.

يجب ألا أنجرف مع تيار عشقي إلى هذه الدرجة، لا بد أن أتسم بالهدوء، فإن كنتُ راغبة في يوم ما الوصول إلى نهاية هذا الطريق، لا بد إذن من التحلي

بقدر من القوة، إن كنتُ اليوم غير قادرة على الابتعاد يوم أو بعض يوم، فكيف أبتعد عنه مستقبلًا ما تبقى لي من أيام على هذه الأرض؟! لكن الهدوء الذي أنشده منبعه أمان الغد.. وفي حالة عشقنا لا أمان لغد.. فأراني دائمة اللهفة.. أي ابتعاد أشعر به فراقًا قاتلًا..

كنتُ أجلس في غرفتي أمام مرآتي.. شهقت بفزع.. أبتعد عنه؟! لا.. لن يحدث ذلك.. كيف لي أن أعيش بدون حبيبي؟! إن توقف نبض قلبي فارقتُ الحياة، وهو نبض قلبي، هو يسكنني.. في داخلي أشعر به.. يا لها من روعة تشعر بها الأنثى وهي تحمل بداخلها جزءًا ممن تعشق! نِطَافُ الحب.. ينمو بداخلها حتى يكتمل.. يخرج إلى الوجود إنسانًا جديدًا.. هل يأتي ذلك اليوم الذي أحمل فيه بين أحشائي نِطَافُ العشق يا حبيبي؟ نطاف عشقنا نحن؟! هل أحمل على صدري جزءًا منك أبثه رحيقي في حنان؟ هل أكون أمًّا لابنك يا كريم؟! لحظة أتخيل ما أفكر فيه فتغمرني سعادة ونشوة لا حدود لها.. ثم فجأة يغمرني فزع من ألَّا يأتي هذا اليوم.. تذهب ابتسامتي ويغادرني الصفاء.. كيف أفكر في مثل هذه الأمور وقد اتفقنا على ألَّا نفترق!

لا.. أنا لا أفكر في ذلك المستقبل الرهيب إن افترقنا، إنما أفكر فقط في ذاتي التي أصبحت لا تشعر بالحياة إلا في وجوده، أوبخ نفسي وأسألها بعض الاتزان.. وإن كنتُ أعلم أنه لا اتزان بين عاشقين مثلي أنا وكريم.

ما كنت أفكر فيه أخرجني من هيامي مثل انتشال سمكة ذهبية من حوض أسماك الزينة، كنتُ أنتفض مثلها، عدم الاتزان يفقدني القدرة على

التركيز.. بل يفقدني القدرة على التفكير. أشعر باختناق، حتى نسمات الهواء.. حتى المقاعد وكل قطع الأثاث.. حتى الملابس.. كل شيء يستشعر ضيقي فيستحيل جماله قبحًا. أخرج من غرفتي تقابلني أمي عابثة، أحاول تغيير الحالة والابتسام.. أقترب منها أقبلها في هدوء، ترتد إلى الخلف لتواجهني بقسوة:

- توفيق..

يعتصر داخلي مثل ليمونة، أشعر بمرارة في حلقي، أتأملها لحظة قبل أن أسألها:

- ماذا به؟

- آتٍ.. لتحديد موعد الزفاف.

شهقتُ.. عدتُ إلى الخلف خطوة وأنا أتأملها في دهشة، بلسان ثقيل أتساءل:

- ماذا؟!

- اتصل به والدك وطلب منه ذلك.

أطلقتُ صرخة مكتومة ضاع معظمها في صدري لتزلزل قلبي في مكانه، ماذا حدث ولماذا تغير الاتفاق؟ ما يزال أمامي عام دراسي كامل،تعلم أمي ما يدور بداخلي، هو بديهي، تجيب بكلمات سريعة يبدو أنها قد أعدتها من قبل، تقول:

- لا يخفى علينا.. أنا و والدكِ.. ما تمرين به خلال الفترة الماضية، شرودك المستمر.. سعادتكِ أو حزنكِ غير المبرر.. تركنا الأمر فترة لعلكِ تعودين إلى رشدك.. توقعناها نزوة.. لكن الأمر فاق الحد.. هنا كان يجب علينا أن نتخذ الخطوة المهمة التي تضع حدًّا لتلك المهزلة و..

هنا قاطعتها بشدة:

- أرجوكِ..

قلبي يئنُّ ولا يتحمل ما تقوله، قلبي يصرخ يرفض وصفها حالة حبي بأنها مهزلة، جسدي كله ينتفض فزعًا، هي أمي.. نبع الحنان.. كيف لا تشعر بوجيب قلبي؟! لم أجد ما أقوله لها في تلك اللحظات، يجب أن أرتب أفكاري وأدرس الوضع جيدًا قبل اتخاذ أي خطوة، لكن لا بد من أن يكون هناك موقف واضح.. كنتُ حائرة أشعر بعجز رهيب للمرة الأولى في حياتي، بعد صمت طال صرخت بكلمة واحدة وأنا أجري إلى غرفتي:

- مستحيل.

دخلتُ غرفتي وأغلقتُ بابها بالمفتاح، ارتميتُ فوق سريري تاركة الكون كله خلفي، أدفن رأسي في وسادتي لأغوص في ظلام لا نهائي، تخيلتُ والدي يعود من الخارج بصحبة توفيق، يجلسون جميعًا وعلى وجوههم ابتسامات زائفة تشير إلى سعادتهم الوهمية، مثل جزار يبتسم لمن حوله وهو يذبح شاة صغيرة، مثل حيوان مفترس يغلف عينيه ببراءة الكون وهو ينهش لحم غزال رقيق.

أعتدل في مكاني، ألحظ دموعي التي أغرقت وسادتي، ألحظ صوت أمي خلف الباب تتوعدني، يبدو أنها كانت تناديني منذ أن دخلت غرفتي، ولَما قابلها صمتي توعدت بهذا الشكل. كيف يفكر الآباء؟! كيف يفكر العالم حينما يريد إحلال السلام باستخدام القوة؟!

تناولت رشفة ماء من كوب على المنضدة بجوار السرير، نظرتُ إلى نفسي في المرآة طويلًا. لقد اتخذوا قرارهم بتعجيل موعد الزفاف للقضاء على حبي. سوف أعترض بأنني لن أتزوج إلا بعد الانتهاء من دراستي، أي بعد عام من الآن، وسوف يقولون إن زواجي لن يمنعني من استكمال دراستي، لي زميلات كثيرات متزوجات ويستكملن دراستهن بشكل طبيعي، الحضور يوم أو يومين في الأسبوع لن يؤثر في الحياة الزوجية، سوف يقولون: يتم الزواج في إجازة الصيف هذه ومع بداية العام الدراسي الجديد والأخير في الجامعة سوف يسافر توفيق إلى عمله في الخارج وبذلك أمارس حياتي الدراسية بشكل طبيعي، ثم أسافر معه بعد انتهاء الدراسة، سوف يقولون: إن ما سيحدث بعد عام لا ضير في حدوثه اليوم. سوف يؤكد والدي بأنه يرغب في أن يتم رسالته لأنه لا يعلم هل يعيش هذا العام أم لا.. سوف تبكي أمي معلنة رغبتها في الفرح بي.. فقد آن الأوان يا حبيبتي.. وسوف تحتضنني وتقبلني. توفيق سوف يستغل لحظة صمت قبل أن أعلن عن رأيي ويُخرج علبة صغيرة بلون الدم، يفتحها وهو يرفعها أمام عينيَّ كي أشاهد ذلك الخاتم الذهبي الثمين يعكس ضوء المصباح الذهبي، يخبرني بأن هناك

هدايا كثيرة في انتظاري، سوف يرفع قطعة جاتوه مُزينة بكريزة، من تلك التي حملها معه، وسوف أشيح بوجهي رافضة.

بالفعل يقولون ذلك وأكثر وأنا لا أجيبهم إلا بجملة واحدة:

- لا زواج إلا بعد عام.. بعد أن أنتهي من دراستي.

ينتفض والدي غضبًا، أشعر به يود لو يتحدث في أمر كريم وعلاقتي به، لكنه يكظم انفعاله، موقفه اليوم فيه إصرار وقوة لم أعهدها فيه من قبل، دائمًا ما كان يحتويني بعاطفة لم أتخيل يومًا أن يتخطاها ويتعامل معي بكل هذه القسوة، لكن ها هو يفعلها الآن، ينطلق من عينيه الشرر، يضم قبضتيه بقوة حتى إنه في لحظة ما ضرب المنضدة أمامه بقوة فاهتزت أكواب العصير الممتلئة وتأرجح كوب توفيق الخاوي.

يعلو صوت أمي فكانت مثل نافخ في نار يزيد اشتعالها، كلما زادت ثورتها زاد غضب أبي، فيزداد توفيق قوة حتى إنه عاد بظهره إلى الخلف ثقة، فقد كفاه والدايَ مغبة توتر وانفعال وبحث عن أسباب إقناع، فينتظر ليحصد النتيجة.

لكني تفوقت عليهم، لستُ مؤهلة نفسيًا للزواج الآن، وهناك اتفاق مسبق بأن يكون الزواج بعد انتهاء الدراسة.

فجأة فقدتُ الإحساس بالمكان والزمان، فقدت التمييز بين الأشخاص أمامي، شاهدتُ فيهم أناسًا لا أعرفهم، لم أتعامل مع أحدهم من قبل، ابتلعتُ عاطفتي نحوهم وتعاملت معهم مثل تعاملي مع أي غريب يبحث

عن صالحه الخاص، أبحث أنا الأخرى عن صالحي الخاص، كي لا أعطيهم قوة أكثر مما يمتلكونها الآن، لم أذكر في لحظة ما أو أُلمح ولو بكلمة واحدة لعلاقتي بكريم، وكأنه لا يوجد في حياتي، وكم كنتُ بارعة عندما أخفيتُ مشاعري، ففي لحظة ما راودتني رغبة في الإفصاح عن داخلي، أخبرهم بأنني مرتبطة عاطفيًّا بشخص آخر، قلبي ليس ملكي الآن.

عندما تسمرت قدمايَ في أرض الرفض، عندما تملكهم اليأس، أشاح والدي بوجهه علامة الاستسلام، تغادر أمي المكان بحجة أن لديها أعمالًا في المطبخ عليها أن تنهيها، أما توفيق فقد ظل صامتًا لحظات ثم يقف وصدره ينتفض غضبًا، قبل أن يخرج ناديته:

- توفيق.

يستدير بسرعة، يبدو أنه توقع أنني قد غيرتُ رأيي ووافقت، لكنه ما إن دار على عقبيه حتى شاهد يدي ممدودة نحوه بعلبة القطيفة الصغيرة دموية اللون والتي تحمل خاتمه الذهبي الذي أتي به اليوم ليشغلني ببريقه، بهدوء وثقة أقول:

- خاتمك يا توفيق.. لا أريده.

يصرخ وهو ينظر نحو والدي طالبًا منه العون:

- نعم؟!

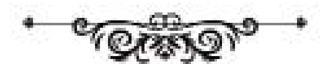
كان من البديهي أن أقبل هديته، نحن لم ننهِ العلاقة، إنما عُدنا إلى الاتفاق الأول، أما رفضي لهديته يُلقينا إلى منطقة أخرى تحمل تساؤلات كثيرة.

الحقيقة أنني رفضتُ الخاتم الجديد لأنني لم أعد أطيق قيوده الذهبية، ولستُ في حاجة إلى قيد جديد يزيد لوعتي.

يطيل النظر نحو والدي الذي بدا عليه أنه استسلم تمامًا، هو يعلم مدى عنادي، وهو بعض عناده، ورثته عنه، لما تجاهل والدي استغاثته يمدّ توفيق يده، يلتقط العلبة من يدي، يخرج مسرعًا حتى إن صوت صفق باب الشقة خلفة أحدث بداخلنا هزة عنيفة.

هربتُ من تلك الأجواء المشحونة إلى غرفتي، ابتسمتُ لنفسي في المرآة احتفالًا بانتصاري، حاولتُ الخروج إلى عالمي، إلى عشقي، عدتُ إلى أوراق كريم وأشعاره، إلى صوت ملاك حبي تشدو بكلمات الغرام أرتشف منها وأنهل حتى أثمل.

تمر ساعة وبعض الساعة حتى اسمع أمي في الخارج تصرخ بفزع رهيب، أنتفض.. لحظة حتى أستوعب الموقف، نعم هي أمي التي تصرخ، صوت أبى منهار في الخارج، مُسرعة أجرى.. أتعثر في ثيابي.. أخرج من غرفتي لأجدهما في حالة انهيار تام، من بين توترهما وحركتهما السريعة استعدادًا للخروج من الشقة ألتقط كلمات "توفيق.. حادث سيارة.. المستشفى.. الحالة حرجة".



وقد تتغير حياتك في لحظة..

وقد يضيع العمر في لحظة..

(٢٠)

الحادث

اتخاذ قرار مثل هذا لم يكن بالأمر السهل عليَّ، لكني اتخذته بناء على ما اتفقنا عليه من قبل أنا وكريم. ألم نتفق على أننا نعيش حالة الحب من أجل الحب وفقط، نعيشها حتى يأتي الغد بما يحمله لكلينا، لم نتخذ قرارًا بالارتباط برابطة الزواج المقدسة، لم نتفق يومًا على أن نكون مع بعضنا البعض حتى نهاية العمر، فقط اتفقنا على أن نعيش الحب.

عندما يأتي اتصال يؤكد تعرُّض توفيق لحادث بسيارته بعدما تركنا منفعلًا متوترًا إلى أقصى درجة، يلقي والداي باللوم عليَّ، حتى إن أمي قالت، ونحن في سيارة أبي في طريقنا إلى المستشفى، إنني السبب فيما حدث لتوفيق، ثم ضربت بيدها على صدرها وهي تعقب بأن الكارثة الكبرى لو كان توفيق قد علم بأمر.. ثم تصمت حينما يرمقها والدي بنظرة تحمل تعنيفًا ولومًا، يبدو أنهما يعلمان الكثير عن أمري، نظراتهم تؤكد ذلك.. وكأنهم سبق وأن تحدثوا

في تلك التفاصيل أكثر من مرة حتى إن أبي يتوقع ما ستتحدث به أمي ثم هو يوقفها بنظرة.

أبي يعلم ولم يناقشني في أمري من قبل ولا يود أن يتحدث فيه الآن، أحيانًا الصمت وعدم إثارة موضوع ما تكون أكثر تأثيرًا من مناقشته. كنتُ ألتزم الصمت، أنظر عبر النافذة أتابع المارة على جانب الطريق، ألحظ حركة العشاق وابتسامات الغرام، تستقر في أعماقي نظرة لوم يلقيها أحدهم تجاه آخر.

أخرجني ما أشاهده في تلك اللحظة، وكنا وقوفًا في إشارة مرور، عن دائرة التوتر التي وجدنا أنفسنا فيها فجأة، لقد شاهدتُ رجلًا يتبع فتاة متحرشًا بها، إنها في عمر أولاده، وذاك فعل شائن، نظرات الغضب والعجز تلقيها الفتاة نحو الرجل فلا يتحرك وقد تملكته شهوته فتدلت شفتاه واحمرت أذناه ونفر عضوه أسفل ثيابه بشكل مقزز، وددتُ لو هبطتُ من السيارة ولطمتُه على وجهه وأنا أصيح في المارة كي يبرحوه ضربًا، هذا الخائن الذي يخترق لحظات الأمان التي نفترض وجودها باستمرار، لو أن الفتاة نظرتْ نحوي لحظة لأخبرتها ماذا تفعل في مثل هذا الموقف، لكنها كانت تتحرك بعصبية وخجل، غير شعورها بالعجز البادي على ملامحها، انطلقت السيارة ولا أعلم إلى ماذا ينتهي أمر الفتاة والمتحرش.

وصلنا إلى المستشفى، بالفعل كانت حالة توفيق خطرة، الآن الأطباء يجرون له عملية جراحية لتركيب بعض الشرائح في الساقين وعظام الحوض، علمنا أيضًا أنه سوف يدخل إلى غرفة العناية المركزة حتى تستقر حالته، في

الغد يبدأ الأطباء رحلة أخرى للاطمئنان على حالة المخ وهل تعرض إلى ارتجاج أم لا، غير أشعة كاملة للجمجمة للتأكد مع سلامتها.

الصمت يخيم على الجميع، فقبل أن يكون توفيق خطيبي، فهو ابن عمتي، أبي يعدُّ ولي أمره، يتعامل معه كابن له. قابلنا عدد من أقاربه في المستشفى، الكل يقف يدعو له، بعضهم أراه للمرة الأولى.

في مثل هذه الأوقات التي يقتلنا فيها ملل الانتظار والجلوس بدون أي فائدة ترجى، لا نجد ما نفعله غير الصمت والشرود أو الاستفسار وطرح التساؤلات، ولما كنتُ خطيبة المصاب الذي نجتمع كلنا الآن من أجله، فكنتُ نقطة التقاء الجمع، بعضهم يصافحني محاولًا طمأنتي، وبأنه قد استفسر من الطبيب قبل دخوله غرفة العمليات وقد أقر بأن أمل النجاة كبير جدًّا، وبعضهم يتساءل في خبث: "ألم يكن عائد من عندك يا هدى؟! "، ثم يعقب بأن شهود الحادث أكدوا بأنه كان يسير بسرعة غير عادية مما تسبب في الحادث بالرغم من أن توفيق معروف عنه أنه غير متهور.

في الحقيقة هو غير متهور لا عن رغبة في أن يكون رجلًا متزنًا وقورًا، إنما هو غير متهور نتيجة بلادة وبطء بديهة. لم أفصح عن مشاعري، ولكني ارتبكتُ أكثر، إن كان بليدًا كما أقول فذاك يعني أنني إن تزوجتُ به سوف أعيش حياة جدباء. أهز رأسي بعنف.. لا مجال لمثل هذه الأفكار الآن.

تعتقد فتاة من الحضور، تكبرني بأعوام، أنني أهز رأسي من فرط حزني فتضمني إلى صدرها وتربت على ظهري، من بين ذراعيها ألحظ نظرات أمي

نحوي، نظرات قاسية لم أشهدها من قبل، لكن الأمور تتغير، أشياء كثيرة تكشفت لي مؤخرًا.

يخرج الأطباء وخلفهم طاقم التمريض يدفعون توفيق على الترولي، يتحرك الجمع المنتظر ليحلق حول ذلك السرير المتحرك بغية رؤية توفيق ومحادثته إن أمكن، إلا أنا.. لم تستطع قدمايَ حملي، معظمهم يشغلهم حال توفيق ولم يهتم ببقائي في مكاني، إلا أمي التي تقترب من توفيق لكنها تلقى نحوي نظرة خاطفة حمَّلتها الكثير من اللوم الذي شاهدتُ فيه مقت وتوعد، لم أجد بداخلي ما أجيبها به، خاصة أن الممرضات يدفعون السرير ويمنعونهم من الاقتراب من المريض، فيرتد والدي خطوة إلى الخلف كي يُفسح لهم الطريق وفي نفس اللحظة يبحث عن الطبيب كي يطمئن منه على مجريات الأمور، يواجهني بنفس النظرة التي قذفتها أمي نحوي منذ لحظات، لكنه زاد عليها تحميلي مسئولية ما يحدث.

وضعتُ وجهي بين راحتيَّ وفجأة يتفجر ذلك البركان الخامد بداخلي، كنتُ أبكي منتفضة، أبكي بصوت مسموع، كنتُ أبكي ضعفي، أبكي طلبًا للغفران على ذنب لم أرتكبه، أبكي وليد حبي الموضوع على مقصلة الإعدام يقتصون منه بلا ذنب، أبكي نظراتهم التي توحي بأنهم لم ولن يفهموا ما أعانيه.

يختفي السرير المتحرك بما يحمله، تعود الأجساد بين باكية وشاردة، يجدونني على هذه الحال، يقترب مني مَن يواسيني بمختلف العبارات. تأملتُهم جميعًا بعينين ملتهبتين غارقة في الدموع، شاهدتُهم عبر سحابة الدمع أشباح تحلق

حولي بغية القضاء علي، ارتبكت وزاد بكائي، بعد لحظات تنسمتُ أنفاس أمي فرنوت نحوها لأجدها تجلس في مواجهتي صامتة لكن نظراتها اختلفت بعض الشيء، يبدو أنها فسرت دموعي على أنها شعور بالذنب وارتاحت لهذا التفسير الذي يُعد بداية تراجع عن موقفي.

يعود أبي وقد هدأت ملامحه بعض الشيء وتوقفت رعشة أصابعه، يبدو أن الطبيب أخبره بما يُطمئنه، تحلقوا حوله يستفسرون، تبدل انتباههم وتبدل انتباهي أنا الأخرى، كنتُ أريد معرفة ما آل إليه حال توفيق، أنصت وأدعو ربي أن ينقذه ويخرج من ذلك الحادث كما كان وأفضل، ففي نجاته نجاتي، فقد تخيلتُ نفسي أقود سيارة بسرعة جنونية وأصدم شابًا يعبر الطريق، إن مات الشاب تحولتُ في لحظة إلى قاتلة وإن نجا نجوتُ..

عبارات هادئة ينطق بها والدي تنشر الطمأنينة في قلوبهم جميعًا، إصابات بالغة لكنها سوف تزول مع الوقت والعلاج الطبيعي، أما عن تفاصيل الأشعة المنتظرة غد أو بعد غد على المخ وباقي أجزاء الجسد، فهي ستكون كنوع من الاطمئنان، حالته الحالية لا تُنبئ عن شيء خطير. تنفستُ الصعداء.. سوف ينجو..

لكن لحظة..

أستوقفُ ذاتي عن الاسترسال في بحر أفكارها الهائج، إن كانوا قد قذفوا بنيرانهم نحوي في اتهام صريح بأني مذنبة فهذا شأنهم، أنا لستُ مذنبة وليس لي في الأمر شيء، فكيف يا ذاتي تتفاعلين مع هذا الاتهام الرهيب وتنتظرين

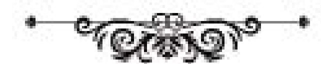
نجاته؟! ليكن انتظار نجاته لأنه إنسان في محنة صعبة.. لأنه أحد أفراد عائلتي.. لأن بيننا علاقة أسرية تطورت بعض الشيء إلى مشروع زواج.. لأنه حمل نحوي مشاعر ما يجب أن تُحترم. هذا كل شيء، ولن ينال بهذا الحادث جزءًا من ذاتي.. وهم لن ينالوا جزءًا مَن تنازلٍ عن موقفي.. نظراتهم تؤكد أن عليَّ موافقة كل ما ينطقون به بعد الآن.. وهذا لن يكون.

يبدو أن داخلي شعر بشيء من الراحة حينما توصلتُ إلى هذا التفسير الأخير، اعتدلتُ في مكاني ورفعت رأسي في مواجهتهم و أنا أمسح دموعي بمنديل ورقي. لكنني آثرتُ الصمت في انتظارهم.. أي كلمة أتحدث بها الآن قد يتم تفسيرها بصورة مغايرة لحقيقتها. لو طلب أحدهم الرحيل.. يتقبلون.. إن طلبتُ أنا الرحيل سوف يتم اتهامي مرة أخرى بأنني لا أمتلك مجرد الصبر حتى الاطمئنان. طبيعي أن يتناول أحدهم الطعام أو يحتسي القهوة، أما إن طلبتُ بعض الشاي أو حتى الماء امتعضوا! لذا جلستُ صامتة وعلى وجهي تعبيرات محايدة.

دقائق تمر بطيئة حتى يهمس أبى في أذن أمي وهو ينظر نحوي. تقف أمي حاملة حقيبتها الصغيرة، بطرف عينها تلقي نظرة خاطفة نحوي أنْ هيا.. وقفتُ.. شعرتُ بساقي تخذلانني.. ترنحتُ لحظة قبل أن أعود لأجلس مكاني فَزِعَة.. يشهق بعضهم فتجري أمي لتلحق بي قبل السقوط، أطمئنها بأن لا شيء.. تأثير التعب فقط.. أتعلق في ذراعها، أتحرك ببطء مثل مريضة.. عدة خطوات حتى تعود حركتي إلى طبيعتها. نترك المستشفى.. نستقل سيارة أجرة.. والدي سوف يبقى بعض الوقت إلى جوار توفيق.

في الطريق لم نتبادل كلمة واحدة، لا شيء يُقال الآن.. لكن ما إن دلفنا من باب الشقة حتى ينطلق بركان أمي، وهي تتحلل من ملابسها تشير نحوي بأصابع الاتهام.. الشيء الرهيب أنها اتهمتني بأنني لستُ على قدر المسئولية التي منحوها لي. بشكل أكثر وضوحًا.. اتهمتني أمي بالخيانة.

في هذه اللحظة لا أعرف ماذا حدث.. دارت الدنيا من حولي.. جُدر الصالة كانت تدور بسرعة في أكثر من اتجاه، وكأنني في قلب كرة ضخمة تتحرك بسرعة رهيبة، وأنا لا أجد بداخلي قوة أحافظ بها على توازني، فجأة يحلُّ الظلام وأسقط أرضًا.



وأنت قدري يا حبيبي.

(٢١)

العودة

في الأسبوع التالي للحادث ينقطع الاتصال بيني وبين كريم بشكل تام، لكن قلبي لم ينقطع لحظة واحدة عن مناجاته.. ففي الأزمات يتزايد الشوق والحنين.

حينما سقطتُ في إغماءة بعد ذلك الاتهام البشع الذي اتهمتني به أمي، قالت لي بعدها، إنها صرخت وهي تُسرع كي تتلقفني قبل السقوط على الأرض، لكنها لم تنجح في ذلك، وصلتْ متأخرة جزءًا من الثانية، رفعتني من فوق الأرض وأجلستني على المقعد المجاور، حملت الماء من دورق على المنضدة القريبة، بللت يدها ومسحت بها وجهي مرة ومرات حتى تحركت جفوني تنبئ عن عودة الوعي.

الدقائق التالية.. الساعات التالية.. بل الأيام التالية.. كنتُ ألتزم فيها الصمت التام، لا أتبادل الحديث مع والديَّ على الإطلاق، مجرد حركات

بالرفض أو بالموافقة عند أي حديث. أفضل ما فعلوه أنهم احترموا صمتي، استغلوا تلك الإغماءة لتبرير غيابي، وقالوا للجميع إنني سقطتُ من أثر الصدمة وألزم الفراش، يخرجان.. يعودان وأنا في غرفتي، ملتصقة بسريري. في اليوم الثالث وقد خرجت أمي بصحبة أبي لزيارة توفيق، فلم ترافقه في اليوم الثاني، أستغل الفرصة وأتصل بـ "منى" تليفونيًا، أخبرها بما حدث، لا أجد الوقت لأستمع إلى شهقاتها وتعليقاتها المواسية، طلبتُ منها بكلمات صريحة مباشرة أن تتصل بكريم وتخبره بما حدث، وأن تطلب منه ألّا يتصل بي، وحينما تسمح ظروفي سوف أتصل أنا به.

الآن وقد مَرَّ أسبوع كامل لم نتبادل كلمة واحدة أنا وحبيبي.. وكنتُ بهذه الحالة أكثر احتياجًا لوجوده بجواري، أتقوى به، كلمة خيانة وإن كانت خيانة الثقة.. وإن كانت كلمة قيلت في لحظة غضب.. وإن كانت غير حقيقية.. لكنها تبقى كلمة "خيانة".. آه.. ما أبشعها من كلمة!

في هذا اليوم الأخير من هذا الأسبوع الذي لا يريد أن ينقضي تأتي "منى" لزيارتي، تجلس إلى جواري.. فوق سريري، لم أخرج من حجرتي كي أجلس معها في الصالون، لأنني لا أريد مغادرة صومعتي التي تشهد لحظات انهياري، ولأنني أريد أن أضمن لحديثنا سرية وحرية أكبر.

أول كلمات ينطق بها لساني منذ أيام سألتها عن كريم، وهل اتصل بها ليطمئن؟ وكيف هو الآن؟ هل يتألم الفراق؟ هل يسهر الليل يتلقى رسائل عشقي التي أرسلها له عبر الموجات الكونية؟ هل.. هل.. ثم بكيتُ ودفنتُ وجهي في صدرها.

طال بكائي وطال همسها في أذني بأن أتماسك.. حتى تنهار هي الأخرى وتبكي.. تبكي لبكائي.. تبكي على حالي، تذكرتُ (وشعرتُ أنها هي أيضًا تذكرتْ) لحظات الصفاء.. ضحكاتنا.. الدراسة في هدوء.. مرور الأيام بلا توتر أو انفعال.. لكنها لم ولن تتذكر لحظات حبي.. عشقي التي أتألم لفَقْدها، تألُّمَ فَقْدِ الجسد الروح.

بعدما هدأتْ نوبة البكاء التي احتوتنا قالت "منى" بحروف هامسة متألمة:

- إهدئي يا حبيبتي حتى أخبرك بما لديَّ.

في لحظة واحدة ارتسمت على ملامحي السعادة.. "منى" تحمل أخبارًا.. لديها ما تقوله بشأن روحي.. بشأن كريم.. تحدثي يا "منى".. أخبريني يا حبيبتي بما لديكِ.. هأنا صامتة وفي انتظارك.. هيا.. هيا يا "منى"، أتعلق بيديها أهزها مثل طفلة صغيرة تتعلق بيد أمها وتلح في طلبها.. حتى إن بعض الكلمات تخرج مني كما الطفلة.. تبتسم من كلماتي وتسرع وهي تقول:

- للمرة الأولى التي أتحدث معكِ فيها في هذا الشأن يا هدى.. اسمعيني حتى أنتهي ولا تقاطعيني.

تأملتُها.. ألفيتُ على وجهها جدية لم أعهدها عليها من قبل.. يبدو أنها بذلت مجهودًا في إعداد ما ستقوله، ويبدو أن ما ستقوله شيء عظيم ليتناسب مع هذه الصرامة، يخفق قلبي بشدة، يسقط من بين أضلعي، هل تحمل خبر

سيئًا عن كريم؟! يا لشقائي! تحدثي يا "منى".. أخبريني بما تحملينه لكن رجاء رفقًا بي.. لم أعد أتحمل صدمات أخرى.

تتحدث منى في البداية عن حياتنا الهادئة حينما كنا في عالمنا الخاص، ثم تنتقل إلى ما لاحظه الزملاء بيني وبين كريم، لكن "منى" نفسها كذبتهم ونهرتهم أكثر من مرة، بل تصدت لهم بضراوة نمرة تدافع عن صغارها، أما مع الوقت وما لاحظته عليَّ من تغير أكد لها صدق ما يقال حتى كان اليوم الذي تركتها فيه وصرحتُ لها بأني ذاهبة لمقابلة كريم، تأكدت هي بشكل كامل، عادت إلى منزلها منهارة.. تؤكد لي أن انهيارها كان سببه ما ينتظرني من مشكلات كبيرة هي تشفق عليَّ منها..

"منى" لا ترفض حالة عشقي وإنما تخشى عاقبة الأمور.

في هذه اللحظة تنفستُ بهدوء وعاد قلبي الكسير ليستقر في مكانه.. تُكمل حديثها قائلة:

- لكن ما حدث بعد ذلك.. أقصد الحادث الذي أصيب فيه توفيق وهو أمر عظيم يا هدى، جعلني أعيد التفكير في الأمر.. وزاد تفكيري حينما تحدثتُ إلى كريم لأخبره بألَّا يتصل بكِ، لم أكتفِ بمهاتفته تليفونيًّا إنما طلبتُ مقابلته..

- قابلتي كريم يا منى؟!

- نعم يا هدى.. كان لا بد أن أتحدث معه في التفاصيل كافة كي تكتمل الصورة بالنسبة لي وبالنسبة لما عزمتُ عليه.

كنتُ أتخيلها جالسة أمامه تتأمله.. نظرتُ إلى عينيها اللتين تأملتا حبيبي منذ أيام أبحث عن انعكاس صورته عليها، هززتُ رأسي علامة أنْ تُكمل.. تقول:

- كان يجب أن أستمع إلى كريم.. إن لم يكن أهل لمرحلة صعبة جدًّا في انتظاركما.. فليرحل.

- ماذا يا "منى"؟! فليرحل؟! لا.. أرجوكِ يا "منى" لا داعي لاستخدام هذه الكلمة.. ماذا قال لكِ؟ أخبريني يا منى؟

- الحقيقة أني كنتُ أخشى أن تكون مجرد تجربة كمثلها من التجارب بين شباب الجامعة، لكني لاحظتُ أنه يمتلك قلب مصنوع من خلاياكِ يا هدى.. إنه يذوب عشقًا ويتمسك بكِ لأقصى درجة.

كنتُ أستمع إلى كلماتها التي تحمل ما أعلمه مسبقًا، لكنها كانت، فيما يبدو، تحمل طعماً ورائحة جديدين، فكان لها تأثيرها الجديد.. تقول:

- أعلم صدق مشاعرك يا هدى.. أعلم أنكِ لستِ تلك الفتاة اللعوب.. أعلم لأني أحفظكِ يا حبيبتي.

ارتميتُ على "منى" أقبلها.. احتضنتها بشدة.. إنها توأمتي.. إنها تشعر بقلبي.. تُكمل قائلة:

- ما بينكِ وبين كريم هو حب حقيقي.. حب ينبع من قلبين يدركان معنى وقيمة المشاعر.. يدركان أن الحب هبة تأتي مرة.. وما تغيرت حياتنا..

وما هبط علينا كريم إلا لقدر مكتوب.. قدركما معًا يا هدى.. لذا أنا هنا اليوم.

حتى تلك اللحظة ورغم كل ما قالته "منى" كنتُ أترقب حكمها النهائي، أترقب مرعوبة.. أنا أنتظر شخصًا واحدًا فقط في هذا العالم يدعمني في قراري.. هيا يا "منى" أخبريني بحكمك النهائي.. أرجوكِ.

- أنا هنا لأقف معكِ يا حبيبتي.. يجب أن تصمدي ولابد أن تنتصري.. لن تستقيم حياتك مع توفيق.. خُلقتي لكريم.. وخُلق لكِ كريم.

يا لفرحتي وسعادتي..

أتعلمون.. وقفتُ فوق السرير.. أقفز.. وأصفق بيدي تحية تقدير لـ "منى".. حتى إنها تمد يدها وتجذبني في رفق وهي تنظر نحو باب الغرفة، جذبتني في رفق كيلا تفسد فرحتي.. أجلستني بهدوء مثل أم ترفق بطفلها.. أتت كي أتقوى بها.. احتضنتُها مرة أخرى.. نظرتُ نحوها في حب.. وكيف لا وهي تحدثني منذ أتت عن حبيبي.. تحدثني عن حبي.. عن عشقي.. وتُنهي بأنها إلى جواري حتى أحقق ما أريد.. بعد لحظات يعود الهدوء إلى قلبي المتفض عشقًا وسعادة.. نعم.. لقد سعدتُ بما قالته.. لكن لم أفهم ما ترمي إليه بعد.. أنا وكريم اتفقنا على أن نحب من أجل الحب، ننتظر ما يحمله الغد حتى تنتهي الدراسة.. لا توجد لدينا أي خطوة محددة سلفًا يجب أن نخطوها. نظرتُ إلى عيني "منى" أستنطقهما بما تخبئه عني.. تبتسم ابتسامتها الودود، تقول:

- حبيبتي.. لا حب بينك وبين توفيق..

أهز رأسي في هدوء علامة الموافقة وتُكمل هي:

- إذن لا بد أن يكون هناك قرار صريح بالانفصال من اليوم، لا داعي أبدًا للانتظار حتى الانتهاء من الدراسة، أراكِ يا هدى قد أخطأتِ حينما تعترضين على الزواج الآن بحجة أن هناك موعدًا محددًا منذ سنوات.. من الأفضل للجميع أن ما سيحدث مستقبلًا يجب أن يحدث اليوم.. وتوفيق من أول المستفيدين بقرار مثل هذا.. يجب أن يعلم الآن ليبدأ التحرك في اتجاه آخر في حياته.. ما دام يمتلك مقومات الزواج الآن فليبحث عن فتاة أخرى تناسبه.. ويتركنا في حالنا.

قالت الكلمة الأخيرة ثم ضحكتْ.. تأملتها.. ثم ضحكتُ أنا أيضًا.. بالفعل.. الأمر سهل.. لا حب إذًا لا زواج.. تلك هي المعادلة، لمَ نضع الأمر في مكانة رهيبة بهذا الشكل؟! لكني تذكرت حال توفيق الآن.. نظرتُ نحو "منى" التي فهمت مغزى نظراتي فقالت:

- بالطبع لن يحدث هذا اليوم.. أو هذه الأيام.. ننتظر حتى يُشفى.. حتى يعود إلى حياته الطبيعية.. وحينما يتحدثون في أمر الزواج.. نبدأ نحن هذه الخطوة.

- وكريم؟

سألتها وكنتُ أقصد: كيف سنلتقي أنا وكريم.. كنا نلتقي كي نحب.. الآن هل سنلتقي كي نرتب مستقبلنا معًا حتى النهاية السرمدية.. فإن كنا معًا في هذه الحياة الأرضية فسوف نكون معًا في حياتنا الثانية.. يبدو أني أهذي من فرط فرحتي.. قالت "منى":

- اصبري حتى تستقيم الأمور وتهدأ ثورة والديكِ.. ولا تنسي أننا بعد أيام سوف نخرج في تدريب صيفي، وسوف تلتقين كريمًا.

قبلتني ورحلت.. ودَّعتها عند الباب بقبلات حارة، عدتُ إلى حجرتي وأغلقت بابي وأنا أفكر في كل كلمة قالتها.. أفكر في قدرنا.. أعود بذاكرتي أدرس كل التفاصيل منذ أن تعرفتُ إلى كريم.. نعم هو قدري وأنا قدره.. حتى يوم رحلتنا الأولى تصاب والدة "منى" بوعكة تمنعها من المجيء حتى يجالسني كريم وتبدأ قصتنا، ولو لم تمرض والدة "منى" وأتت هي وجالستني ما تقربتُ من كريم وما بدأنا..

كل التفاصيل كانت مرسومة ونحن فقط نتحرك خلالها.. آه أيها الحب! آه لـحُكمك ولـحِكمتك! أبحث عن ملاكي.. عن صوتها يشجيني.. عن كلماتها بلسم روحي، تشدو في رقة بالغة تقول: "حكم علينا الهوى.. نعشق سوا وندوب.. صدق اللي قال.. الهوى فوق الجبين مكتوب.. قالوا المحبة قدر.. أنا قولت جمعنا.."

قرار نهائي يا كريم، أنت لي وأنا لك.. ليس برغبتك أو برغبتي.. إنما هو قرار قدري.. قدري أنت يا حبيبي.. وذهبتُ خلف أحلامي باسمة.

في الصباح استيقظتُ على وضع جديد، نشطة، ترافقني ابتسامة أحلامي، حتى تأتي أمي تطلب أن أرافقها بعد قليل لزيارة توفيق في المستشفى، فقد طلب رؤيتي لأمر مهم.

***

وهناك مَن يستجدي العطف باسم الحب!

(٢٢)

أنين

يخرج توفيق من العناية المركزة منذ أيام، تستقر حالته، يتماثل للشفاء بشكل كبير. أخبروه بما أصابني يوم الحادث وملازمتي للفراش.

ذهبتُ برفقة أمي إلى حجرته في المستشفى، بعدما أوصلنا والدي ثم انصرف لبعض شئونه، خلال الطريق.. بل خلال الأيام الماضية لم يتحدث معي والدي إلا بكلمات معدودة يطمئن على صحتي، لم يناقشني في أي شيء، وإن كنتُ أشعر بنظراته تحمل الكثير من العتاب واللوم، يبدو أنه ينتظر الوقت المناسب كي يتحدث فيما يرغب، والوقت المناسب على ما أعتقد سيكون يوم تماثُل توفيق للشفاء بشكل كبير.

موافقتي على زيارة توفيق كانت بالنسبة لي مجرد زيارة عائلية.. أحد أقاربي أصيب في حادث ويجب أن أعوده، أما الشق الثاني من موافقتي على زيارته..

هو أن أنقل له أنني ما زلتُ مُصرَّة على موقفي ولم أتغير، أثق أن ما وصله من خبري يتنافى مع حقيقة الأمر.

دلفتْ أمي إلى غرفته وأنا خلفها مثل ذبيحة تقترب من جزارها، تشير أمي وهي مبتسمة ابتسامة عريضة وتقدمني كأنني على خشبة المسرح قائلة في شكل استعراضي " مفاجأة.. هدى".. يبادلها توفيق الضحكات، من بين الضمادات الكثيرة المنتشرة على جسده.. يمد يديه بصعوبة مظهرًا تألمًا يتغاضى عنه كأنه في انتظار أن أرتمي في أحضانه..

ماذا يفعلون؟!

يتبقى فقط أن أرتدي زيَّ المهرج ثم يأتون بالعاملين في المشفى ليقوموا بدور جمهور التصفيق ويكتمل المشهد المسرحي.. لا.. لن أرتدي زيَّ المهرج ولن أشارك في العرض، تجهمتُ وأنا أنظر نحو أمي نظرة عتاب، حاولتُ إظهار رغبتي في رسم ابتسامة.. لم أظهر ابتسامة كاملة.. تعمدتُ أن تكون مبتورة، أن تكون ظاهرة على وجهي قهرًا، اقتربتُ من توفيق وأنا أقول بهدوء وحياد:

- سلامتك يا توفيق.. إن شاء الله تكون أحسن.

ثم لَزمتُ الصمت وأنا أجلس فوق مقعد جانبي، تحاول أمي تخفيف حدتي بأَن تسأله عن الأطباء والمتابعة والتمريض ونوعية الطعام المقدم في المستشفى و.. و.. والغريب أن توفيقًا قد غرق معها في الحديث حتى إنه أثنى على بعض الأطعمة التي يقدمها المستشفى، بينما أظهر استياءه من البعض

الآخر، لقد انفعل حينما وصل إلى عبارة أنه يدفع الكثير من المال في هذا المستشفى، ويجب أن يحصل على كل ما يريد.

لم أستمع إلى معظم حديثهما، بداخلي صراع مرير بين ما يرغبون إجباري عليه وبين ما يجب أن أتمسك به وأعلنه، لكن.. هل أعلنه الآن حتى يكفوا عن استخفافهم بي، أم أنتظر؟! أعتقد أنني يجب أن ألزم الصمت حتى تتبدل الأحوال، أطبقتُ على فمي أكثر وأنا أحصى عدد أصابعي للمرة المائة في هذا اللقاء.

بعد فترة ينتهي كل ما يمكنهما أن يتطرقا إليه من أحاديث.. بحركة واحدة ينظران نحوي، وكأنهما يقولان:" ثم ماذا يا هدى؟" دفة الأمور في يدي على ما يبدو، لكني قررتُ الصمت والانتظار.. توفيق كان له رأي آخر، يبتسم وهو يتألم أيضًا، لا أعلم لِمَ أشعر بأنه يتصنع التألم، يشير نحوي بأن أقترب، وقفتُ من فوق مقعدي ببطء الخائف المتوتر، فوجئت به يشير ناحية مقعدي، بما يعني أن أجذبه معي كي أجلس إلى جواره، يبدو أنه يرغب في حديث طويل، ستكون قمة المأساة لو بدأ حديث غرام.. هززتُ رأسي علامة رفضي أنْ أجذب مقعدي، وأجبته بأنني أرغب في الوقوف.. اقتربتُ وأنا أتأمله لحظة وأمي لحظات.

أسوأ ما كنتُ أعانيه، في تلك المرحلة، انفصال والديَّ عن رغبتي، هما سندي الأول في هذه الدنيا، اتخاذهما جبهة مضادة لجبهتي يصيبني بضعف وألم شديدين، آه لو كانا على نفس دين حبي.. لو آمنا برسالة الكون الأولى..

رسالة الحب.. ما كنتُ وصلتُ لما أنا فيه من آلام وانهيار.. نظرات أمي باستمرار تحملني مسئولية ما يحدث، وتؤكد أن الخلاص في يدي، تؤكد أنها لن تتنازل عن تحريكي كيف تشاء إلى الطريق التي رسمها لي من سنوات ولن أحيد عنها، أي نظرة استعطاف أو رجاء من ناحيتي تقابلها أمي بقوة مدمرة لها في منتصف الطريق لترتد إليَّ نظراتي، أكتوي بلهيب حرارتها.

توقفت على مسافة خطوتين من توفيق كي أجبره على ألا يهمس بأي كلمة يعتقد أن القرب منه سيجعلها محجوبة عن أمي، لم أترك له فرصة طلب الاقتراب أكثر، سألتُه بكلمة واحدة: "خيرًا؟" تظهر على ملامحه بالإضافة إلى الضمادات الطبية دهشة لم أهتم بها، كررتُ سؤالي بنبرة حازمة، في عقلي تقتلني جملة أود النطق بها، لكني قتلتها.. لعلكم تتساءلون: أي جملة؟ سوف أهمس إليكم بها، كنتُ أود أن أقول بنبرة ساخرة: " إخلص يا عمنا وبلاش السهوكة دي.."، ولمّا وجد تصميمًا عليَّ جعل الأمور تسير في إطار الجدية والطابع الرسمي، يبتسم ابتسامة مرتبكة ويقول:

- استعدى يا عروستي.. عشرة أيام تقريبًا وأخرج من هنا.. وبعدها بعشرٍ يكون الزواج.

يا لمصيبتي! يا لشقائي! من أي صلصال صُنعَ بعض البشر؟! لم أجد ما أجيب به، الإجابة المنطقية في مثل هذه اللحظات ستكون رهيبة وكوميدية ولن أخبركم بما جال في خاطري في تلك اللحظة..

لا.. لا.. سأخبركم بأولها ولكم تخيل ما يتبقى منها، حينما قال جملته الغريب أنه يصدق نفسه ويلقيها في سعادة، كدتُ أرسم على ملامحي علامات الدهشة ثم أرفع راحتي في الفضاء بيننا وأنا أقول له:

- "نــعــــــــــــــــــم يا..............................".

أكمل الناقص ولك جائزة عبارة عن "دعاء" من صريعة عشق ظُلِمت من أقرب الناس حولها، واعلم أن دعوة المظلوم مُجابة.

أغلقت فمي وأطبقتُ على لساني، ولم أستمع إلى كلمة مما يتحدث به توفيق، حتى إني عدتُ إلى مقعدي في جانب الحجرة، لكن قبل أن أجلس تطرأ على بالي فكرة.. التفتُّ إلى والدتي قائلة:

- سوف أذهب إلى الحمام ثم أبحث عن كافتيريا المستشفى لأحتسي فنجان قهوة دوبل..

لم أنتظر ردها.. ولم أهتم بدهشتها هي وتوفيق.. تركتهما وخرجت لأتنفس تحت دعوى ممارسة حقوقي الطبيعية، لم أبحث عن الحمامات.. بحثتُ عن الكافتيريا وطلبت القهوة.. انتظرتها على منضدة جانبية وأنا شاردة فيما نطق به توفيق منذ لحظات، إنه يمتلك إيمانًا رهيبًا بزواجنا خلال الفترة القليلة القادمة، وكأنه قد صنع هذا الحادث في هذا التوقيت بالذات كي يستغله كما يستغله الآن! تسرب الشك إلى قلبي بهذا الشكل الغريب، ولكني مططتُ شفتي وأنا أقول لنفسي :" لا تستبعدي ذلك يا هدى"..!

يأتي عامل بالقهوة، أعود من أفكاري على صوت طبق الفنجان على رخام المنضدة، ولا أعلم كيف حدثت الخطوة التالية من هذا العامل.. أهي مصادفة قدرية أم أنه يمتلك القدرة على قراءة الأرواح، لقد ابتعد إلى جانب وأعمل يديه في أحد الأجهزة التي لم تظهر لي لأنه كان يحجبها عني بجسده، وفي لحظة ينساب صوت ملهمتي وملاكي تشدو باكية الحب والفقد: "آه يا حبيبي.. حياتي بعدك مستحيلة.. آه يا حبيبي.. دي الحياة أيام قليلة..".

نعم يا ملهمتي.. حياتي من بعده مستحيلة.. نعم يا ملاكي أيامنا قليلة، ويجب ألَّا نتركها تمر من بين أيدينا هكذا.. حقًّا نستطيع خلق الدنيا الجميلة، هذه مرحلتي يا حبيبي والدفة في يدي أنا، ولن أتركها لهم يحركون سفينتي كيفما شاؤوا.

لن أنسى النظرات النارية التي رمتني بها أمي وهي تدلف من باب الكافتيريا، تقف لحظة قبل أن تشير بعلامة الرحيل، كنا سنرحل وحدنا في سيارة أجرة، أبي سوف يتأخر بعض الوقت في عمله ثم يمر على توفيق.. لذا لم تتحدث أمي بغير كلمات قليلة أمام المستشفى، لكني قاطعتُ سيلها بإشارتي إلى سيارة أجرة، قفزتُ إلى داخلها برشاقة هارب وأنا أعطي سائقها العنوان، ألحظ أمي تعض شفتيها بغيظ وهي تدلف إلى السيارة صامتة صاغرة، بداخلي ابتسمتُ كأني حققتُ انتصارًا بوقف حديثها.. انتصرتُ لأني أتيتُ بالسيارة وأعطيت السائق العنوان.. أنا أتحدث.. أنا أقود سفينتي.. ترى.. هل أستطيع الاستمرار؟!

في المنزل تعترض أمي طريقي إلى حجرتي، كانت تتنفس بصعوبة وكأنها تعاني صراعًا داخليًا رهيبًا، أيضًا يديها تتحركان في الهواء بعصبية.. تقول:

- إلى أين؟! يجب أن نتحدث.. هلَّا أخبرتيني ماذا تفعلين؟! هل ترغبين في قتلي أنا وأبيكِ؟ ما تفعلينه سوف يصيبنا بالسكتة القلبية.. أبوك ضغطه مرتفع إلى أقصى درجة منذ أن علم ماذا تفعلين في الخارج من خلف ظهرينا..

في البداية استمعتُ لها على أساس أن بداخلها كلمات غاضبة تود لو تُخرجها تعليقًا على تعاملي الجاف مع توفيق، لكنها الآن تتهمني بجريمة قتل جماعية أقتل فيها والديَّ وتوفيقًا.. وبالمرة تحملني جُرم قتلى الحروب الأهلية في الصومال. ثم تعود إلى الجريمة الكبرى وتقول: "..... في الخارج من خلف ظهرينا".. تأكدت ظنونها بأنني أفعل أمر ما..

في أوقات ما يكون الصمت أبلغ من الحديث، وهذا الصمت نفسه في أحيان أخرى يسمى ضعفًا أو جبنًا.. لكن صمتي الآن لا أجد له تفسيرًا غير الحفاظ على ما أمتلك .. كل ما سأتحدث به سوف يؤخذ ضدي مستقبلاً ولا يحق لي الاستعانة بمحامٍ، إنها قوة الإجبار.. قبل أن تكون قوة رابطة الدم بين الوالدين والأبناء.

حاولتُ أن أمر من جوارها لأدخل غرفتي، لكنها تحركت لتقطع عليَّ طريقي مرة أخرى، وما زالتْ تتحدث بنفس الانفعال:

- إلى أين؟! لن أتركِكِ يا هدى قبل أن نحدد موعد الزواج.. والآن قبل وصول أبيكِ.. لستُ على استعداد لأتركه يتناقش وينفعل.. سوف يعلم من

توفيق ما حدث في المستشفى.. سيأتي غاضبًا.. لا بد أن أقابله بموعد الزواج وأخبره أن كل شيء سيتم وفقًا لرغبته.

لا.. لن أخبركما عن كمّ الغضب الذي نما بداخلي حتى تغيرت ملامحي إلى شيء رهيب وأنا أصرخ:

- لن أحدد أي موعد.. وأي شيء في هذا الأمر خاصةً يتم وفقًا لرغبتي أنا.. أنا فقط يا أمي وليس أحدًا آخر.. ولا تحملاني فوق طاقتي.. لا أعلم لماذا تجبرانني على أمر أرفضه.. بأي قلب تعيشان.. بأي عقل تفكران!

ثم شهقتُ بأقصى ما يكون الشهيق، وزفرت بأقصى ما يكون الزفير، ثم بكيتُ كما لم أبكِ من قبل، جسدي ينتفض في مكانه مثل حمامة قد تفارق الحياة بعد قليل. تحتضنني أمي وهي تربت على ظهري بحنين أم أعرفه جيدًا.. جاءت كلماتها الباكية تقول:

- هدى.. حبيبتي.. نحن ما نسعى إلا لتحقيق صالحكِ.. نبحث عن سعادتكِ..

أُبعد رأسي للخلف.. تتأملني وهي تكمل متسائلة:

- هل عندكِ شكٌّ في ذلك؟!

لا يتحرك لساني لإجابتها وأنا أبكي بهذا الشكل، ابتلعتُ إجابتي في جوفي، لأنها إجابة صادمة، هل أخبرها بأنني فتاة ناضجة تعي مصلحتها وتعلم أين سعادتها ولستُ في حاجة إلى من يحركها مثل دُمية!

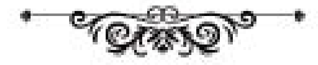
أنهيتُ الموقف بأن أخذتها في حضني وربتُّ على ظهرها لحظات ثم نزعتُ نفسي لأدخل غرفتي، أريد أن أغلق بابي خلفي وأنفرد بذاتي بشكل رهيب، دلفتُ من الباب، وقبل أن أغلقه تأملتها لحظات.. ثم عدلت عن رغبتي في إلقاء جملة جديدة، أغلقتُ الباب.

تخلصتُ من ثيابي، ألقيها على الأرض، على السرير.. في أي مكان، أشعلتُ إضاءة خافتة، جلستُ القرفصاء فوق سريري كي أكمل بكائي وتفكيري.

كيف يفكر الآباء؟!

أهم فقط مَن يمتلكون القدرة على التفكير وتَدبُّر الأمور؟! كيف لفتاة مثلي خطت أعوام في عقد عمرها الثالث ولا تستطيع اتخاذ قرار مصيري في حياتها؟! لي زميلات تزوجن وأنجبن، أصبحت لهن حياتهن الخاصة من سنوات، كيف يعاملانني بهذا الشكل؟! ألاحظ أن روحي تتألم فكرًا.. جسدي يتألم بكاءً.. وكل في اتجاه يئن.

لا أعلم الوقت الذي مضى، لا أعلم كيف كنتُ حتى استمعتُ إلى صوت والدي في الخارج وقد ارتفع صوته بشكل غريب.



وعلى قدر كل عظيم يكون الشقاء.

(٢٣)

المصير

التقيتُ أنا وكريمًا في أول أيام التدريب الصيفي، اشتقتُ إليه بشكل كبير، للمرة الأولى التي أرغب فيها أن أُلقي رأسي على صدره حتى نهاية العمر، يحتوني لأني ضعيفة تود الاحتواء، تستمد قوة تستكمل بها حياتها.

منذ ذلك اليوم الذي زرنا فيه توفيقًا، والدي ممتنع عن الحديث معي، بذلتْ أمي مجهودًا كبيرًا في تهدئته كيلا يدخل حجرتي وهو في ثورته هذه، يبدو أنه ما إن يهدأ ويستقر تفكيره حتى يتخذ قراره بالمقاطعة لا المواجهة، وهو قرار كنتُ أختاره لو كان لي حق الاختيار في أي شيء.

صباح اليوم ارتديتُ ملابسي، وقفتُ أمام المرآة، لاحظتُ حالة الذبول التي تلازم الانكسار تكسو ملامحي، أشعر بجسدي وقد تآكل بعضه، الملابس تُظهر ما أصاب جسدي، لذا استخرجتُ ملابس أخرى مناسبة، حملت في يدي قطعة إن ارتديتها بعد أن أخرج من المنزل تُضفي على وجهي

شيئًا من النضارة، لكني نسيتها على يدي ولم أفطن لوجودها حتى يسألني عنها كريم بعد قليل من بداية لقائنا.

تعانقت الأيدي والعيون، يتلاشى الكون من حولنا، يعجز لساني عن الحديث، كنتُ أتأمل عينيه، أبعث له آلاف الكلمات والرغبات، أستقبل منه مثلها.. ما هذا الهدوء الذي يغمرني؟ تلك الراحة التي تسري في جسدي عبر ملمس يد حبيبي؟! آه يا كريم.. يا مَن تمتلك سر سعادتي! آه لو يعلمون ما يفعل بي حبك! لحاربوا حتى يجمعنا عشنا الأبدي.

جلسنا ساعة في صمت تتخلله كلمات قليلة نرتشف عبرها جرعات عشقنا، حتى يرتوي جسدي ليفيق من ذبوله، تتفتح عيناي تفتُّح زهرة تسري فيها المياه بعد عطش، أتأمله أكثر، يتأملني بعينين حانيتين عاشقتين، ثم يقول:

- من أجل ما تعانينه يا حبيبتي كنتُ أود الابتعاد.. مهما تكن معاناتي كنتُ لأتحملها ولا أن أتحمل ما أنتِ فيه الآن وأنا عاجز مكتوف اليدين.

- قدرنا يا حبيبي.. ثم.. الشيء العظيم يُبذل له كل عظيم وعشقنا أعظم شيء يا حبيبي.

- تعزُّ عليَّ دموعك يا هدى..

- لا تقل يا هدى.. قُل يا حبيبتي.. يا معشوقتي.. يا أسيرتي.. اسقِني الحب يا كريم.. أفتقدُك يا حبيبي.

يحتوي راحتي، يتأملني عشقًا.. ارتويتُ من حبه حتى ثملت، نسيتُ كل شيء، دبَّت الحياة في جسدي، طاقة إيجابية عظيمة تسري في جسدي الآن، إنه مصدر طاقتي أيها الكون، فكيف أعيش بدونه؟!

سألته عن لقائه بـ"منى" وأنها أخبرتني عن شعورها تجاهه، فقد وجدته محبًّا حقيقيًّا يعلم قدر الموقف وحجمه، يؤكد ذلك ويُثنى على صديقتي، تحمل قلب طفل رقيق مليء بمشاعر الحب تجاهي، أخبرته بأنها توأم روحي، ثم تذكرت، سألته:

- هل حدثتك منى عن القرار؟

- أي قرار؟!

- قرار الانفصال..

يرتبك لحظة وترتعش يداه ويسأل في همس كسير:

- أي انفصال يا حبيبتي؟!

ابتسمتُ مطمئنة، يبدو أن "منى" أخبرتني فقط ولم تتحدث معه، قد تكون أخبرتني بأنها لم تتحدث معه ولكني في حال يرثى لها، أفقد النضارة والجسد، وليس بغريب أن تسقط بعض الكلمات والمعاني، أمسكتُ براحتيه وأنا أقول:

- انفصالي عن توفيق بشكل نهائي.

تأملتُ رد فعله.. لكنه صامت شارد، همستُ وأنا أضغط راحتيه:

- ماذا يا حبيبي؟

يزفر.. يقول:

- ألم نتفق على الانتظار حتى يحركنا قدرنا يا هدى.. ألم نتفق على أننا نعيش الحب وفقط.. لِمَ هذا القرار الآن؟!

يرتبك داخلي، أحرك رأسي علامة الموافقة ثم أقول:

- يحددون موعد الزواج بعد أيام وتطلب مني ألَّا يكون لي قرار يا كريم..

تتغير ملامحه وتعلو علامات الاستفهام.. يسأل كي يتأكد مما سمعه:

- ماذا؟! يحددون موعد الزواج بعد أيام؟!

تذكرتُ أنني حينما طلبتُ من "منى" مهاتفة كريم كي لا يتصل بي.. أخبرتها بحادث توفيق.. لم أخبرها بما سبق ذلك من توتر حينما طلبوا تحديد موعد الزواج بعد أيام.. تعتقد "منى"، وتنقل هذا الاعتقاد إلى كريم، بأن الحادث هو سبب هذا الابتعاد بيني وبين كريم..

حكيتُ لكريم كل ما حدث منذ أن افترقنا آخر مرة وقد تعاهدنا بالفعل على الحب وفقط، أن نترك الغد يأتي بما يحمله، أخبرته بكل التفاصيل وما عانيته من صراع وآلام، ثم أنهيتُ مبتسمة قائلة:

- وهأنا الآن بين يدي حبيبي.

يحتويني بنظراته الحانية، ألحظ في عينيه دموعًا تلمع، يتألم لألمي.. لا يا حبيبي.. فلتسعد فأنا الآن سعيدة.. فلتسقِني جرعات عشقنا فأنا الآن عطشى.

بعد وقت لا أعلم مقداره أسأله عن رأيه في قرار انفصالي، يرتكن إلى مسند مقعده، يملأ صدره بالهواء، يقول:

- القرار يعود إليكِ يا هدى.. لو كان الوضع مختلفًا.. لا "توفيق" بيننا.. لكنتُ فعلت ما لا تتخيلينه من أجل الحصول عليك يا حبيبتي.. أما الآن.. أنا أعزل تمامًا في وجوده.. لا يجب من الأصل أن أوجد.. واتفقنا على ذلك من قبل.. باختصار لا يجب أن أشارك في قرار مثل هذا..

- أتتركني وحيدة؟

- لا.. لستِ وحيدة.. أودعتكِ حبي وعشقي يا هدى.. لكني لن أشعر براحة أبدًا، إن شاركتُ في هذا وأرجو تقدير الموقف.

ابتسمتُ في هدوء وأنا أهمس "أقدره يا حبيبي" ثم أذهب خلف أفكاري.. هي معركتي أنا ولا بد أن أكون فيها وحدي، احترمتُ رغبة كريم، يرتفع في داخلي درجات بسمو روحه، هو يحبني أنا.. وكي أكون أنا له.. بلا أي منافس.. يجب أن أتحرر من قيودي، لا يجب أن يدخل في منافسة.. سألته مداعبة:

- حينما أنتصر في معركتي وأنفصل عن توفيق.. هل نتزوج؟

يضحك.. مداعبًا أيضًا يقول:

- حينها أفكر في الأمر.

قالها وضحك، في نهاية ضحكته يشرد قليلًا، ألحظ شروده، ألزم الصمت احترامًا، أعلم فيما يفكر، يعلم صعوبة ما ينتظرني ويخشى ضعفي. الحقيقة أنا نفسي أخشى ضعفي، لا أعلم ما يحمله الغد وسوف أتصدى لهم بقدر ما أملك.

احتويتُ يديه بين راحتيَّ وأنا أرنو نحو عينيه بنظرات مُطمئِنة، لا تخشَ الغد يا حبيبي، أنا لك.. حتى لو فرَّق بيننا القدر، فأنت ساكن قلبي الوحيد، ولن ترحل منه حتى لحظة وفاتي، هذا عهدي لك يا حبيبي.

يعود كريم إلى المكان وهو يضغط راحتي.. يبتسم في هدوء وهو يقول:

- ذلك الحادث يمثل ورقة ضغط عليك.

- أعلم ذلك.. وأنتظر مشورتك.

- مشورتي أنا؟!

ابتسمتُ وأنا أحتويه بين جفوني:

- وهل لي غيرك يا حبيبي؟!

- أخبرتك من قبل بأنني لن أتدخل في الانفصال يا هدى..

- فقط أخبرني: هل أتحدث الآن أم عليَّ الانتظار؟

يشرد ثانية لحظات قبل أن يقول:

- تمسكي بالتأجيل.. لا تعلني الرفض والرغبة في الانفصال الآن..

أفكر لحظات في كلماته، أجدها بالفعل أفضل ما يمكن عمله الآن، لو أعلنت رغبتي في الانفصال الآن وتوفيق في حالته تلك لاشتعلت النيران، إنه يحظى بعطف الجميع بشكل غير مسبوق، في نفس اللحظة التي ينظرون فيها نحوي كأني ارتكبتُ جرمًا برفضي الزواج به بعد أيام، مما أخرجه منفعلًا فحدث له ما حدث.

سوف أترك توفيق لأني لا أحبه، أنفصل عنه لأني أحبُّك أنت يا كريم، أيعقل أن أكون معك بروحي وأعيش معه بجسدي؟! كنتُ أرتب هذه الكلمات كي أتحدث بها لكني وجدتها تعبر عن معنى مفهوم مسبقًا ولا يحتاج إلى توصيف، داخلي يتحرك بمشاعر وآهات الحب فألزم الصمت، إنه الحب الذي تتزايد حدته كلما تزايدت أمامه العقبات.

أيها العالم المتآمر ضد حبي.. ضد عشقي.. ألا تعلم معنى الحب؟! الحب هو أن يتعانق قلبانِ بدون إرادة من أصحابهما، لأن هذا العناق.. هذا التآلف.. إنما هو أمر إلهي ألقي غير مبالٍ بأي تقاليد أو سن أو طبقات، أمر إلهي يهبط مباشرة من السماء إلى القلوب لتحيا..

أفقتُ من شرودي فإذا بكريم يتأملني عشقًا، شفتاه ترتعشان كأنهما تنتفضان على جمرات وجنتيه الحمراوين من أثر الانفعال، داعبتْ أصابعي أصابعه، يحتوي راحتي فأشعر بحرارته تغمرني، موجات عشقه تسري في جسدي، يدق قلبي بعنف، أسحب من الهواء إلى صدري حتى الامتلاء، يرق جسدي حتى إنني أشعر بأني فراشة ترفرف بين الزهر.

فجأة أتذكر أبي، أمي، توفيق.. أعود إلى الأرض، فراشة في الجوار تتعثر بين الأغصان فتسقط على الأرض، قبل أن تعتدل لتعاود التحليق، تدهسها قدم عابر غير مدركة، تتدحرج على وجنتي دمعة، تركتها تشق طريقها، ليتها تحفر شق يظل شاهدًا على انهياري، بهدوء يمسح كريم تلك الدمعة، ترتعش أنامله على وجنتي، كلي شغف أن أقبِّل أطراف أصابعه التي لامست خدي لحظات.. لكني ابتلعتُ شغفي خجلًا.

ما يسيطر على تفكيري الآن هو حالي بعد فراق كريم، رغم كل ما أشعر به من قوة وقت وجودي معه، هذه القوة يتلاشى معظمها حينما نفترق، ليت القوة التي تسري في جسدي وروحي وأنا بين يدي كريم تلازمني وأنا بين والديَّ! والآن يجب أن أرحل.. أن أترك كريمًا وأعود إلى المنزل.. أترك جنتي إلى عُزلتي.



يا حبيبي أتوق إليك وأنا على صدرك..

فكيف البعاد؟!

(٢٤)

هرم خوفو

تمر الأيام.. لا جديد فيها غير التدريب الصيفي، نُمضي ساعات في تلك المؤسسة الصحفية، نخرج بعدها أنا وحبيبي في جولة لا نشعر خلالها إلا بنبض قلبينا، نترك المجموعة كأننا في طريق عودتنا إلى منازلنا، ثم نلتقي في مكان قريب قد اتفقنا عليه مسبقًا. نهار الصيف طويل، تجولنا كثيرًا، لكن أكثر يوم ترك أثرًا يلتصق بحنايا قلبي كان يوم جولتنا في ظلال هرم خوفو.

لا أعلم.. هل الحالة التي عشتُها في تلك الساعات، التي يحتويني فيها كريم بحنان غير مسبوق، هي سبب تلك الطاقة التي تملكتني، أم أن هناك طاقة منتشرة في المكان؟!

مستقبلًا سوف أعلم أن سعادتي كانت نابعة من تلك الطاقة التي ينشرها كريم أينما كان، وأيضًا لأن منطقة الأهرامات تحتوي على طاقة إيجابية غير محدودة.

مصدران رائعان اجتمعا لِيُبْثَا بداخلي تلك السعادة حينما جلسنا فوق صخرة جانبية في ظل تاريخ تركه لنا الأجداد كي يشهد لحظات عشقنا بعد آلاف السنين.

تلك الصخرة التي نجلس عليها.. تلك الصخور التي نرتكن إليها.. تُرى.. هل شهدوا قصص عشق كما الآن؟ مَن شق تلك الصخور من الجبال، ومَن حملوها إلى ذلك المكان؟ آلاف شاركوا هذا العمل وعشرات الآلاف مروا هنا على مر السنين.. أنفاس ولمسات كل هؤلاء ما تزال في المكان حتى أتينا نحن لنضع لمسات العشق كي تكتمل الصورة.

أملأ صدري بالهواء، أستمتع بكل جزء من جزئيات الزمان والمكان، وكأني ولدتُ من جديد، في داخلي حرارة وضعف.. وكأن جسدي يذوب حينما يحتضن كريم راحتيَّ ويضمهما إلى صدره، يتلاشى جشدي وترفرف روحي في المكان حينما يسكب في أذني كلمات عشقه.. يمتلك قدرة رائعة على انتقاء الكلمات وصياغة الصور والتشبيهات، مع طريقة هادئة معبرة في نطقها بشكل ينقلني إلى عالم آخر.. لا اسم له غير عالم عشقي أنا وكريم..

لا أعلم لماذا أشعر بكل شيء من حولي يتنفس، يتكلم، مرتادو المكان يتأملون عشقي في ذهابهم وإيابهم. الخيل والجمال، تتحرك بخطوات حفظتها منذ أن وطئت أقدامها أرض الأجداد، تنظر نحونا بعيون فرحة لا تبالي بعصي جبارة تلهب ظهورها.

لا.. لن أستطيع أن أصف مشاعري وروعتها الآن.. فلأستمتع بكل شيء، دعني أيها الكون وأبعد عني تلك العيون المتلصصة كي أحتوي راحتي

حبيبي على صدري، أضمها إلى شفتي.. آه.. وروعة الحب لن يستشعرها معي غير العشاق.

يهبط علينا المساء ونحن نغادر المكان، وعلينا أن نفترق بعد قليل، هل أتحمل الفراق ولو ساعات؟! .. أجدني أرفرف مثل طائر وأغرد بلسان معشوقتي في قصيدتها الرائعة "ودارت الأيام": "ما اقدرتش أصبر يوم على بعده .. دا الصبر عايز صبر لوحده.. ما اقدرش على بعد حبيبي..." أطبقتُ يدي على راحتيه أتشبث به وأبثه عشقي.

أنا أحب.. أنا عاشقة.. أنا أسيرة تلك اللحظات التي عشتُها في ظل ذلك الهرم الرائع الذي ظل شامخًا لآلاف السنين كي يشهد لحظات حبي.

يبدو كأني شاهدتُ أبي وأمي يجلسان وينظران متابعين في ريبة وتوتر دخولِي الشارد.. يبدو أن أمي تحدثت إليَّ.. ويبدو أني طلبتُ طعامًا.. ويبدو أني لم أقترب منه بعد.. توجد صينية عليها أكثر من صنف.. لكنه طعام بارد.. يبدو أن وقتًا طويلًا قد مر عليه.. قد مر عليَّ وأنا جالسة فوق سريري أرفرف بجناحي حبي، عشقي، في فضاء الكون الحالم، في ذاك الصمت المترامي إلى ما لا نهاية تحت ضوء القمر، عبر تلك النسمات المشبعة بروائح الزهور الصيفية المتناثرة أمام البنايات أو في الشرفات.

لا أعلم لماذا قررتُ تسجيل مشاعري في تلك اللحظات.. سوف أكتب ما أشعر به كي أعطي كريمًا إياه في اللقاء القادم.. يقرأ مشاعري وأنا بعيدة

عنه.. يقرأ سطور حبي.. أتيتُ بقلمي وأوراقي وبدأتُ أنثر الكلمات الهامسة في عمق هذا الليل الحالم، وكانت كلماتي:

هل تتذكر حبيبي جلستنا في ظلال الهرم؟ أتذكر ذاك الحنين وذلك الشوق الذي أشعل قلبينا، فقد التقى قلبانا برجاءٍ، فسرت في جسدي رعشة لم أعهدها من قبل، فما زلتُ أتذكر تلك اللحظات وقلبي لا يكاد يستقر على حال من الشعور المفعم بالحب، كان حلمًا ورديًّا يا حبيبي، كنت أتمنى أن أغمرك بجناحي، أن أحتضنك بروحي، بكياني، بإيماني، بكل ما أملك على الأرض، إليك العين تتجه، إليك القلب يحنُّ.

كريم.. أحبك حب تقدير وإعجاب، فقد رأيتُ فيك الرجل الذي تمثلت فيه كل معاني الرجولة، وتجلت فيه الإنسانية بكل مفاهيمها، فقد كنت محبًّا جامعًا لكل معاني الحب الطاهر الشريف.

حبيبي.. إن أعظم حدث في حياتي هو يوم ظفرتُ بحبك، لا أخشى شيئًا سوى أن أفقد هذا الحب، أفقد تلك الحياة التي أحياها بالقرب منك.

حبيبي هذا قلبي بعواطفه وحبه قد وهبته إليك راضية لأني سعيدة بحبك.
وأخيرًا.. حبيبي أتمنى أن تذكرني، ففي الذكرى حياة، وإن كانت مؤلمة.

وقعتُ أسفل كلماتي بعبارة "**مع خالص حبي وتقديري**"، ثم نظرتُ إلى الساعة، وكتبتُ التوقيت بالضبط واليوم التاريخ.

تمددتُ فوق سريري وكلماتي على صدري، ولم أشعر إلا بحركة خفيفة، نظرتُ في هدوء فإذا بها أمي تقف إلى جوار سريري، أشعة الشمس تملأ

الغرفة، إنها العاشرة صباحًا، تخبرني أمي وعيناها على صدري، أنظر إلى حيث تنظر فأجد الورقة التي تحمل كلمات عشقي ما تزال على صدري، لا أعلم لماذا لم أرتبك، لماذا لم أخفِ الورقة بسرعة؟! لا أعلم كيف حدث ذلك.. اعتدلتُ في هدوء وتركت الورقة تسقط إلى جواري كأنها ورقة لا قيمة لها، وقفتُ أحتضنُ أمي في سعادة وكلمات الصباح تجري على لساني، وقفتُ حائلًا بجسدي بين أمي وبين الورقة، وبكلماتي السعيدة أغلق أمامها باب أي موضوع تودُّ أن تتحدث فيه، بالطبع سوف تخشى تعكير هذا الصفاء.. سوف تقول لنفسها: لنؤجل الحديث الآن ما دامت رائقة المزاج.. وقد كان.. استدارت خارجة من الحجرة تهمس بأن طعام الإفطار جاهز، لا بد أن أتناوله قبل خروجي للتدريب.

تركتُ منزلي كفراشة تحلق.. إني ذاهبة إلى لُقيا حبيبي.. تمر الساعات بين الزملاء..

ينتهي يوم التدريب..

يبدأ يوم حبي..

بعدما انتهينا من جولة سريعة داخل القرية الفرعونية، يضمنا ركن بعيد، نتجاذب أطراف العشق. لم أكن ألتقي أنا وكريم إلا وتتعانق الأيدي تَعَانُق عشق أبدي. في هذا الركن الذي يضمنا ألقيتُ رأسي على صدر كريم، بدأت أتأملً في صمت ذلك الخدر الذي يسري في جسدي فيسكرني، إنها كؤوس

مترعة بالغرام أحتسيها الآن، تهتز بداخلي أوتار تعزف نغمات عشق تتخلل جسدي فأذوب.. الآن أدرك كيف تذوب حبيبات السكر في كوب ماء لتبث فيه حلاوتها بدون أن تترك أي أثر ظاهر.. أشعر بحلاوة عشقي يتخللني.. إنه الذوبان.. إنه التلاشي.. وللأجساد العاشقة عصارة تفوح رائحتها كما للزهر، رائحة العشق المنبعثة منا كانت تجذب أنظار المارة، يبتسم بعضهم.. وكثير يرسم على وجهه عبوسًا لا معنى له غير رغبةٍ في فرض سيطرة غبية.. ما لكم أيها العابسون وعشقنا!

فلتذهبوا إلى الجحيم..

بعد وقت لا أعلم مدته أخرجتُ من حقيبة يدي تلك الورقة التي كتبتُها منذ ساعات، لم أرفع رأسي من فوق صدر كريم وأنا أستخرجها من الحقيبة، أمد يدي بها لأرفعها أمام عينيه، يتناولها.. يقرؤها في صمت وأنا أنصت إلى دقات قلبه لعلي أستشفُّ رده على كلماتي. تمر دقائق ثم يطوي الورقة ويعيدها لي مرة ثانية، أترك صدره وأتأمل عينيه مستفسرة عن رأيه.. يمط شفتيه ويعلق بكلمات مبهمة.. يتملكني غضب خفيف وأنا أستنطقه:

- لا.. لا.. يا كريم.. لن يكون هذا رد الفعل الذي أنتظره منك.. إنك تواري شيئًا ما ما دمتَ قد استعنت بهذه الكلمات الجافة؟!

يمط شفتيه مرة أخرى ويقول:

- عادي يا حبيبتي.. الكلمات مهما تكن فلن تنقل ما نشعر به.. وما أشعر به نحوك أعظم.

- وما أشعر به أنا الآن عظيم يا كريم.. ويؤكد لي أن بداخلك مشاعر لها مذاق غريب غير مذاق مشاعرنا التي ألفها قلبي وأتنسمها مع أنفاسي منذ أن أحببتُك.

يصمت فترة، يشرد بعينيه إلى الفضاء أمامنا.. أتأمل رواد القرية لحظات ثم أعود إليه:

- ماذا يا كريم.. أخبرني يا حبيبي.. ألم نتعاهد على الصراحة المطلقة مهما تكن؟!

- بلى يا هدى..

هنا أدركتُ أن بداخل كريم شيئًا غريبًا لا أفهم تفاصيله، تبدَّلت ملامحي الحالمة إلى جدية.. إلى إصرار على معرفة ما يحدث، تحدثتُ بكلمات بها شيء من القوة:

- يا هدى؟! تقول يا هدى.. ولم تقل يا حبيبتي.. يا معشوقتي.. ألم أقل إن هناك أمرًا عظيمًا.. لن أتركك يا حبي إلا بعد أن أعرفه كاملًا (ثم عقبتُ بضحكة خفيفة).

يمد يده ليأخذ الورقة من يدي مرة أخرى، يفتحها كأنها سوف يقرؤها.. لكنه يتأملها لحظات ثم يقول:

- ألم تلاحظي كلماتك يا حبيبتي.. (أمط شفتيَّ مستفسرة)، تقولين: فقد كنتَ محبًّا جامعًا لكل معاني الحب الطاهر الشريف.

- نعم يا حبيبي..

- تستخدمين لغة الماضي "فقد كنتَ"..

أشهق مكاني وأنا أتأمله.. بالفعل.. لماذا استخدمتُ لغة الماضي.. "فقد كنتَ" كأن ما بيننا انتهى والآن نتحدث عن أمر مضى! كيف لي استخدام ذلك التعبير حينما أتحدث عن حالة حبي وعشقي التي أعيشها الآن بكل جوارحي؟!

ولمَّا يلفُّني صمتُ تلميذٍ نجيبٍ وقد أهمل، يُكمل كريم حديثه فيقول:

- ثم تنهين كلماتك بـ.. " لا أخشى شيئًا سوى أن أفقد هذا الحب، أفقد تلك الحياة التي أحياها بالقرب منك،.(يزوم).. وأخيرًا.. حبيبي أتمنى أن تذكرني، ففي الذكرى حياة، وإن كانت مؤلمة.

بدأتُ أدرك ما تحمله كلماتي من معانٍ دفينة تحمل الكثير من الألم، وضعتُ يدي على شفتيه كي لا يكمل، لا أريد أن أسمع كلماته عن هذه الجزئية، هل ستكون كلماته بأنني استخدمتُ لفظ "أفقد" مرتين.. ثم استخدامي لفظ " تذكرني" وهي كلمات توحي بالفقد والفراق! على قدر ما كانت سعادتي وأنا أنصت إلى قلمي وهو يخط تلك الكلمات على قدر ما كان ألمي الداخلي وأنا أتذكر تلك الكلمات المعبرة عن الفقد والفراق. لكنه كان حالي ولا يد لي في تلك المشاعر الدفينة التي تتحرك في أعماقي.

القلم يعبر عن المشاعر.. يستمد منها رحيقه.. له أن يقول ما تمده به من كلمات.. لا أتجمل على الإطلاق في علاقتي بكريم، ما أشعر به أتحدث به..

كان عظيمًا أو كان مؤلمًا.. وتلك الكلمات عبرت عن حالي.. لستُ حزينة لأنها كلمات أغضبت كريمًا.. لكن حزني ينبع من خوفي من الغد الرهيب الذي أنتظره بفقد حبي.

شردتُ خلف أفكاري.. غادرتُ أحضان حبيبي.. غادرتُ ذلك المكان الرائع الذي نجلس فيه.. أشعر بنفسي أجلس في غرفة مسدلة ستائرها، مطفأة مصابيحها.. مجرد أشعة شحيحة تتسرب من بين ثنايا الستائر لتؤكد أن الوقت نهار، أجلس القرفصاء فوق السرير كما هي عادتي وقت ضيقي وغضبي.. قطع الأثاث في الغرفة غريبة.. أتأملها.. ليست غرفتي.. أبحث عن أي دلائل أتعرف منها أين أنا.. لقد تعودت عيني ظلام الغرفة، أبحث.. أشاهد انعكاس صورتي على صفحة المرآة. إنني أرتدي قميص نوم أحمر يكشف عن الكثير من جسدي.. أشهق.. وجهي فاقد نضارة الأنوثة.. عليه علامات فقد العذرية.. تدور عينايَ في المكان.. على منضدة جانبية صورة لي مع توفيق أرتدي فيها ثوب الزفاف.. الفستان الأبيض المنفوش.. توفيق يقف في الخلف ويداه على كتفي وابتسامة مزيفة مفروشة على وجهه.. ملامحي صماء لا تعبير فيها.. أشعر بألم رهيب بداخلي حتى إن قولوني يتلوَّى من شدة الألم كأن يدًا عملاقة تعصره، أشهق.. تنحدر دموعي على وجنتي، أرفع راحتي اليسري إلى فمي أضغطها بأسناني بعنف، هزة عنيفة تعود بي إلى المكان.. كريم يمسك بكتفي وما يزال يهزني.. أتأمله في ذهول وصمت.. أدور بعيني باحثة عن الغرفة والصورة والمرآة التي تعكس صورتي بقميص

نوم أحمر يكشف عن الكثير من جسدي.. لا شيء. كريم يمسح بيدٍ حانية دموعي التي حَسِبتُها كانت بداخل حلم اليقظة فقط!

تملكتني حالة من الغضب.. غضبتُ من نفسي وما تنتظره.. يبدو أنني أتحرك نحو ما لا أرغب.. فما نخشاه وننتظره نسلك الدرب نحوه.. شعرتُ بالعجز.. وقفتُ مكاني ألملم أشيائي أمام دهشة كريم.. طلبتُ منه أن نرحل.. كلماتي مقتضبة.. هامسة.. مثل كلمات الوصايا تخرج من جسد يفارق الحياة.

يُمسك كريم براحتي وما يزال جالسًا في مكانه، يرفع عينيه إلى أعلى كي يبُثني أشواقه، يعلم داخلي، ففي لحظات ضعفي وانكساري أعود إلى نقطة الصفر.. تنهزم رغباتي.. أنكمش بداخلي وأترك لمن حولي حرية التصرف. هذا ما يحدث باستمرار في تفاصيل حياتي.. إن عدتُ الآن إلى منزلي قد يحدث الكثير مما لا نرغب حدوثه، كريم وأنا، لذا أمسك براحتي وأجلسني إلى جواره، بهدوء يضم رأسي إلى صدره، أستكين على صدره بينما تتسابق دموعي التي أتذوق مرارتها على شفتي.

كلماته رقيقة يبثها بداخلي.. يؤكد لي أن ضعفي يؤكد نقائي.. ما يحدث هو أني أخشى إلحاق أي أذًى بأسرتي.. أنا وحيدتهما.. أنا أملهما.. هما لا يدركان كيف داخلي.. يتحركان عبر رؤية الآباء لمستقبل الأبناء وهي رؤية تُبنى دائمًا عبر تجارب أظهرت الحياة صالحها من طالحها، أنا لستُ ضعيفة بالمعنى الحرفي للكلمة، بل أنا رقيقة.. هكذا قال كريم.. ورقتي ما جعلته يذوب

فيَّ عشقًا.. أبتسم وأنا أرى داخلي يهدأ بعد كلماته، أنا لستُ بهذا السوء الذي كنتُ عليه منذ لحظات.. أنا فقط أخضع لظروف صعبة.

يمر ما يتبقى من هذا اليوم وأنا مثل عائدة من مرض طويل.. كنتُ أشعر بخواء رهيب.. ألم في مناطق متفرقة من جسدي كأني قطعت أميالًا في ظهيرة صحراء قاسية.

أعود إلى غرفتي.. تتبعني أمي.. تجلس قبالتي وعلى وجهها إصرار أعلمُه، لن تتركني حتى تحصل على إجابة لما بداخلها من أسئلة، أنا لن أستطيع إجابتها و لا أمتلك القدرة على ردِّها خاوية الأيدي، ماذا أفعل؟!

أهزُّ رأسي بشدة وأستعيدُ رأي كريم في إحدى القضايا التي اختلفنا فيها ذات يوم، سألتُ أمي: هل القاتل يمتلك الأسباب التي تجعلنا نغفر له، أم أن بعقله خللًا ما؟

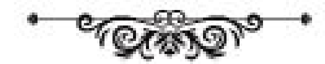
دهشة وتعجب يحتويان أمي، تتأملني فَزِعة، صامتة من فرط دهشتها ولسانها يود لو ينطق: ماذا تقولين يا هدى؟! ومَن القاتل.. ومن القتيل؟! شممتُ رائحة الخوف تنبعث من جسدها، أطراف أصابعها المرتعشة تؤكد ما توجهت إليه أفكارها، دقيقة يعمُّ فيها الصمت تمرُّ طويلة قبل أن تقف أمي لتغادر الغرفة، سوف أعلم بعد قليل أنها فهمتْ سؤالي كرسالة تهديدٍ، ويعلم الله أني كنتُ أسألها لمعرفة رأيها لأننا، أنا وكريم، اختلفنا في الرأي حول هذه الجزئية، تمسكتُ برأيي حول أن القاتل إنسان يمتلك الأسباب، أما كريم

أصرَّ على وجود خلل ما في التركيبة الفكرية والنفسية لشخصية القاتل، دعمتُ رأيي بوجود حالات صعبة تجبر القاتل على ارتكاب الجريمة، مثل رجل يعود إلى شقته فيجد زوجته في أحضان آخر على فراش الزوجية، ينفعل ويرتكب فعل القتل، أسميتُه فعل القتل وليس جريمة القتل، كريم يعود إلى ما قبل الجريمة، يصر على تسميتها بالجريمة، ويؤكد أنه لولا الخلل في التركيبة الفكرية والنفسية للقاتل ما كانت زوجته وصلت إلى مرحلة الخيانة، ومن ثم تحدث جريمة القتل، لو أنه أدرك عبر عقل متزن وجود شرخ في العلاقة بينه وبين زوجته وقام بترميمه أو الانفصال في حالة عدم القدرة على الترميم، لَمَا حدثت الجريمة، إذن الخلل في التركيبة وليس عبر وجود أسباب تدفع القاتل. لم أقتنع بشكل نهائي وآثرتُ عدم تصعيد الخلاف بيننا، الآن كنتُ أرغب في تهدئة حدة الموقف والاستعانة برأيي أمي علَّها تُرجِّح كِفتي.

ماذا حدث؟! يسألني بابا وعلى وجهه علامات الشك التي زرعتها ماما بداخله، تجاهلتُ تلقائية الموقف وتساءلتُ في سذاجة عما يقصد؟! كثيرة هي الكلمات التي يحدثني بها، في مضمونها لا تخرج عن التزام الهدوء، لا ينبغي أن أفكر ولو لحظة واحدة في ارتكاب حماقة ما!

ابتسمتُ وأنا أومئ له علامة الموافقة، سريعًا ما اتخذتُ قراري بمجاراتهم، تصورهم أن يصل بي الأمر حد ارتكاب فعل القتل، سواء انتحرتُ أو قتلتُ آخر، هو تصور ساذج، لكنه أتى في اللحظة المناسبة، إنهما الآن، على الأقل، أجَّلا استجوابي إلى حين.

سعيدة بهذا التأجيل أمضيتُ ليلتي، بحثتُ عن تفاصيل عشقي كي أعيش بينها، لم أستشعر خطورة الموقف الذي وضعتُ نفسي فيه، بعد أيام سوف أعاني كثيرًا بسبب ما تم اليوم، لقد توجهت أفكارهما إلى مَنحى يصعب على تخيُّله، ما بالكم بالتعايش في قلبه.



وكلما زاد العشق.. ترق الأجساد..

فلا تمتلك القدرة على المقاومة.

(٢٥)

المريض

التقينا في هذا اليوم بدون موعدٍ مسبق، لا المكان ولا الزمان، كنتُ أسير مع الغروب على غير هدى في الطرقات، أتوقف أمام المحلات التي تعرض المنتجات تحت أضواء لامعة، لكني لا أراها، على زجاجها تنعكس صورة حبيبي وكلمات عشقه تسري في جسدي، بينما يلتهب داخلي من تلك النار التي تتوغل كلما تخيلتُ إجبارهما لي بإتمام الزواج بتوفيق.

فجأة تنعكس صورة كريم في الزجاج بشكل أكثر وضوحًا، ابتسمت له وأنا أهزُّ رأسي والتفتُّ لأغادر المكان، فوجئتُ بكريم أمامي.. إنه حقيقي وليس طيفًا في خيالي. الصمت يعبر عما يدور بداخلي، فالكلمات لا تصلح الآن، لم يتحدث.. إنما يبسط راحتيه ليحتوي راحتي، نسير في خطّى هادئة بين البشر لكنا في الحقيقة نتهادى بين الزهور في جزيرتي الخاصة، نملأ صدرينا بهوائها النقي المُحمَّل بعبق الزهر، شدو الطير يُسكب في أذاننا فيسكرنا.

وصلنا إلى مكان لطيف على مجرى مائي يشق المنطقة السكنية، جلسنا ولم نكن همسنا بكلمة واحدة حتى اللحظة، هل يتساءل أحدنا عن سبب مجيء الآخر؟! سؤال ساذج لو خرج إلى الوجود، الأمر واضح.. إشارات العشق انبعثت من قلبينا، انطلقت عبر الفضاء الكوني تستدعي الآخر حتى التقينا.

بعد قليل يسألني كريم عن وجهتي.. أخبرته من بين عشقي بأنه هو وجهتي وملاذي، يبتسم ويلقي بقبلة عبر الفضاء بيننا..

بعد قليل سألتُه عن وجهته.. يبتسم.. لم يكرر إجابتي.. أعادنا إلى أرض الواقع.. يخبرني بأنه على موعد مع الطبيب بعد قليل.. انتفضتُ مكاني.. أي طبيب؟! ماذا بك يا حبيبي؟!

يضم راحتي في هدوء مطمئنًا مؤكدًا على أن لا شيء، مجرد هاجس خفيف يود التأكد منه عبر استشارة الطبيب، لكني لم أكتفِ بهذه الإجابة.. لا بد أن أعرف أدق التفاصيل يا حبيبي. الآن.

يتلعثم في البداية لحظات، حُمرة خفيفة تكسو وجهه، يضم يديه ليفركهما في هدوء، يقول:

- الحقيقة.. حينما نلتقي.. وكثيرًا حينما لا نلتقي وتسكنين خيالي.. تتحرك بداخلي نزعة.. جنـــــــ... (يصمت لحظات يبحث فيها عن لعابه، فيتمكن مِني القلق، أشجعه على المضي في حديثه بإيماءة من رأسي ونظرات عينيَّ تحثه على الاستمرار، فيكمل) نزعة جنسية..

حتى تلك اللحظة كنتُ قد تقدمتُ حتى حافة مقعدي وتحفزتْ خلايا جسدي في انتظار ذلك الخبر الرهيب الذي سيتحدث به كريم، لا أخفي أني توقعتُ أن يحمل الخبر مرض كريم في مرحلة متأخرة من مراحل مرض السرطان.. لا أدري لماذا داخلني هذا الإحساس.. حتى إن خيالي جمح إلى دراما صنعها في لحظة وأنا أهجر الجميع وأرافق كريمًا في مرحلة العلاج كي أقوم على خدمته وأحبه في كل لحظة بقيت له في هذه الدنيا، وأعده بأنني له في العالم الآخر.

ما إن يقول كلمته الأخيرة حتى أزفر بشدة، أعود إلى مسند مقعدي، أفرد ساقيَّ على طولها، تغرد طيور العشق على وجهي، يتأملني من بين خجل ودهشة، ينتظر تعليقي، وكان تعليقي مفاجئًا له.. والحقيقة.. مفاجئًا لي أنا أيضًا، فقد كانت الإجابة مقتضبة ولكنها تحمل كل المعاني، أخبرته في جرأة:

- وأنا أيضًا.

يبتسم لحظة قبل أن تعود الحيرة إلى وجهه، ربما يعتقد أني أوافقه لأرفع عنه حرجًا ما، يتساءل بدهشة هامسًا: "ماذا؟!"..

هنا أدركتُ أني أجبتُه بدون تفكير وتدبر في الإجابة.. لكن هذا ما يحدث بالفعل، أنا مع كريم أشعر بالإثارة الجنسية وأتمنى أن يحتويني بين أحضانه، حتى إن أسفلي كثيرًا ما ينقبض في شوقٍ. واريتُ رغبتي في الحديث بمشاعري وأخبرته بأن ذلك أمر طبيعي.

لا يبدو أن كلماتي نثرت بداخله جزءًا من الهدوء، فقد حمل العصير الذي أتى به النادل منذ دقائق واحتسى ما تبقى منه دفعة واحدة، قبل أن يقول:

– لا أعلم إن كان ذلك طبيعيًا أم لا.. لكن ما أشعر به أن علاقتنا تسمو فوق تلك النزوات، وفي كل لحظة تداهمني تلك الرغبة الجنسية أمقتُ نفسي بشدة، هناك بداخلي جزء من الحيوانية التي يجب أن تُمحى، لذا كان هذا الموعد مع الطبيب.. وهو متخصص في أمراض الذكورة والعقم..

حاولتُ بشتى الطرق أن أُهوِّن عليه، لكنه أصرَّ على الذهاب، طلبتُ مرافقته، يرفض في البداية لكنه يوافق أمام إصراري.

تمشينا الهوينى وأيادينا تتعانق، وجسدانا كلهما رغبة في أحضان تذوب خلالها لننصهر جسدًا واحدًا، حتى وصلنا إلى عيادة الطبيب.. انتظرنا في صالة بها عدد غير قليل من الأزواج، تأملتُ بعضهم لحظات، أزواج بطبيعة الحال، تقابلهم مشكلات أغلبها العقم.. الرغبة في الإنجاب رغبة قاتلة.. أبتسم في هدوء وأنا أحتوي كريمًا بنظراتي، تخيلتُ أننا زوجان مثلهما، لكننا لا نسعى إلى الإنجاب، نحن الآن نسعى إلى كبت مشاعرنا! أي حياة تلك التي نعيشها؟!

كريم يغضُّ بصره بشكل ملحوظ، أشعر بتوتره، يخشى نظرات مَن حولنا، كأن على ألسنتهم سؤالًا بديهيًّا: "هل نحن زوجان؟!" نشعر بهذا السؤال وإن لم يكن له أي أساس بداخلهم، كل منهم في همومه يغرق.

حان دور كريم.. يقف وقد زاد توتره، يستأذن للدخول، استوقفته بيد رقيقة.. ابتسمتُ.. رافقته إلى الداخل، لم أترك له فرصة للنقاش أمام الحضور من المرضى، يدخل بقدمين زاحفتين، إنها المرة الأولى التي أجده فيها على هذه الحالة من التوتر.. أو لنقل انكسار.. لا أعلم لِمَ!

في البداية يستقبلنا الطبيب مبتسمًا مستفهمًا كأنه يخبرنا بأن وقته ضيق ولا داعي لأحاديث مستهلكة، ينظر نحوي وأنا أجلس على مقعد من أصل اثنين أمام مكتبه، يجلس كريم على الآخر، أومئ بنظراتي نحو كريم في إشارة بأنه المريض.. لستُ أنا..

بعد لحظات ينتهي فيها كريم من سرد تفاصيل شكواه بكلمات متقطعة ونظراتٍ كسيرة، بدأ بتعريفنا إلى الطبيب بأننا خطيبان وفي انتظار نهاية الدراسةٍ ثم الزواج.

يستمع الطبيب حتى ينتهي كريم، ترتسم على ملامحه ابتسامة عريضة، يعتدل في مقعده تاركًا جلسة المتحفز لجمع المال إلى جلسة الهدوء التي تنم عن تحرُّك جزء ما بداخله، جزء ينبض بدقات شاهدة على عشق قد ولَّى، يتأملنا لحظات ثم يعقب متسائلًا:

- أين المشكلة؟!

أتأمل كريمًا.. كأني أؤكد نظرتي في أن ما يحدث هو أمر طبيعي، يتساءل كريم عن أن ما يحدث يمثل بالنسبة له مشكلة.. على الأقل مشكلة نفسية.. يعود الطبيب بظهره إلى الخلف أكثر، يتحدث في كلمات موجزة بأن ما يحدث لنا في حال اللقاء أو التفكير في حال البعاد هو أمر طبيعي.. تلك الغريزة تُثار بشكل يؤكد صحة العلاقة.. كان ينتظر أن نسأل عن برودة المشاعر وعدم

الإثارة الجنسية. شكوى أغلب زبائنه عدم الاستثارة الجنسية، ثم ينهي كلماته بجملة كانت صادمة ناهية "هل أخصيك؟!" شهقتُ.. يبتسم كريم.. أشعر به وقد سرت بداخله طمأنينة بدأتها أنا وأكدها الطبيب. خرجنا يصافحنا الطبيب الذي يشدُّ على أيادينا طالبًا أن نَسعد بتفاصيل البدايات.. لم يسترسل.. لكن يبدو أن لديه الكثير الذي يرغب في الحديث عنه.. وكأن قصة عشقه الماضية تتحرك أمامه بعض من تفاصيلها على ملامحنا.. يقول قبل أن نغادر الغرفة: "كل ما أطلبه منكما أن تأتياني قبل الزواج لإجراء الفحوصات وعمل التحاليل اللازمة، العالم كله يفعل ذلك إلا هنا.. سوف نحوِّل هذه البناية إلى مركز طبي متكامل أنا ومجموعة من أفضل الأطباء في مختلف التخصصات".

حديث الطبيب وإن كان لمجرد الدعاية، فقد اقترب بقلبي من حلم الزواج بكريم، ابتسمتُ للطبيب وأنا أقول برشاقة: "نوعدك يا دكتور".. يهزُّ كريم رأسه علامة الموافقة.. نغادر في سعادة يلحظها المرضى في صالة الانتظار، لم نبالِ.. كنا كعصفورين يلهوان بين الزهر يُسكرهما الأريج.

أخذتُ كريمًا من يمناه.. لم أكن أجذبه خلفي.. إنما يدي تعانق يده.. نغزل خلايا العشق لتنطق عن داخلنا بآهات الحب.. يسير خلفي، ونحن نهبط سلم البناية يبثني أشواقه بكلمات شفيفة مثل طفل فرحان جذل، أتوقف وأتأمل ذلك الطفل.. آه يا حبيبي! كم أحبُّك!

ذهبنا إلى مكان جديد نستكمل فيه ساعات العشق المسروق في غفلة من الزمن.

***

حينما تتوحد الأجساد عشقًا..

تكون الثمرة أروع ما في الوجود.. إنسان.

(٢٦)

زواج كريم

كلمات "أحمد فتحي" وإن كانت قليلة فقد حملت الكثير من المعاني.

آه.. يا لوعتي! يا لشقاء قلبي! ألم تنتهي من صبِّ عقباتكِ وآلامكِ أيتها الأيام القاسية على قلبين لا يرغبان من الوجود غير بعضهما البعض؟!

ما كنتُ ألحظه على كريم من توتر وضيق، أرجعتُه إلى تلك العقبات التي أمرُّ بها، لم أتخيل لحظة واحدة أن هناك أسبابًا أخرى لضيقه وقد أخفاها عني كي لا يزيد من معاناتي، وأيضًا كي لا تتكسر بقايا عزيمتي فتنهار قوتي.

بعد يوم شاقٍّ في التدريب، وقد لاحظتُ شرود كريم، يطلب "أحمد" أن نلتقي دقائق، أنظر ناحية كريم أستطلع رأيه، فتلك المساحة من اليوم مخصصة لقلبينا، أجده ما يزال شاردًا، أخبره برغبة أحمد، يومئ بالموافقة، ثم يتبعها بأنه يشعر بالإجهاد وعليه الرحيل، لا ينتظر إجابتي.. يرحل.. من بين دهشتي أتوجه إلى أحمد مستفسرة! يؤجل حديثه حتى نجلس.

بعد دقائق يخبرني أحمد بأن كريماً منذ فترة طويلة يمر بظروف عائلية صعبة، ففي إحدى المناسبات يُلمح عمُّه إلى أبيه برغبته في زواج كريم بابنته، وقبل أن يقول أحمد بأن والد كريم قد وافق، أشهقُ بشدة، يسقط قلبي بين أضلعي، تهمس شفتاي باسم كريم، لكن على هيئة سؤال!

يضيف أحمد: ابنة عم كريم على مستوى من الجمال والتعليم والثقافة، المستوى المادي مرتفع، ما ألمح العم بذلك إلا لمحبته لكريم وثقته به، إضافة إلى أن الرجل لا يرغب في أن تؤول ثروته إلى غريب سيما وأن تلك الفتاة الثالثة في ترتيب البنات لديه. أقصد أن كل أسباب الرفض غير متاحة أمام كريم.. كل ما يمتلكه فقط أن يخبر والده بأنه يبحث عن الحب.. (يضحك أحمد ضحكة باهتة) والحب الذي يبحث عنه الأبناء هو عند الآباء بدعة وضلال.. وما يزال الصراع قائماً حتى اليوم.. فإن استمر كريم على رفضه خاصة أن الأمر قد مر عليه أكثر من عام، فقد تتعكر مياه كانت صافية ولا يعلم أحد إلى أي مدى قد تتطور الأمور، ففي مجتمعنا.. حينما يخطب الأب لابنته.. يتملكه شعور بالخزي والعار.. للأسف.. هذا حقيقي، وإن لم يتحقق مبتغاه قد تتحول المحبة إلى نقمة، والعم يصبح عدوًّا في اليوم التالي..

قاطعته ولم أكن استمعتُ إلى كثير من كلماته الأخيرة، متسائلة: "وكريم؟!" يمطُّ أحمد شفتيه، يُعقِّب بحروف متناثرة: "كريم في حيص بيص.." ثم يتأملني.. أرتبك.. يكفيني ارتباكي مما سمعتُه يا أحمد فلا تزيد من توتري بنظراتك المتسائلة هذه! نظراتك التي تشير إلى أن حل الأزمة كلها عندي أنا! هل أرسلك كريم لتخبرني بذلك كي أحرره من قيود حبي ثم يرحل بعدها

إلى ابنة عمه غير شاعر بذنب؟! لماذا لم يخبرني بهذا الأمر حينما حدث؟! لماذا يعيش معي كل تفاصيل عقباتي ولا يُشركني في عقبة واحدة يمر بها، وليست عقبة تخصه وحده، إنها تخص قصة عشق نحن طرفيها؟!

الأسئلة السابقة كانت تدور بداخلي، لم أسأل أحمد بأحدها. لا أعلم كيف حالي في تلك اللحظات! يبدو أن خفايا الأمر تتكشف أمامي تدريجيًا.. توصلتُ إلى نتيجة واحدة.. كريم يرغب في الانفصال ولم يجرؤ على مواجهتي فأرسل أحمد! شهقتُ جَزِعَةً، تسارعتْ دموعي على وجنتي، من بين آهاتي سألتُ أحمد "هل أرسلك لتخبرني بهذا؟!"

وكأنه فوجئ بسؤالي، ينتفض أحمد، يقسم بأن كريمًا لا يعلم، إنما هو بالفعل مجهد ويخشى أن تنتقل إليكِ حالة التوتر التي يعيشها، أنا مَن طلبتُ منه الرحيل وأخبرته بأنني سوف أجلس معكِ بعض الوقت لمناقشة مشروع التدريب، ولن تخبريه بما دار بيننا الآن بالطبع؟ لم أجِب عن سؤاله.. يرتبك.. يسألني بصوت أعلى: "هدى.. لن تخبري كريمًا.. صح؟!"

حملتُ حقيبة يدي ورحلتُ عن المكان ولم أنطق بكلمة أخرى، ما زال سؤاله يتردد خلفي وهو يتعثر بين عامل المقهى لمحاسبته وبين اللحاق بي، لكنني ألقيتُ جسدي إلى أول تاكسي ظهر وطلبتُ منه أن ينطلق بأقصى سرعة، ليهرب بى إلى غرفتي، إلى عالمي الخاص.

أغلقتُ خلفي باب حجرتي بالمفتاح، لا أريد أن أتحدث مع أحد على الإطلاق، لن أجيب عن أي سؤال.. ألقيتُ جسدي فوق السرير بملابس

الخروج التي أرتديها، كنتُ أنام على بطني وأدفن وجهي في مخدتي التي شاركتني أشواقي من قبل، الآن تمتص فيض دموعي، أبكي كل شيء حولي، حبي وعشقي.. ضعفي وهواني.. كريمًا وما يتعرض له من ضغوط..

صرختُ بشدة، صرختي خرجت مكتومة، فما زلتُ أدفن وجهي في وسادتي، تحدثتُ بكلماتٍ غاضبة حملتْ غضبي وآلامي: "ماذا يحدث؟ لماذا أنا؟ لماذا نحن؟! (أبكي فتخرج الآهات من أعماقي)، الكون به مليارات البشر.. هل سيتغير نظام هذا الكون إن تزوجتُ بكريم وانتهت شقوتي؟! ماذا يحدث لو تنازلوا من أجلي.. لن تحدث كارثة عظمى.. في كل يوم آلاف القتلى.. قتلى الحروب، وقتلى الأمراض، وقتلى التلوث، وقتلى الجشع.. ألا يكفيكم هذا فترغبون في إضافة بندٍ جديدٍ في قائمة القتل، بند اسمه قتلى العِشق؟!

أفقتُ على صراخ أمي ودقات مستمرة على باب حجرتي، ذهبتُ مفزوعة أفتح الباب.. وجدتها تتأملني بعينين جاحظتين.. تسألني: ماذا حدث؟ ولماذا أغلقتُ الباب بالمفتاح؟ ولماذا لم أجبها وهي تنادي وتدق الباب وتصرخ منذ وقت طويل؟! يبدو أنها اعتقدت أنني انتحرتُ.. أنا لم أشعر بها.. تقريبًا فقدتُ الوعي بعض الوقت..

في اليوم التالي، الصداع يفتك برأسي، صخرتان ثقيلتان أعلى عينيَّ، خواء رهيب أشعر به في جسدي، وكأن هيكلي العظمي تحول إلى هيكل من صلصال. بصعوبةٍ ارتديتُ ملابسي، ذهبت إلى لقاء كريم، نعم.. إلى لقاء كريم وليس إلى التدريب، تجاهلتُ نظرات الجميع وهم يرقبونني وأنا

أستدعي كريماً ونرحل.. نظرات أحمد فتحي المرتبكة إلى أقصى حد وهو يتوارى خلف الزملاء كي لا تلتقي أعيننا، كريم يبحث عن أحمد لعله يوضح له جزءًا من تفاصيل حالتي الغامضة.

جلسنا معًا.. بعد طول صمت سألتُه عن أمر طلب زواجه بابنة عمه؟!

يلتزم الصمت وإن همس بكلمات يسبُّ فيها أحمد فتحي. في حزم طلبتُ منه أن ينسى أمر أحمد وتفاصيل معرفتي بالأمر، الآن أودُّ معرفة حقيقة داخلك أنت يا كريم؟!

بعد قليل يبتسم، يحاول أن يحتوي راحتي بين يديه، أسحب راحتي من أمامه في انفعال ملحوظ، لا بد أن أعرف كل شيء أولًا!

يزفر كريم وهو يقول:

- لا شيء يا هدى.. مجرد تزاوُج أسري عادي مثل ما يحدث في أي عائلة.. عُرِضَ الأمر منذ عام..

- هل رفضت بشكل مباشر؟!

يتلعثم لحظة.. يزدرد لعابه.. يشحب وجهه بشكل ملحوظ، يقول:

- لم أرفض بشكل مباشر حفاظًا على مشاعرهم.. إنما أخبرتهم بأنني لا أفكر في الارتباط حاليًّا.. بعد الدراسة وبداية الحياة العملية أفكر في ذلك..

- هذا يعني أن بداخلك رغبة ما.. تؤجل ذلك العرض حتى يتقرر مصيرنا.. ابنة عمك البديل يا كريم! يا لك من..

يستوقفني في حزم: "هدى..!"، ثم يهدأ لحظة قبل أن يُكمل: لا داعي لمثل هذه الظنون.. ما بداخلي أخبرتُك به.. لن أرتبط بأحد غيرك.. لأني لا أحب غيركِ يا حبيبتي.

يُنهي جملته مبتسماً في ودٍّ حتى يقضي على ما بداخلي من ظنون، بالفعل ينجح في ذلك.. تستقر جملته "لأني لا أحب غيركِ يا حبيبتي" في أعماق قلبي فيغرد مثل عصفور ينفش ريشه ثم يحلق عاليًا في الفضاء ليغرد ويغرد.

يدق كريم بأنامله على طرف المنضدة بيننا، أعود إلى المكان، أهز رأسي مستفسرة عن علامات الجدية التي تكسو وجهه، يقول:

– ما كنتُ أخفيه عنكِ.. كي تتخذي قرارك بلا ضغط من جانبي.. آن لكِ معرفته..

لم أتحدث.. بل تساءلتُ بتعبيرات الوجه، يُكمل قائلًا:

– لقد تحدثتُ مع والدي بشأن علاقتنا.. أخبرتُه بكل ظروفكِ يا هدى.. بالطبع يحزن.. وحاول أن يثنيني بل شجَّعني على الارتباط بابنة عمي كي تنتهي قصتنا غير واضحة المعالم.. لكني أخبرته بما في قلبي من حبٍّ، فما كان منه إلا أن وافق رغبتي..

– ثم؟!

– ثم هو مستعد في أي لحظة لإتمام زواجنا..

– ولِمَ لم تخبرني يا كريم؟!

- خشيتُ أن أزيد الضغط عليك يا محبوبتي.

نعم.. زاد الثقل الذي يكاد يشطر ظهري إلى نصفين.. يمزق قلبي إلى أشلاء.. كل شيء من جانب كريم مُيسَّر، الأمر معقد من ناحيتي أنا.. لو ثمة عقبة لديه لخففتْ عن قلبي بعض عذاباته! ألزم الصمت بعض الوقت وأنا أحاول كبت تلك النظرة اليائسة المتجولة بداخلي على ألا تخرج إلى وجهي.. أصنع ابتسامة أجاري بها حبيبي.

انتهينا من جلستنا وتحركنا في طريق العودة، نتحدث في تفاصيل اليوم، حدثتُه عن أحمد وألَّا يعنفه لأنه أخبرني، وتذكرتُه وهو يناديني مفزوعًا متسائلًا عن أني لن أخبرك يا كريم.. ضحكنا ونحن نتخيل حاله.. تعانقت أيدينا ونحن نعبر الشارع ولم تفترق بعد أن عبرنا.. يستوقفنا مشهد مثير.. رجل يقود دراجة بخارية في الزحام، المثير أنه يحمل معه، فوق الدراجة البخارية، أسرته كلها..! نعم.. خلفه مباشرة فتاة في العاشرة تقريبًا، خلفها تجلس أمها وتحمل على صدرها طفلًا في عامه الثاني أو الثالث، خلف الزوجة يجلس فتى في السابعة من عمره على وجه التقريب متشبثًا بتلابيب أمه خشية السقوط، أمام الرجل فتاة ابنة خمس سنوات.. الدراجة البخارية تحمل ست أرواح.. ينطلق بها في سهولة، يبدو أنه فعل ذلك أكثر من مرة..

نظرتُ ناحية كريم متسائلة: رجل فقير مثل هذا ينجب أربعة أطفال.. لماذا؟! يبتسم كريم بأسًى وهو يعقب: لعلكِ لم تلحظي أن زوجته حامل.. بطنها منتفخ بشكل ملحوظ.. أي إنهم في انتظار الطفل الخامس!

زادت دهشتي.. زممتُ شفتي في امتعاض، يتحدث كريم هامسًا:

- الفقراء يا هدى ينجبون أكثر من الأغنياء، لأن الحياة تبخل عليهم بملذاتها، لا تترك لهم غير لذة وحيدة هي المتاحة لديهم، لذة الجنس.. لا أعمال.. لا مشروعات. لا سفر ورحلات.. لا حفلات تستدعي اهتمامًا بالمظهر.. محرومون من كل شيء غير الجنس في غرفهم المغلقة.. والنتيجة الحتمية مع غياب الوعي عائلات أرنبية..

نضحك بأسى على تشبيهه تلك العائلات الفقيرة التي تنجب كثيرًا بعائلات الأرانب.. يقول:

- قديما كانت الأرانب تُربى في المنازل الريفية في حجرات صغيرة.. فتقوم بحفر بيوت لها في الأرض.. تعيش فيها.. تتكاثر تحت الأرض.. مع الأيام تظهر صغارها.. لتنمو وتحفر بيوتًا أخرى تحت الأرض لتتكاثر..

أتأمله في شوق، كثير من ثقافتي استقيتُها من كريم، ضغطتُ يده وأنا أخبره بأننا لن ننجب غير اثنين.. أيًا كان ما نرزق به.. يوافقني بضغطة من يده ويقول من بين شروده:

- سوف نسمي ابننا "معتصما"..

لم أسأله عن السبب.. أقول:

- وإن كانت بنتًا سوف نسميها " أروى "..

تتعانق الأيدي أكثر.. تترك روحانا جسدينا لتحلقا إلى جزيرتنا الخاصة.. تعيشان حلم اللقاء السحري المنتظر الذي سيتكون ثمرته هذا الابن.

***

وكثيرٌ من البشر يعبر أزماته .. بالبلادة.

(٢٧)

النتيجة

- سوف يخرج توفيق من المستشفى اليوم ويعود إلى منزله.

هذا ما قالته أمي كأنها تزف إليَّ أحد الأخبار السعيدة، أمطُّ شفتي بامتعاض، أُعقِّب بكلمة واحدة وأنا أتركها وأدخل غرفتي "بالسلامة".. ماذا كانت تنتظر؟! هل أحتضنها فرحة بهذا الخبر وأطلب منها أن نذهب إلى مرافقته من المستشفى حتى البيت، وأن نجهز له الطعام وننظف الشقة ونرتب الدولاب؟! مصيبة سوداء لو كانت تنتظر أن نفعل ذلك!

بالطبع يسألها عني.. أخبراه أنني مشغولة في التدريب..

التقيتُ "منى" بعد عدة أيام من آخر لقاء جمعنا، وأقصد أننا جلسنا معًا فترة طويلة كسابق عهدنا، يوم لم يكن لي غيرها. أما لقاء الدراسة أو التدريب فهو لقاء عابر لا نتحدث خلاله عما بداخلنا.

هذا اليوم جلسنا، بعد نظرة عتب منها.. حدثتُها بكل ما في نفسي.. وأدق تفاصيل علاقتي بكريم وتوفيق وأسرتي، و"منى" دمعتها قريبة فكانت تستمع وتبكي.. ثم تضمني وتبكي.. وهكذا حتى انتهيتُ.

فجأة جففت دموعها.. وتحولت الأم الحنون إلى نمرة شرسة وهي تملأ صدرها بالهواء، تضم قبضتها بحركة لا إرادية وهي تقول:

– لا بد أن ينتهي هذا الأمر.. الجواز ليس بالقوة!

تأملتُها مستفسرة عما بداخلها؟! فأجابت:

– سوف أتحدث إلى توفيق.

تملكتني الدهشة.. ولرغبة ما بداخلي، تتمنى أن يواجه أي إنسان على وجه الأرض توفيق كي يفك إساري، التزمتُ الصمت. تستكمل "منى" كلماتها:

– والداكِ تسوقهما رغبتهما في الارتباط بتوفيق؛ لأنه رجل يمتلك مقومات نجاح الزواج، فارق السن.. العمل.. ما يمتلك من أموال.. بالإضافة إلى صلة القرابة.. لكن كل هذه الأسباب إن وُضِعت أمام الحب لرجحت كفة الحب.

استمرت كلماتها في التدفق، ولكني لم أعِ منها الكثير، كنتُ أتخيل لقاءها بتوفيق، خشيتُ أن أناقش معها الأمر لئلا نَصل إلى نقطة فشل اللقاء، سوف أتركها تواجه بهذه الضراوة البادية على وجهها ثم تعود بما يقرره القدر.

قبل أن نفترق أعطيتها رقم تليفون توفيق، احتضنتها بقوة كأني أشجعها على خوض معركة يجب أن تعود منها منتصرة. داخلي يهتز بشكل مثير.. يرتعد قلقًا. الحقيقة التي أدركها وأنكرها في آن واحد أن بداخلي ضعفًا لا نهاية له، حبس هذا الضعف بداخلي يزيد من معاناتي، أضف إلى ذلك مأساة عشقي.

لكن رفقًا بي.. لا تقسُ عليَّ أيها الكون، فقد أبدع الشاعر حينما توجه إلى الجميع برسالته وهو يحثهم الرفق بالعشاق فيقول: لا تكثرنَّ ملامةَ العُشَّقِ... فكفاهُمُ بالوجدِ والأشواقِ. نعم يكفي ما نحن فيه من آلام العشق.. وفي آلامه حياتنا، واسألوا كل أهل العشق من قبلي.. ومَن سيأتي بعدي حتى ينتهي هذا العالم...

في مساء هذا اليوم، كنتُ أتخيل ما سيحدث بين "منى" وتوفيق، أنتظر في كل لحظة أن يرن جرس التليفون وتخبرني بما حدث، أو يدق توفيق الباب ليستدعي أبى كي يخبره وهو في أوج ثورته عما حدث، مع أي حركة في الصالة يصل صوتها إليَّ في غرفتي يسقط قلبي من بين أضلعي، أشعر بانقباض في أحشائي.

بعد وقت طويل تطرق أمي باب غرفتي ثم تفتح الباب، أبحث خلف نظراتها عن أي معنى.. لكن نظراتها كانت غامضة أو لا تحمل أي شيء. تقترب في هدوء، تتأملني في صمت.. لا أعلم، أتشفق على حالي أم حانقة عليَّ؟ بعد لحظات مرت كدهر تجذبني من يدي في رفق طالبة أن أشاركها الطعام..

في اليوم التالي، وبعد ليلة طويلة تحولت فيها الأحلام إلى كوابيس، خرجتُ مبكرة إلى الجامعة، النتيجة سوف تُعلق اليوم..

في طريقي لم تشغلني نتيجة الدراسة بقدر ما تشغلني نتيجة لقاء "منى" بتوفيق، كنتُ قلقة بشكل كبير.. لماذا لم تتصل كي تخبرني حتى الآن! لِمَ تتركني أتألم هكذا؟!

وصلتُ الجامعة.. بالقرب من المبنى الإداري، حيث النتيجة، يقابلني كريم باش الوجه، يلتقى يديَّ في حنان، يبارك النجاح.. نجحنا.. بل حصلنا على تقديرات ما بين الجيد جدًا والامتياز.. وهو أمر كنا نستبعده، كريم وأنا، بسبب ما نمر به من أحداث.

يتحرك كريم في اتجاه مكاننا المفضل، لكني توقفتُ أبحث عن "منى" بين الزملاء، يسألني كريم عن سبب توقفي! أخبره بأنني سوف ألتقي "منى" أولًا.. ثم أتركه وأتوغل في الزحام.. أسمع صوت كريم يخبرني بأنها قد نجحت أيضًا.. أدعو الله أن تكون قد نجحت بالفعل وتعود لي بأخبار تعيد الحياة إلى روحي.

بعد قليل ألتقيها على أطراف الزحام.. تحتضنني مباركة النجاح.. لا أبارك لها بكلمة.. أسألها: ماذا فعلتِ؟ تسحبني من يدي لنبتعد، لديها أخبار.. وجهها غير عابس.. يا إلهي! ألحظ كريمًا يتابعنا من بعيد وعلى ملامحه ألف سؤال.. انتظر يا كريم.. دقائق يا حبيبي.. دقائق وأكون معك.. أشرتُ له بيدي وقد ضممتُ أطراف أصابعي الخمسة علامة الصبر.

جلسنا في أحضان ظل شجرتنا، كسابق عهدنا، وكلي شوق لمعرفة التفاصيل، يا "منى" أخبريني بالله عليك، قالت:

- اتصلت بتوفيق مباشرة.. عرفته بنفسي وطلبتُ مقابلته، كنتُ أعلم أنه سيرفض لأنه خرج حديثًا من حادث صعب، لذا أخبرته بأنني لا أمانع في الذهاب إليه في المنزل.. لم يجد مفرًّا من الموافقة.. ذهبتُ وبصحبتي أمي..

فوجئت بما تقوله "منى".. أمها تذهب معها كي تدافع عن عشقي.. تذكرتُ أمي وقسوتها عليَّ، والأمهات تقسو بدافع المحبة فلا تُسمي القسوة باسمها الحقيقي وإنما يسمونها بأكثر من اسم ينبع من المحبة والصالح والخوف.. نهايته.. أكملي يا منى..

- فوجئ بالطبع وأنا أدخل ومعي أمي.. ولم أكن لأذهب إليه في منزله بمفردي.. ينصت في انتظار كلماتي.. وتحدثتُ.. بل انطلقت كلماتي مثل الرصاص تلاحقه.. لدرجة أنني نفسي أشفقتُ عليه من حدة كلماتي وقوتها.. في البداية أخبرته بأنه قلبه كبير وعليه أن يدرك معنى ميل القلوب وإن كان يقدرك بالفعل يا هدى فعليه ألا يقف أمام سعادتك، عمومًا تحدثتُ بكل شيء.. لا أتذكر الكلمات بالنص.. في النهاية.. قال بهدوء.. سوف ألتقي خالي وسوف أفعل ما يسعد هدى.

لا أعلم لماذا شعرتُ بانقباض داخلي.. لم تنتقل السعادة المرسومة على وجه "منى" إليَّ.. لكنني حاولت بقدر الإمكان أن أجاريها في فرحتها.. إنها

تشعر بأنها فعلت شيئًا عظيمًا.. وهو عظيم بالفعل.. لكن مع توفيق.. الأمر مختلف.. وهذا سبب انقباضي.

كان ذلك الحدث محور لقائي بكريم حتى موعد عودتي إلى منزلي.

وعدتُ..

عدتُ لأجد توفيقًا يجلس مع أبي وأمي وأعينهم تقذف حممها نحوي وأنا أقف في فتحة الباب.

لحظة واحدة فكرتُ في العودة، وأغلق عليهم باب الشقة بالمفتاح من الخارج، لأهيم على وجهي في الطرقات، لكني كنتُ أضعف من اتخاذ مثل هذه الخطوة، دخلتُ بهدوء كأني أتمنى ألا يراني أحد! أغلقتُ الباب خلفي.. تأملتُ صمتهم الصارخ لحظات، ألقيتُ السلام.. أخبرتهم أني نجحتُ.. توالت عباراتهم الجافة مهنئة.. ثم يعم الصمت.. توجهتُ ناحية غرفتي.. وكما توقعت.. تستدعيني أمي.. "هدى.. تعالي.."

أعود وأجلس في مواجهتهم.. عينايَ لم تفارقا الأرض، لا أريد أن أنظر إلى تعبيرات وجوههم وما تعبر عنه أعينهم، أعي ما يدور في عقولهم، يستشعره قلبي.. رغم ذلك الوعد الذي وعده توفيق "منى" ووالدتها.. قلبي يخبرني بداخلهم.. يبتسم توفيق ابتسامته التي بدأتُ أراها باردة منذ فترة.. يقول:

- منى.. زميلتك.. أتتني أمس.. (أومئ برأسي علامة معرفتي وأبتلع جملة: أعرف يا نابغة عصرك)، وأمها كانت معها.. ها.. أخبريني يا هدى..

ما الذي يحزنك.. أي مشكلة يمكن حلها.. (يضحك ضحكة جافة)، أليس كذلك يا خالي؟!

يعقب والدي بالموافقة، يستمر الحديث بينهم مدة بين أخذ ورد.. كلماتهم مثل مَن يحاول إقناع طفلة بالعدول عن تشبثها بشراء لعبة ما، الغريب في الأمر أن كلماتهم ساذجة ومنطقهم ضعيف، تأييدهم لبعضهم البعض أشعرني بتلبك في المعدة، يمكنني الرد عليهم بهدوء وإقناعهم.. لكن لساني سقط في جوفي.. وكانت النهاية بأنه يجب أن نحتفل جميعًا بنجاحي.. يجب أن أخرج لتغيير الجو.. والأفضل أن نسافر جميعًا لمدة أسبوع إلى الساحل.. لعل داخلي يهدأ! يعقب توفيق بأنه سيتحمل نفقة هذا الأسبوع.. ونفقة أي شيء مقابل إسعادي.. لقد وعد زميلتي "منى" بأنه سيفعل كل شيء من أجل سعادتي.

مَن منكم سيشاركني الصراخ.. أو حتى الضحك الساخر حتى البكاء؟!

لا ترهقوا أنفسكم.. سوف أصرخ وحدي..

....

....



ذاتك خزينة أسرارك.. لا تعطِ أحدًا شفرتها.

(٢٨)

المكيدة

تعاملني أمي، منذ ذلك اليوم الأخير الذي صرختُ فيه بشكل هيستيري وأنهيتُ صراخي الباكي بضحك جنوني، برفق شديد.. حتى درجة التدليل إن أردنا الدقة، كأنها تعامل طفلة، أبي كان يجاريها في هذا التعامل وإن كنتُ أشعر بأن داخله شيئًا غير ظاهره. استمرأتُ الأمر وتدللتُ، حتى إن بعض حروف الكلمات كانت تخرج كما طفلة تتعلم النطق.. كأن أنطق الشين سينًا..

في اللحظة التي يقرر فيها توفيق أنه سوف يفعل كل ما يستطيع من أجل إسعادي كما وعد زميلتي "منى" أرنو بعيني ناحية والديَّ أستمد منهم قوة أو دعمًا.. لكن.. يا ويلتي! يتفقان معه تمامًا.. شعرتُ بضياع رهيب، انسحق قلبي ودمعي.. حتى أقرب الناس يدمرانني وعلى وجهيهما ابتسامات تعبر

عن مدى صفائهما النفسي وسعادتهما بما يفعلانه. فصرختُ بشكل هيستيري وأنهيتُ صراخي الباكي بضحك جنوني.

تمر الأيام.. لا أترك غرفتي.. أحتضن ألعابي القديمة التي أنزلتها من مكانها فوق الدولاب وعلى رأسها ذلك الدبدوب الضخم.. لونه أحمر.. كان هدية من والدي في عيد ميلادي الثاني عشر على ما أذكر.. انعزلتُ عن تفاصيل شقائي.. أعلم أن كريمًا يموت شوقًا.. "منى" لم ولن تسأل إلا بعد مرور فترة زمنية طويلة، لأنها سوف تعتقد أن لقاءها مع توفيق يؤتي بثماره الآن.. هي تعتقد – لنقائها – أننا نسير في خطوات الانفصال..

تلك الطريقة في التعامل معي جعلتني أتساءل، في داخلي، ماذا يفعلان؟! ماذا قال لهما توفيق حينما أتى بعد لقاء "منى" له؟! حتى اليوم لم يتحدث أحدهما عن علاقتي بكريم بشكل مباشر! "منى" أخبرتْ توفيقًا بأنني مرتبطة عاطفيًّا بـ"كريم" زميلي في الدراسة، وأنه، أي توفيق، لا يجب أن يكون سببًا في تدمير قلبين بهذا الشكل! يبدو أن توفيقًا حينما أتى لم يخبرهما بذلك، وإلا ظهر لمحاته بين ثنايا حديثهما.

لماذا لم يخبرهما؟! مستقبلًا سوف أعلم بوصفهما حبي وحياتي التي أحياها بأنها لعب "لعب عيال" وسوف تنتهي مع انتهاء الدراسة، وأن توفيقًا لا يجب أن يضع نفسه في مقارنة مع "هذا التلميذ".. نعم.. سوف أعلم ذلك، وغيرها الكثير مما سيشعرني بمهانة عظيمة تكون داعمًا لي في اتخاذ أهم خطوة في حياتي وأخطرها.

فترة نقاهة.. أحتاج إليها بالفعل.. لا أغادر البيت.. فقد انتهت فترة التدريب.. أيام ويبدأ العام الدراسي الأخير.. أمي ليست مثل باقي الأمهات كي تكون صندوق أسراري، وإن كانت حاليًا تتقرب وتتودد إليَّ بشكل كبير. خلال الأيام الماضية لم تحدثني أمي بشأن موعد الزواج، يبدو أنهما اتفقا على تلك الهدنة يوم النتيجة حينما تركتهما وأغلقت خلفي باب حجرتي.

قبيل بداية العام الدراسي الأخير بأيام قليلة، وكنتُ تلك الطفلة المدللة، وبعيدة عن كريم منذ فترة، تبدأ أمي في حديث هادئ.. ناعم. من عادة أمي أن ترتدي في المنزل رداء قد يصلح للخروج، لا تتخفف من ملابسها إلا في حجرتها، دائمًا تقول من المنتظر طرق غرباء على الباب في أي لحظة، أيضًا تخرج إلى الشرفة ولا تمتلك الوقت لاستبدال ملابسها في كل مرة، بهذه الثياب.. وفي هذا اليوم بالذات كانت ترتدي رداءً أسود ألقى بظلاله على هول الموقف.. لكني لم أدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان، اقتربت أمي بهدوء وقالت:

– حبيبتي.. لقد أجلنا الزواج بتوفيق إلى ما بعد انتهاء الدراسة، وقد اقترب موعد سفره ويرغب في تحديد موعد الزواج كي يرتب إجازته القادمة.

لا أعلم لماذا ضحكتُ وعقبتُ ساخرة:

– أما زلتما تصرون على قتلي؟!

– قتلك! (قالتها بحسرة وهي تدق صدرها) لِمَ يا ابنتي؟!

– إصراركما على زواجي بتوفيق هو القتل بعينه يا أمي..

- لا يا حبيبتي.. لا يوجد إصرار.. كل ما في الأمر أننا نبحث عن راحتكِ.

- راحتي ليست في الزواج بتوفيق يا أمي..

تعتدل وهي تحاول رسم ابتسامة على وجهها وتسألني:

- للمرة الأولى يا هدى سوف أسألك عما أشعر به منذ فترة..

حركتُ رأسي في هدوء يوحي بأنني على أتم الاستعداد للإجابة عن أي سؤال، قالت:

- أخبريني بالحقيقة حتى أستطيع حل المشكلة.. أنتِ ابنتي وسعادتكِ هي سعادتي.. هناك شخص آخر.. صح؟

- نعم.. (نطقتها بسعادة طفولية).. هناك شخص آخر.. وتعلمان ذلك لكنكما تخشيان المواجهة، أما أنا فلم يعد هناك ما أخشاه.. (أقف لأواجه أمي بخبري السعيد) أنا.. أحب.. كريماً.

وكأنني ألقيتُ قنبلة انفجرت في المكان.. لكن الصوت الذي هز المكان لم يكن صوت القنبلة، إنما كان صوت أمي، تصرخ بصوت يفوق صوت القنبلة. شعرتُ بشلل تام في أطرافي، حتى لساني، لا أعلم ماذا يحدث وكيف تنهار أمي فجأة بهذا الشكل؟!

تصرخ بكلمات غير مفهومة، تشنجتْ أطرافها، تدفقت الدماء إلى وجهها حتى كادت تقطر من عينيها وأنفها، زاد رعبي وتراجعتُ إلى الخلف، يبدو أنني ارتكبتُ جريمة باعترافي لها، يبدو أنها دبرت مكيدة كي أعترف!

أتابع حركة يديها في الهواء، أركز على أظفارها، أشعر بها استطالت وسوف تنهش بهما لحمي فصرخت.. يختلط صراخي بصراخها.. تحولنا إلى أبطال مشهد دموي لو شارك في مسابقة فنية عالمية لحصل على الجائزة الذهبية.. هي تصرخ بكلمات حول ما قالته سابقًا عن الخيانة وقذفت كريم بإهانات ينزف أمامها قلبي، وتصرخ بحدوث كارثة لو عَلِمَ أبي وتصرخ وتصرخ.. وأنا أصرخ كي تهدأ، وأصرخ كي تصلها كلماتي، وأصرخ أدافع عن نفسي وعن كريم، وأصرخ بأن تلك حياتي..

حتى أضع نهاية لما يحدث تركتُ المكان، دلفتُ إلى حجرتي وانهرتُ باكية متشنجة من شدة الانفعال فوق السرير، وقت طويل يمر لا أدرك تفاصيله، فأنا شبه غائبة عن الوعي، أفيق على يد توقظني وزخات عطر تتناثر على وجهي، أضع يدي على وجهي بحركة لا إرادية ومن بين أصابعي أختلس النظر، فإذا به أبي يبتسم لي، يقابل دهشتي بكلمات كأنه يداعب طفلته، أندهش لحظة ثم فجأة أجدني أعود إلى تلك الطفلة التي كنتُ عليها خلال الأيام الماضية.

بعد ساعة كنتُ قد ارتديتُ ملابسي، فقد طلب أبي أن نخرج للتجول بعض الوقت، وخرجنا نحن الثلاثة، أسفل المبنى كان توفيق ينتظرنا بسيارته، اندهشتُ من ذلك الترتيب الذي تم بينهم وأنا غائبة عن الوجود أبكي عشقي.

تناولنا بعض المأكولات والمشروبات، لم يتطرقوا في حديثهم إلى مارثون الصراخ بين بطلتي الصراخ الدوليتين: أمي وأنا. تحدثوا في الشأن العام.. عن

كرة القدم.. عن أحدث أفلام السينما "طيور الظلام" وهل يحجز لنا توفيق في نهاية الأسبوع لمشاهدته؟! كنتُ أهز رأسي فقط، أشعر بإرهاق شديد، ألاحظ مثله على وجه أمي، سباق الصراخ الهستيري أجهد جسدينا كأننا كنا فريقًا في حلبة مصارعة حرة تعرض فيها فريقنا للضرب المبرح.

بعد نهاية الجولة لم يأخذ توفيق طريق العودة إلى المنزل، بعد دقائق توقف أمام بناية ما، نزلوا جميعًا من السيارة ثم طلب مني والدي النزول، تساءلتُ بنظراتي: إلى أين؟! أجابني: لقاء سريع مع طبيب.

في هذه اللحظة بالذات شعرتُ بأنني دُمية يحركونها، وسوف يلازمني ذلك الشعور فترة من الزمن، هبطتُ من السيارة صاغرة كأسيرة لا تمتلك قدرة على التفوُّه بكلمة، كنتُ أصعد خلفهم السلم وأنا أبكي في صمت تجريدي من حريتي، الآن علمتُ قيمة أن تتحدث بحرية وتقول ما بداخلك، لن تشعر بما أشعر به الآن إلا إن قُطِع لسانك وبُتِرت يداك.

يشتعل داخلي وأتمنى أن يأتي بساط الريح ليحملني إلى جزيرتي.. أعيش فيها وحدي.. نعم وحدي.. فأنا الآن أتعذب وحدي.. حتى كريم لا يعلم ما أعانيه الآن.. الآن وأنا أشاهد لافتةً معلقة على باب العيادة وعليها اسم الدكتور " عادل إبراهيم اختصاصي الأمراض النفسية والعصبية" .. لقد جال في خاطري لحظة أن أخبروني بموعد مع طبيب أي تخصص إلا الأمراض النفسية والعصبية.

يتحدث توفيق لحظة مع رجل ضخم يجلس خلف منضدة تبدو صغيرة للغاية أمام جسده، ينصت الضخم إلى توفيق بينما يصوب نظراته ناحيتي، نظراته كانت متحفزة للغاية رغم محاولته صبغها بابتسامة بدت باهتة، يقف الضخم في مكانه، أرتعد وأتوارى بجسدي خلف أبي، لم أشعر بأن أمي تقف خلفي ناحية باب العيادة كي تحول بيني وبين الهروب إن أردت.

لن أهرب يا أمي.. لا أمتلك القدرة حتى على الهروب.. أنتم تسحبونني مثل ذبيحة.. يتحرك الضخم ناحية باب جانبي يفتحه ويسد فتحته.. جسده في مقياس الباب تمامًا، تخيلتُ أحدهم وقد سرق الباب ويطلب الطبيب من هذا الضخم أن يقف مكان الباب حتى يأتي النجار بباب جديد، ابتسمتُ وأنا أتخيله يفتح ويغلق بجسده، تتأمل أمي ابتسامتي مندهشة، ولم تدرك أنني شاهدتُ يدها وهي تجذب أطراف أصابع أبي خفية وتُشير بنظراتها نحوي، وكأنها تخبره بأنهم على صواب حينما قرروا عرضي على طبيب أمراض نفسية وعصبية.

يدور الضخم على كعبيه ليواجهنا بعد أن تحدث إلى الطبيب، يشير لنا بالدخول، يدخل توفيق ومن خلفه أبي، ثم تقف أمي كي أدخل أنا وهي من بعدي.

حوار قصير يتعرف خلاله الطبيب بوالدي وتوفيق.. يظهر بينهم أصدقاء مشتركون، يتبادلون معلومات وتفاصيل عن هذا وذاك.. أتابعهم وكأنهم على خشبة مسرح، ابتساماتهم المزيفة مقيتة، من أسفل نظارته السميكة يُلقي الطبيب نحوي نظرات خاطفة، يمر الوقت بثقل رهيب، أشعر بحرارة غريبة

في الغرفة، أتململ في مكاني، يقف الطبيب، يتحرك خلف مكتبه وهو يشير بيده نحوهم ثم إلى الباب يطلب منهم أن يتركونا بمفردنا بعض الوقت، سيناريو متوقع وبداية خانقة.

يتبسط معي في الحوار، يحاول بقدر ما يستطيع الاستظراف، أزفر بشدة.. في داخلي.. أرنو نحو لا شيء.. ليفعل ما يشاء.. ليس هناك أسوأ مما أنا فيه الآن. لكنه بعد دقائق يستطيع خلالها إثارة شيء بداخلي، لقد اكشفتُ أن ما يعرفه الطبيب مغاير تمامًا للحقيقة، أخبروه بأنني أتعرض لبعض الضغوط النفسية بعد الحادث الذي تعرض له توفيق، شعوري بالذنب بعدما خرج غاضبًا وتعرض للحادث جعلني أتصرف بشكل غير طبيعي في الآونة الأخيرة، لم يخبروه بأنني ما زلتُ مصرة على الانفصال، لم يخبروه عن وجود شخص آخر في حياتي يحتل قلبي، بل يسيطر على كل خلية من خلايا جسدي. يجب أن يعلم الحقيقة كاملة حتى يتصرف على هديها.. لذا تحدثتُ بكل التفاصيل، أخبرته عن حبي.. عن عشقي.. الحب يأتي هكذا.. نحب وفقط.. لا يجب أن نسأل: لماذا أو كيف؟! يهبط الحب.. يحتل القلوب.. نحب.. هذا كل شيء.

لا أعلم كم من الوقت مر وأنا أسرد تفاصيل عشقي.. لكن يبدو أنني أفضتُ، مضى وقت طويل يبدو تأثيره على وجه الطبيب وهو ينظر في ساعة يده بفجاجة. يترك مقعده المواجه لي ويعود إلى مقعده خلف المكتب، يحاول الابتسام لجعل الأمور طبيعية لكنه يفشل أمام ضجره.. يبدو أنه تأخر عن موعد ما (مستقبلًا سوف أشاهده في هذا التوقيت يجلس برفقة آخرين أمام مقهى يلعبون الطاولة) يتحدث بكلمات عامة، يبدو أنه يحفظها لأنها لم تكن

نتاج لتعبيرات وجهه، كي يطمئنني وأن الأمور شبه طبيعية.. في النهاية يلقي مصيبة جديدة تضاف إلى مصائبي، الطبيب الموقر يقول:

- لا داعي للقلق.. توتر واضطراب في الأعصاب.. سوف أصف لكِ بعض الأدوية لمدة عشرة أيام.. بعدها تعود الأمور إلى طبيعتها.

زممتُ شفتيَّ ضيقًا ثم انفجرتُ:

- التوتر نتيجة.. ويجب إزالة الأسباب.. والمسببات واضحة فيما ذكرتُه أنا..

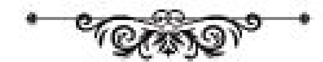
- لا.. لا.. الأمر بسيط كما أخبرتك.. (كان يكتب أصناف الأدوية ثم يكمل وعيناه تهرولان خلف سن قلمه)، هذا الصنف ثلاث مرات بعد الأكل.. (يزوم) أما هذا الصنف مرة واحدة قبل النوم..(يزوم أكثر فأتذكر برنامج عالم الحيوان بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع) وممكن أيضًا هذا الصنف قبل النوم لمدة أسبوع..(يمد يده بالروشتة ويقف معلنًا انتهاء يومه) ونلتقي بعد أسبوع.. مع السلامة.

خرجتُ إليهم، تحتويني أمي في حركة جافة، يقترب منا والدي، يدخل توفيق إلى الطبيب ويعود بعد دقيقة واحدة مبتسمًا، يقول وهو يشير إلى الجميع بالخروج: كما أخبرتكم.. مجرد توتر واضطراب في الأعصاب سوف يزول مع العلاج خلال أسبوع. أدركتُ الآن لماذا يفشل الطب النفسي في مجتمعنا، إنه عالم تحكمه النفس مبتعدة عن أي نظريات!

أشاهد صورتنا، نحن الأربعة، أبطال حلقة هذا الأسبوع برنامج عالم الحيوان، موسيقا البرنامج في أذني تلح بشكل مرير، ابتسمتُ وأنا أحاول مشاهدة القرد بين الأغصان، أتأمل توفيقًا. أسد يتثاءب فتظهر أنيابه، أتأمل أبي. أنثى فيل باكية، أتأمل أمي.. أتذكر اسم أنثى الفيل "عيثوم".. أمط شفتي متسائلة في داخلي: عيثوم؟! ثم أشاهد أخيرًا غزالة صغيرة شاردة تتأمل الجميع في جزع.

بعدما ركبتُ السيارة تصل إلى أذني جملة يعتقد توفيق أنه قالها همسًا لأبي قبل ركوبهما، لكنني سمعتها واضحة "أخبرني الطبيب أن نبعدها عن هذا الولد أطول مدة حتى تنساه".. لقد أخبرهما توفيق بتلك التفاصيل التي حدثته عنها "منى" وما أخبرته عن حبي لكريم.. يبدو أنهم تناقشوا ورتبوا الأمر على ألا يذكروا اسمه أمامي كأنهم لم يعلموا بأمره، وكأنه نكرة لا وجود له! هكذا يرون حبيبي.. هكذا يتعاملون مع عشقي.. حتى الطبيب يتجاوز أنين قلبي.. يسعون إلى نسيان كريم!

يضحك داخلي بسخرية: "أنساه؟!" بينما تبكي عيناي وأنزوي بجسدي في المقعد الخلفي.



ولتعلم ما في قلبي الآن.. فالرحيل يأتي فجأة.

(٢٩)

التائهة

في الأسبوع التالي تدللني فيه أمي أكثر، أطعمة، تعلم أني أُفضِّلها، تصنعها خصيصى من أجلي، تتعامل مثل ممرضة مقيمة بأجرٍ تبذل كل ما تملك لرعاية مريضتها. يقترب أبي بشكل ملحوظ، معظم يومه يمضيه معي.

خطتهم هي السيطرة التامة على تفكيري حتى لا أطير به إلى حبيبي.. لا يعلمون أنه يسكن صدري.. يسرى في دمي، أتنفس عبقه كل لحظة.. صوته يتردد صداه في أذني.. هل يأتي يوم أنسى فيه صوته وهو يشدو "حبيبتي.. حبيبتي.."!

لكن.. بدأتُ أشعر خلال هذه الأيام بشعور غريب.. لا أعلم سببه.. أهي الأدوية.. أم معاملتهم لي.. أم ابتعادي بالفعل عن كريم؟! لا أعلم.. أشعر بأنني أعيش الآن كما يريدون ولستُ غاضبة إلى حد المقاومة.

استقبلتُ توفيق عاديًا ولم أترك المكان.. ضحكت أمامهم كسابق عهدي.. طلبتُ أن نخرج لمشاهدة الفيلم في السينما كما وعدوا من قبل.. وفرحوا بذلك وهم يتبادلون نظرات الانتصار.

في موعدي الثاني مع الطبيب.. وأقول الثاني لأن اللقاء استمر بشكل أسبوعي لمدة أربعة أشهر، يتفاعل معي الطبيب، ولم يطلب خروج أحد من الغرفة، على أن التوتر بدأ يتلاشى، لكن يجب الاستمرار في تناول أدويته مع استمرار اللقاءات.. يبدو أنه استمرأ وجود زبائن مثلنا يؤمنون به ويدفعون له!

ظللتُ على هذا الوضع حتى بدأ العام الدراسي الأخير، اختلقوا أكثر من سبب كي لا أذهب إلى الدراسة الأسبوع الأول.. لم أعترض.. أقول في داخلي "عادي" ثم أندهش من أفعالي وصمتي. يسافر توفيق إلى الدولة التي يعمل فيها، فقد طالت إجازته واستنفد كل أعذاره. في المطار، وقد أصر أبي على توصيله إلى المطار، وأن أرافقهما، يعدني، بسعادة، بأنه لن يمر أسبوع إلا ويتصل بي كي يطمئن، ولن يعود إلا مع نهاية العام الدراسي الأخير لنتزوج ونسافر معًا، أومئ له برأسي ولا أعلم لإيماءتي معنى، إلا أنه يبتسم في سعادة.

مع أول الأسبوع الثاني في الدراسة، أدخل الحرم الجامعي فإذا بي أشعر بشيء غريب، حالة نشاط روحي.. أشعر بالهواء الذي أتنفسه.. أدركتُ أن لي عينين تشاهدان الحياة من حولي.. فجأة رفعتُ كفي أمام وجهي أحرك

أصابعي.. ماذا يحدث؟! وكأني كنتُ في غيبوبة وأعود منها إلى عالم الوعي بشكل تدريجي، حتى أعضاء جسدي منفصلة بدأت تتحرك للمطالبة بما كانت تفتقده على ما يبدو.. المعدة تئنُّ في حاجة إلى طعام رغم الإفطار الذي أصرت أمي على تناوله قبل خروجي، وأنا منذ فترة أتناول طعامها ولم أشعر له بأي تأثير من حيث الطعم أو الرائحة، وأنا من الأصل لم أشعر لا بجوع أو بشبع.. الآن معدتي تئنُّ.. أشعر بجفاف حلقي يهفو إلى مشروب الجوافة وأن يكون من يد كريم. أصابعي تتحرك تبحث عن أصابعه لعناقها.. أملأ صدري بالهواء الذي يحتوي على عبقه.. ماذا يحدث؟! مَن أنا.. ومَن تلك التي كنتها في المنزل قبل ساعة؟!

تتلقفني "منى" باكية.. بعد قليل أعلم أنها اتصلت أكثر من مرة إلا أن أمي كنت تخبرها مرة بأنني نائمة ومرة بأنني في نزهة مع توفيق "خطيبها"، وتؤكد لها كلمة "خطيبها"، وهكذا حتى يئست وانتظرت أن نلتقي مع الدراسة، وفي الأسبوع الأول كادت تجن هي وكريم.. ضحكتُ وأخبرتها أنا موجودة الآن وكفى.. أنا معكم.. أين كريم؟! هيا كي نبحث عنه يا "منى".. وتتأملني "منى" مرتابة، فأجذبها من يديها ونبحث عن كريم حتى ألتقيه.

يا حبيبي تعالَ.. تلاشت من حولي الأجساد إلا هو.. تلاشت البنايات وبقيت الزهور.. غابت الأصوات إلا تغريد الطير.. تعالَ يا حبيبي إلى أحضاني.. وكانت الأحضان.. عبر الأيدي.. ظاهرًا تسلم.. وباطنًا تعشق.. تتبادل القبلات والآهات.. تتبادل العشق.

قبل أن يسأل أحد أي سؤال تقليدي.. أخبرتهم أنني هنا الآن.. لا أريد أي مناقشة في تفاصيل مضت، اتسعت نظراتهم.. زادت دهشتهم.. لكنهم في النهاية رضوا صاغرين.

تنتهي المحاضرات ونجلس أنا وكريم في مكاننا المفضل، ويأتي بمشروب الجوافة.. أرتشف معه حبي، وترتوي روحي حتى ينتهي اليوم.. نفترق وشوق العمر يغمرنا حتى نلتقي في الغد.

أعود إلى المنزل، على أعتابه أُلقي روحي العاشقة ومعها ابتسامتي وشوقي المرسوم على ملامحي، أجدني أرتدي شخصيتي التي كنتُ عليها خلال الأيام الماضية، أتحدث مع أمي بهدوء.. أداعب أبي.. نأكل.. أبدأ في غرفتي في وضع جدول للدراسة، لم يلحظ أحدهما أي تغيير، يبدو أنهما كانا في انتظار تغيير ما يحدث بعد يوم الدراسة والمؤكد فيه أنني تقابلتُ مع كريم.. أنا نفسي مندهشة مما حدث اليوم في الجامعة وما حدث لحظة عودتي إلى المنزل، وكأني في كل منهما شخصية غير الأخرى، لم أهتم كثيرًا..

في اليوم التالي، حينما وصلتُ إلى الحرم الجامعي ألفيتني أعود إلى "هدى" المرحة العاشقة، أبحث عن كريم والأصدقاء.. نتحدث.. نلهو.. نتحاور.. نختلف.. نقرأ الأشعار.. نستمع إلى أحدث الأغنيات لجيل الشباب الصاعد خلال هذه الأيام.. كلنا حيوية وطاقة وأنا أولهم.. الابتسامة لا تفارق وجهي، تتملكني الدهشة، أحبسها بداخلي، كيف أكون هكذا بينما في الصباح وقبل أن أترك منزلي كنتُ صامتة مثل تمثال شمعي، مجرد حركات بلا روح أتعامل بها مع والديَّ.. أمط شفتي وأعيش لحظتي.

يمر أسبوع على هذا الوضع.. هدى في الجامعة غير هدى في المنزل.. أشاهد الشخصيتين وألحظ ما بينهما من اختلاف، لم يداخلني قلق ما.. بل ابتسمت راضية عن أدائي الجيد للشخصيتين.. أداء أستحق عليه جائزة أفضل ممثلة.. أضحك على ما وصل إليه خيالي.. أي أداء تمثيلي أيتها البلهاء.. هو أداء طبيعي.. أنا لا أؤدي أي دور.. أنا في المنزل طبيعية وفي الجامعة طبيعية، وإن اختلفت تفاصيل طبيعتي هنا عن هناك.. أمر غريب ويدعو للتساؤل!

في اللقاء التالي مع الطبيب أخبرته بما يحدث.. يضحك بسخرية.. لا تعليق.. يبدأ حديثًا طويلًا عن ذلك التغيير الذي حدث في حالتي منذ أتيتُه ولا ينبغي أن أهتم بالتفاصيل الغريبة التي يجذبني إليها الشيطان.. نعم.. قال ذلك وأفاض.. قررتُ ألا أتحدث معه في هذه التفاصيل مرة أخرى.

في المنزل أخبرتُ والديَّ أنني لا أريد الذهاب إلى الطبيب مرة أخرى، لقد شُفيت تمامًا.. أخبرتهما أنني برئتُ من مرضي الذي لم أعترف بوجوده يومًا ما، فما كان منهما إلا أن وافقا شريطة أن نذهب إليه مرة أخيرة في الموعد القادم.

بعد أيام، في الجامعة، تركتُ المجموعة وصعدتُ إلى مكتبة الكلية، بحثتُ عن قسم علم النفس، وهناك تجولتُ بين الكتب حتى عثرتُ على كتاب بعنوان "معجم الأمراض النفسية" حملتُ الكتاب وذهبتُ به إلى مكان قصي يجاور نافذة المكتبة التي تطل على حديقة واسعة، تتسلل أشعة الشمس إلى المكان، تبث بداخلي راحة فأغرق في المقعد لحظات وأملأ صدري بالهواء،

همهمات بسيطة تصدر عن عدد غير قليل من طلبة يتناثرون في المكتبة، كل منهم يبحث عن موضوع ما، كنا ندخل المكتبة بالساعات نبحث بين عشرات الكتب، نتصفح ما نعثر عليه حتى نصل إلى الموضوع المطلوب.. ننجز المهمة في نفس اليوم أو خلال أيام، لم تكن الشبكة العنكبوتية قد ظهرت بعد والتي سوف تغير سلوك البشرية.

أبحث وأبحث في معجم الأمراض النفسية ولا أجد أي تفسير لما أمر به، مصطلحات علمية غريبة وتفسيرات أكثر غرابة وكلها مترجمة عن أصول أجنبية لا روح فيها ولا أمثلة أو نماذج من حياتنا نقترب عبرها إلى الموضوع! أترك المكتبة.. وألتقي كريمًا.. نعيش السعادة.

بعد فترة طويلة، وقد أَلِفتُ طبيعتي الجديدة المتفرع عنها هدى في المنزل وهدى في الجامعة، أو بمعنى أكثر دقة، هدى مع أسرتي وهدى مع حبيبي وأصدقائي. أتعرف إلى زميلة جديدة اسمها "دعاء" يأتي بها أحمد، في السنة النهائية بقسم علم النفس، بعد عدة أيام من تعارفنا، أقترب منها، أخبرها عن جارة لي يحدث لها أمر غريب، ثم أحدثها عن تفاصيل الشخصيتين المنبثقتين من جسد واحد، تزوم لحظات تنم عن جهل بالأمر، تأخذ بيدي إلى أستاذ مادة "العلاج النفسي" وهناك.. أمام مكتبه، تدخل إليه دعاء.. أقف أنا صامتة شاردة.. بداخلي أكثر من رغبة. أمد يدي في الفضاء أتعلَّق بيد كريم الذي يتجسد في خيالي.. أفيق فأجدُ نفسي غريبة في مكان غريب، أمط شفتي دهشة، ماذا أفعل؟! لا أعلم.. أترك المكان بسرعة، هل أعود إلى كريم؟! لا أعلم.. هل أعود إلى دعاء ومدرس مادة العلاج النفسي؟! لا أعلم..

أتحرك ناحية البوابة الرئيسية للجامعة عدة خطوات.. ثم أعود إلى الداخل في اتجاه المجموعة عدة خطوات ويتكرر الأمر عدة مرات.. أزفر بشدة.. لِمَ لا أستقر على أمر واحد؟! لِمَ لا أتحرك إلى الأمام كما تريد ذاتي؟! التحرر مِنَ أي قيد حتى من قيود النفسَ هو قمة الحرية.. كيف لعاشقةٍ مثلي ألَّا تزهد في الكون؟! والعشق تحرُّر من كل قيد، والعشق أسْرٌ تحت يد قلوب العاشقين.. وقلبي عاشق ونفسي تعيش عبودية الأسر ورغبتها والكون وأوامره! تائهة ولا شاطئ آمن كنتُ.. ومنتهى التضارب ما أعيشه!

سوف أترك الجامعة كي تحتويني غرفتي وظلمتي.. فيها لن أعاني التشتت.. فيها أعيش عاشقة بين أحضان حبيبي.. إنها قصة حبي التي لم ولن تتغير ولم ولن تتأثر.. أعيش بها ومن أجلها أحيا وبروعاتها أكتفي.

في طريقي العودة كنتُ مندهشة مما فعلت. في اللقاء التالي مع دعاء سوف أخبرها أنني ذهبتُ إلى الحمام وعندما عدتُ إليها لم أجدها. ما إن وصلتُ المنزل نسيتُ كل شيء ودخلتُ، بعدما استبدلتُ ثيابي، إلى المطبخ لمساعدة أمي في إعداد الطعام.

يعود أبي من عمله.. على المائدة نتحدث عن أي شيء.. لقد عاد الحوار كما كان قديماً، يرن جرس الهاتف تلك الرنات الطويلة الدالة على أنه اتصال من خارج المحافظة، والرنات الطويلة للهاتف تميز الاتصال الآتي من خارج المحافظة أو من خارج الدولة، أما الرنة القصيرة فهو اتصال داخلي. إنه توفيق بلا شك.. فهذا موعد اتصاله، منذ أن سافر وكل أسبوع يتصل، يجيبه والدي، وإذا كنتُ موجودة يعطيني سماعة الهاتف كما يفعل الآن، ألتقطها

وأجيب عن أسئلة توفيق بهدوء.. لا انفعال ولا توتر في أسلوبي معه كما كنتُ سابقًا..

الشهور التالية تمر عليَّ بنفس التفاصيل.. حتى اعتدتُها فنسيتُها.. لم أعد أفرِّق بين هذه أو تلك.. أنا هدى فقط، لكن لكل مكان تفاصيل خاصة به، براعتي كانت في عدم الخلط بينهما، الحقيقة أني لم أدرك كيفية الانتقال أو توقيته، يحدث بشكل تلقائي.. يبدو أني نجحت في ذلك لأني، كما ذكرتُ، نسيت الفارق، ولأن أحدًا لم يسألني عن تفاصيل تخص الآخر، جميعنا ارتضينا بأن تسير الأحداث هكذا.

لكن السؤال الذي لم أجد له إجابة، وكنتُ أترك البحث عنها باستمرار، ماذا يحمل الغد؟!

فليأتِ بما يريد، لم أعد أمتلك القدرة على المواجهة، أعيش حياتي ساعة بساعة.

أيام وتبدأ امتحانات نهاية العام الدراسي الأخير، في داخلنا اضطراب نخفيه لأننا نخشى البحث عن إجابة لتساؤلاته، ما نمتلكه الآن هو أن ننهل من بحر العشق يا حبيبي، يجيبني كريم بأن يضم يدي بين راحتيه ثم يُلقي قُبلة عبر الفضاء بيننا. لا نفترق إلا مع غروب الشمس كل يوم.

في هذا اليوم الأخير للدراسة، لن نعود إلا بعد أسبوع للامتحانات، أمضينا معظمه داخل الحرم الجامعي بين الأصدقاء، اتفقتُ أنا وكريم على أن

نستكمل اليوم في الخارج، نتجول قليلًا، نتناول الطعام معًا، نشرب العصائر والآيس كريم، ندخل السينما الحفلة الأولى التي تنتهي عند التاسعة مساء.

درجة الحرارة مرتفعة في نهاية شهر مايو، تحللتُ من غطاء رأسي حول رقبتي، تركته ينسدل على كتفيَّ، أتأبط ذراع كريم وفي يدي الحرة الآيس كريم، لقد تناولنا منذ قليل أطباق الكبدة (الإسكندراني) التي يفضلها كريم وأحببتها من بعده.

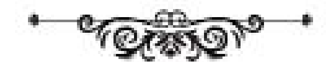
سكون وهدوء لم أعهده من قبل يعم الكون من حولي، سكون يقبض النفس.. الوجوه في الشوارع صامتة، تبعثرت من فوقها الابتسامات.. غاب المرح.. تلاشت قدرتي على قراءة العلامات والرسائل الكونية، أنفض جسدي وأتمطى وأملأ صدري بالهواء، ثم أغوص برأسي إلى صدر حبيبي.

في قاعة السينما، في منتصف العرض، أشعر باضطراب رهيب وانقباض في أحشائي، يشعر كريم بتوتري من يدي بين راحتيه، يهمس متسائلًا، أطلب منه أن نغادر.. يحقق رغبتي مباشرة، خارج السينما يستفسر بهدوء، أجيبه بأن لا شيء، أريد المغادرة وحسب. قبل أن يلح في معرفة سبب تغيير جدول يومنا الأخير أشير إلى سيارة أجرة، أودعه سريعًا، يشد على يدي وقد انتقل إليه توتري، يقول:

- نلتقي غدًا في الجامعة.. كي أطمئن عليك وأيضًا آتيكِ بالملزمة التي نسيتها اليوم.

أومئ له بالموافقة.. ثم أركب السيارة التي تعود بي إلى المنزل.

أمام المنزل أشاهد حركة غريبة.. يزداد الانقباض، أسمع صوتًا يصرخ.. صوتًا أعرفه جيدًا، إنها أمي.. فجأة تتلقفني جارة تسبقها دموعها، تضمني بقوة خوفًا من سقوطي أرضًا وهي تقول: "البقاء لله.. تُوفي والدكِ يا هدى".



وذات يوم يُلقي الجميع أثقالهم إليك..

وتبعة أخطائهم عليك..

فلا تبتئس، واعلم أنك تُولد من جديد.

(٣٠)

القاتلة

لا أذكر ما حدث لي يا حبيبي.. ولا أعلم ما حدث لك الأن وأنت تمر من أمام عيني وجسدك متخشب وتزوم مثل مريض بالصرع، يكفيني ما بي من آلام يا حبيبي.. لا تشق قلبي وتفطره حينما يراك تتألم هكذا.

قيل لي بعد أن أفقت من غيبوبتي أن والدي عاد إلى المنزل يخيم عليه صمت ويحتويه حزن ولا يريد أن ينطق بكلمة واحدة، رغم محاولات أمي المستميتة في معرفة ماذا حدث له بالخارج وأحزنه بهذا الشكل.. تمر ساعة وهو على هذا الحال قبل أن ينطق باسمي و.. باسمك يا حبيبي.. ثم آخر كلمة هي اسم السينما التي كنا فيها معًا، بعدها يفارق الحياة.

يفارق الحياة في اللحظة التي ينقبض فيها صدري وأطلب منك مغادرة السينما، رسائل وإشارات تنطلق في فضاء الكون لا حاجة لها في وسيلة تعبر خلالها.. إنها تلك التي أتتني من أبي قبل أن يفارق الحياة.. إنها الرسالة التي

ترجمتها أمي في جملتها التي قالتها لي حينما عادت في نهاية اليوم التالي، بعد انتهاء المراسم كافة، وهي تنظر ناحيتي بمنتهى القوة، في وقت كنا فيه نحن الاثنتين في أمسِّ الحاجة لأن نرتمي في أحضان بعضنا البعض لنبكي فقيدنا، وتقول:

- لم يتحمل قلب أبيكِ أن يشاهدك مع هذا الخائن تدخلان السينما.. مات بالسكتة القلبية.. مات بسببك يا هدى..

نعم يا حبيبي.. قالت ذلك وما لم تنطق به وظهر في نظراتها كان أشق وأقسى.. ولزمتُ الصمت حتى حد الخرس.. لم أنطق بكلمة واحدة وأنا أُجبر على ترك غرفتي والجلوس في الصالة بين المعزين أرتدي الأسود الذي يحاكي بشرتي.. بماذا أنطق وأنا لا أشعر بذاتي.. فَقْدُ والدي مصيبة لم أتوقع حدوثها ولو لحظة واحدة، صدمة أصابت عقلي بشلل تام.. حتى دموعي جفَّ نبعها.. لا أعلم كيف أنا الآن.. لكن ما أعلمه هو أنني أرغب في شيء واحد فقط، أن تضمني بشدة.. أن تحتويني يا كريم.. أن أبكي على صدرك..

لقد كان هناك موعد بيننا ولم أستطع أن أغادر إليك بالطبع.. كنتُ أفكر كيف تنتظرني، وأفكر كيف يشرد خيالك بحثًا عن سبب لعدم ذهابي إليك.. تخيلتُ أنك سوف تحاول الاتصال تليفونيًّا رغم تحذيري لك من قبل بألا تتصل.. لكن لم يصل خيالي إلى درجة أن تأتي إلى البيت.. أن أراك تمر من أمامي في صالة بيتي يا حبيبي ولا تشاهدني وتدخل غرفة الصالون

بصحبة أحد الأقارب ثم تتبعكما أمي بعدما يهمس في أذنها قريبنا هذا.. ماذا أخبرها؟!

تدخل الغرفة وتغلق الباب خلفها.. غرقي في الأسود بين عدد من القريبات يؤكد أنك لم تشاهدني، وكيف تشاهدني وأنت صريع هكذا؟ يخرج مَن اصطحبك من الحجرة يطلب كوب ماء على عجل.. أعلم أنه لك.. يا ويلتي! أنت في الحجرة المجاورة ومؤكد تجلس فوق مقعد جلستُ أنا عليه ألف مرة وتطلب كوب ماء.. وأنا جالسة مثل تمثال لا أتحرك.. لا أهرول وأحمل إليك الماء.. لا أتلقّى جسدك على صدري وأسقيك شربة ماء من يدي.! يا لمصيبتي! يا لمصائبي التي تتوالى! كم سمعتُ أنها - المصائب - لا تأتي فرادى.. اليوم اختبرتها بنفسي وليس السماع كما الاختبار، التجربة مريرة يا حبيبي وتمنيتُ أن تكون بجواري.. واستجاب القدر وأتيت إلى جواري.. لكنه إتيان تعذيب.. إنه القدر يمعن في تعذيبي يا كريم.. أنت بجواري ولا تراني.. أنا لا أستطيع أن أقترب منك، يتزايد ألمي مع ألمك.. لم أشاهدك من قبل هكذا.. هل تعلم إلى ما ذهبتَ يا كريم؟! أنت مثل دمية.. أنت مريض بالصرع يزوم.. قلبك ينتفض.. ذهبت النضارة عن وجهك واحتله اللون الأصفر.. حلقك جاف مثل صحراء صيفية يتحرك باحثًا عن ارتواء فلا يجد.. يداك متشنجتان وتمدهما أمامك تعصر إحداهما الأخرى.. يداك يا حبيبي اللتان عشقتهما يداي.. تنهل منهما رحيق أرتوي به.. أذكر عناق الأيدي ورجفة القلوب.. يداك تمسح عن وجنتي دمعة.. كم أنا في حاجة

إليها الآن! كن لي يا كريم ولا تتركني.. لم يعد لي في الكون غيرك يا حبيبي.. رحل أبي بدون إنذار.. أمي تحملني وزر رحيله.

ماذا يحدث داخل الغرفة، خلف هذا الباب الذي قلما يُغلق؟ تمر الدقائق ثقيلة ثقل جبل.. أخيرًا يُفتح الباب ويخرج ذلك الرجل الذي اصطحبك لحظة دخولك.. يا لوعتي! إنه يسندك.. لا تستطيع التحامل على قدميك.. تجرهما.. يخرج بك من باب الشقة.. لم ترَني.. فأنت شِبه غائب عن الوعي.. كم كنتُ في حاجة إلى نظرة منك أشدد بها أزري! كم أود لو تحتويني يا حبيبي كي تخفف عني ما أنا فيه من هوان وانهيار! كم أود لو أحتويك كي تعود إليك روحك! لكنها أمنيات لن يمنحنا الكون إياها.. ولو كان مانحًا.. لترك فيض عشقنا يجري بلا عقبات.. بلا مصائب تتوالى.. تختفي أنت ومرافقك من أمام ناظري..

من باب الحجرة تظهر أمي وعلى وجهها نظرات نارية ترمقني بها.. لم تكن شاهدتْ كريم من قبل.. الآن يبدو أنها علمت أنه هو.. نظراتها نحوي تؤكد ذلك.. تقترب في هدوء.. تقف أمامي لحظة.. أنظر إلى أعلى.. جسدها المنكمش حزنًا بدا فارعًا قويًّا.. أرنو إلى عينيها في انتظار طلقاتها النارية.. تتراجع عما كانت تنتويه وهي تلحظ العيون من حولها تتابعها.. تجلس قبالتي وهي تزفر بشدة، تلقي كلماتها على سبيل التقرير: "لسنا حِمل مصائب أخرى"، ثم ترمي بعينيها الشرر ناحية باب الخروج الذي غادره كريم منذ لحظات. هكذا تراك يا كريم.. مصيبة أخرى تضاف إلى المصائب التي تتسابق نحونا.

أيام تمر لا أشعر فيها بأي حياة، جسدي يذبل.. الدماء هاربة.. شحوب تام ولون أصفر مثل الليمون كما تقول أمي وهي تصر على أن أتناول الطعام.. أمي، رغم كل شيء، هي أم.. أعلم أن ما تفعله معي ينبع من حرصها، وفقًا لتفكيرها، على صالحي العام، وعن التفكير والمعتقد ينتج السلوك.. والاختلاف الفكري ومن ثم السلوكي طبيعة بشرية، يتمسك بها وينفذها الكثير ويتنازل عن أفكاره البعض.. أمي تتزايد رغبتها في تحقيق ما تعتقده الصالح وما كان يعتقده أبي أيضًا.. أنا أتخاذل وأتنازل عن أفكاري..

لا.. لن أتنازل عن أفكاري حتى يومي الأخير على هذه الأرض، أفكاري تخصني وحدي.. ما بين عقلي وقلبي تعيش روحي العاشقة.. أما جسدي فليفعلوا به ما يشاؤون.. أنا أعيش بروحي وأنت روحي.. أعيش متصوفة عاشقة.. إنها المرحلة العليا من الحب يا حبيبي.. أن تعيش الحب بالحب.. تترك الكون من حولك ليذوب بداخلك عشقًا حتى تتجسد الروح بعيدة عن الجسد الفاني.. تتشكل مصوغة من العشق.. منك يا حبيبي.

أسبوع ثان يمر منتصفه بعد رحيل أبي.. أيام قليلة وتبدأ امتحانات نهاية العام.. نهاية الحياة التعليمية كاملة.. نهاية ذهابي إلى الجامعة.. هل تكون نهاية لقائي بك؟!

يستطيع توفيق خلال هذه الأيام أن يعجل بإجازته، أعلم مستقبلا أنه جعلها عدة أشهر لأنها الإجازة السنوية وإجازة الزواج.. نعم.. لقد رتب أموره، وفقًا لرغبة أمي، على أن يتمم كافة التفاصيل خلال فترة الامتحانات، فإذا ما انتهيتُ تزوجت!

في يوم الامتحان الأول توشحتُ باللون الأسود، باللون الشاحب يكسو وجهي، أتلقى العزاء من الزملاء فتتسابق دموعي، تحتويني "منى" باكية معتذرة.. كريم لم يخبر أحد إلا من ساعة.. أين كريم؟ بحثتُ عنه فإذا به يقف في جانب ما يرقبني حتى ينفضَّ من حولي الجمع.. ولم ينفض حتى موعد بدء اللجنة.. ندخل جميعًا، تتلاقى أعيننا وفي فتحة باب الدخول تتماس أصابعنا خلسة.. ثم نفترق.. كلٌّ إلى مكانه.

بعد الامتحان نلتقي في مكاننا الخاص.. الصمت يخيم وقد سبقه الحزن ليحطم أي لذة باللقاء.. فجأة.. وأحسبها أنها المرة الأولى منذ وفاة والدي.. أبكي.. نعم أبكي.. قلبي ينتفض مكانه متوجعًا متألمًا.. الآهـــــــــة تخرج من بين أضلعي حارَّة.. صورة والدي تُحلِّق حولي.. يهتز جسدي كله منتفضًا كمحموم.. رغم مرور أيام فإنني الآن فقط أشعر بأن هذا هو البكاء الحقيقي.. البكاء الذي يأتي من بعده راحة.. نيران مكبوتة تخرج من صدري الآن يا حبيبي.. كم أتوق إليك! وكم أخشاك الآن! في لحظات الحزن نحن في أمس الحاجة إلى حبيب يحتوينا.. وما الاحتواء غير أن أرتمي على صدرك.. أن تضمني بقوة.. أن تبثني الحياة عبر قبلة طويلة.. لكن.. هل يُباح ذلك الآن وأنا أبكي فقيدي؟!

مُحير.. معجز أمر هذا الإنسان!

لقاء طويل يجمعنا أغلبه صمت وبكاء.. كلمات عزاء ومواساة.. المفاجأة.. موت أبي المفاجئ قد أصابنا جميعًا بصدمة، فأنت كما أخبرتني توجستْ خيفة حينما لم آتِ في موعدنا.. لم تُرجِّح الاتصال التليفوني، سيارة أجرة تصل بك

إلى بداية الشارع الذي يتوسطه منزلنا، من بعيد تشاهد تلك المقاعد المنتشرة وأعداد المعزين، يسقط قلبك وترتعش أطرافك.. منذ اليوم السابق، لحظة توتري وخروجنا من السينما وأنت تنتظر صدمة قاسية، لا تعلم تفاصيلها، ومَن منا يعلم ما يخبئه القدر يا كريم.. تقترب من محل بقالة وتسأل صاحبه، وأنت تنظر ناحية منزلنا وما أمامه من مظاهر، عن اسم المتوفَّى فيخبرك باسم أبي.. يتزايد اضطرابك وتتشنج أطرافك وتتسارع أنفاسك ويعجز لسانك عن النطق، فلا تعلم ما أنت فاعله.. أفقتَ لتجد نفسك ممددًا على أريكة في غرفة بمنزلنا وأمامك مَن يعطيك الماء لترتوي.. وأمي تحدق إلى وجهك تسأل: مَن أنت؟! فقد صعدوا بك إلى شقتنا بعد ما شاهدوه عليك من حالة هي أقرب إلى الإغماء.. وما يصل إلى هذه الحالة من تأثير الحزن إلا قريب أو عزيز.. فصعدوا بك.. وتسألك أمي ولا تجد مفرًّا من أن تجيبها بالحقيقة: "أنا كريم... زميل هدى بالجامعة"، ولم تتحدث هي إلا بكلمات مقتضبة تطلب فيها مغادرتك الشقة وحياتنا ولخصتها هي أمامي: "لسنا حِمل مصائب أخرى".

آه يا حبيبي! تحكي لي ما حدث وقد فرَّت دمعة أبيَّة لتسقط على خدك الأيسر.. أتبكي حزنًا على ما فقدتُ أنا.. أم حزنًا على ما أصابك من همٍّ.. أم حزنًا على ما طلبته أمي منك.. أم على حالنا كله؟! وحالنا كله هو ابن الحزن!

تمر مدة الامتحانات ونحن على نفس التفاصيل.. نلتقي في الصباح قبيل موعد اللجنة بساعة.. تسترجع معي المادة سريعًا.. نتبادل نسمات الحب.. نؤدي الامتحان.. نخرج لنجلس معًا حتى تسقط شمس اليوم إلى مقبرتها اليومية.. أعود إلى المنزل لأجد توفيقًا يجلس مع أمي يرتب التفاصيل كافة..

اقترب موعد الزفاف.. يعتذر توفيق عن أن الظروف الصعبة سوف تمنعه من إقامة حفل زفاف يليق بي.. أهمس بهدوء:

- ألا يستحق المتوفَّى أن نؤجل موعد هذا الزواج؟ فقلوبنا غارقة في بحر الحزن.

يمط توفيق شفتيه وينظر ناحية أمي يستغيث بها، تجيب بوجهها العابث:

- الحزن على الحبيب الراحل لن تمحوه الأيام مهما تطل.. وسعادته الآن في زواجك.. وبعد نهاية الامتحانات بأيام قليلة يكون "الأربعين".. الخميس التالي له نتمم الزواج.

أشعر كأن جسدي مكوَّن من عشرات القطع التي تتساقط الآن قطعة تلو الأخرى، لا يستطيع توفيق أن يخفي سعادته، تنتشر الابتسامة على وجهه وهو يمد يده ليحتوي راحتي ويقول بلهجة مصطنعة يغلفها بالشوق والحزن:

- سوف أعوضك يا هدى.. أنا موجود لأخفف عنكِ أحزانكِ.

تركتها ودخلتُ غرفتي أبكي.. أبكي حتى شعرتُ بأن حصتي في البكاء، والمخصصة لي على مدى عمري، قد نفدت. فلم ولن أنسى ما حييت تلك الجملة التي قالتها لي أمي "لم يتحمل قلب أبيكِ أن يشاهدك مع هذا الخائن تدخلان السينما.. مات بالسكتة القلبية.. مات بسببك يا هدى" لقد أصبحتُ قاتلة أبي.. ارتكبتُ هذا الجرم وعليَّ أن أكفر عن خطيئتي إلى يوم ألحقُ به في عالمٍ آخر.

***

والهروب إلى الداخل خير من مواجهة خاسرة
في بعض الأحيان.

(٣١)

الزواج

لا أعي حقيقة هذا الأمر.. لكنه كما قيل لي بالحرف الواحد "استعدي يا هدى.. زفافكِ يوم الخميس القادم"، أي بعد ثلاثة أيام..! أعدوا كل شيء.. انتهى توفيق من تجهيز الشقة.. اتفق على تفاصيل الزفاف كافة.. حفل هادئ نظرًا للظروف.. ننتهي منه سريعًا ثم نغادر إلى شقتنا!

لم أخبر أحدًا بتلك التفاصيل وأنا غير مؤمنة بها.. أترك نفسي في يد القدر.. يحركني كيفما يشاء، قد يحدث أي أمر ويتغير مجرى الأحداث.. لا أعلم يتغير إلى ماذا.. لكنه قد يتغير.. قد أفارق الحياة فجأة كما غادرها أبي.. قد تنتهي حياة توفيق.. قد نتزوج.. قد أهرب فجأة وأنا أرتدى فستان فرحي لأتزوج بكريم.. أى شئ قد يحدث.. وأيًّا ما كان.. سوف أتقبله.. بجسدي.. أما روحي.. فأنتم أعلم بمستقرها.

في اليوم التالي، أي قبل الزفاف بيومين، قابلتُ كريمًا.. تبادلنا كل تفاصيل العشق، رفعتُ أنامله إلى شفتيَّ أقبلها في عشق.. وقبيل الرحيل.. وفي شفق أخير أكتوي بناره ألقي رأسي على صدره وأحتضن كفيه في صدري.. أشعر بأنفاسه الملتهبة.. أرفع رأسي أرنو إليه.. ترتعش شفتاي.. متعطشتين إلى "قُبلة".. أقترب.. فيقترب.. تتعانق الشفاه في قبلةٍ تمتد إلى ما لا نهاية.. تنتهي في لحظة.. تبثني شفتاه أشواقه لتسري في جسدي مجرى الدم، أبكي.. يتأملني في دهشة.. هو سعيد بتلك اللحظات.. ولا يعلم أنها قد تكون الأخيرة.. آه يا حبيبي! يا لشقائنا! يا ويل قلبينا مما سيحدث لهما بعد ساعات!

نفترق.. وقد فعلتُ ما أريد في هذا اللقاء.. لا بد أن يكون اللقاء الأخير هو اللقاء الأروع.. لتظل الذكرى محملة بعبق تلك الروعة.

نفترق.. وقد أسقيته من رضاب عشقي وأسقاني حتى ثَمِلنا..

نفترق.. وأنا أترك قلبي وروحي في أحضان حبيبي..

في طريق عودتي، أذهب إلى منزل "منى"، وبعد لقاء سريع لم يسعني فيه غير تناول شربة ماء أعطيها ورقة صغيرة مطوية عدة مرات، كتبتُها في الصباح واحتفظتُ بها في حقيبتي، أقسم عليها بألا تفضها لتقرأ محتواها إلا مساء يوم الجمعة القادم إن لم أتصل بها لأي ظرف، من بين دهشتها تعدني بذلك، وطالما وعدتني "منى" فهي صادقة ولو قدمت حياتها فداء لوعدها.

وكان محتوى القصاصة المطوية، والذي ستقرؤه "منى" وتشهق فزعًا ثم تبكي ألمًا، كما يلي:

"حبيبتي وأختي منى.. لقد تزوجتُ بالأمس بتوفيق.. لا تحزني لأنكِ لم تشاركيني هذا اليوم.. وهو يوم ليس كاليوم الذي تتمناه أي فتاة.. أخبر كريماً بأمري.. وأخبريه بأنهم قد أخذوا جسدي، لكن قلبي سيظل ينبض بحبه إلى يوم وفاتي.. وعدتُه بذلك من قبل.. وهأنا أُجدِّد الوعد، في فرصة مناسبة سوف أتصل بكِ يا "منى" كي نلتقي".

وأتى يوم الخميس الأسود.. وليس أسود لأنه فرق بيني وبين حبيبي وألقاني إلى أحضان رجل لا أحبه فقط، إنما هو أسود كئيب لما حدث فيه.. حتى المدعون على قلة عددهم صامتون كـأنهم في مأتم، وكأنهم يبكون حالي.

ينتهي حفل الزفاف سريعًا يخيم عليه حزن قاتل، أبكي حبي وعشقي.. أبكي أبي وتشاركني أمي في بكائه.. توفيق هو السعيد.. لكنه مضطرب.. كنتُ أشعر باضطرابه الذي يواريه بكثرة تحركه بين المدعوين، ثم وهو يأتي في اتجاهي ثم يبتعد لأي شأن..

ندخل إلى الشقة.. كل شيء فيها أعده توفيق بدقة.. أضواء لامعة مع فرش وأثاث يبرق أسفلها.. ينثر زخات معطرة في الهواء.. يكشف عن مائدة عامرة بألوان شتى من الأطعمة والفاكهة والعصائر.. أجلس صامتة.. بعد ضغط طويل أمضغ لقيمات.. بعدها يسحبني توفيق إلى غرفة النوم........

بعد محاولات عدة، يبذل خلالها الكثير، يفشل توفيق.. يسيل عرقه ويرتجف.. أتذكر اضطرابه منذ بداية الليلة.. أنا جثة ملقاة فوق السرير..

أتوارى خلف غطاء صيفي أبيض مثل كفن.. يخرج إلى الحمام ثم يعود.. أكثر من مرة.. لا أعلم ماذا يفعل.. لكن في كل مرة يعود فيها.. يحاول.. ويفشل.

وقد اقترب الفجر وذهبت قوتي جراء كل ما تعرضتُ له في أيامي الماضية وفي ليلتي هذه، ثقيلة أجفاني فأغفو.. لحظات أصحو مفزوعة على يد توفيق تهزني وصوته يصرخ ينهرني، أتكوَّم في مكاني فوق السرير أتأمله في صمت حائر ودهشة.. يسقط فوق مقعد في جانب الغرفة.. يتحدث بتأثر شديد، يبدو أنه حاول أن يستدعي دموعه فأبت، يقول:

- أنتِ السبب.. أنتِ السبب..

أهز رأسي مستفسرة.. وبداخلي ضعف يبحث عن إجابة.. هل حبي لكريم هو ما يحول بيني وبينه؟! لا.. ليس هذا بالطبع، لم يتركني في حيرتي.. يكمل قائلًا:

- أخبرني الطبيب في المستشفى بعد الحادث.. قال إن الحادث قد يؤثر على قدرتك الجنسية.. وها هي النتيجة.. أنا اليوم عاجز.. عاجز.

يصمت لحظات يتأملني بعدها في غضب.. يقف.. يقترب.. رافعًا يده إلى أعلى ليهوي بها على وجهي في صفعة مدوية ما تخيلتُ أن أتعرض لها في حياتي، صفعة تلقيتُها يوم زفافي، ثم ألحقها بكلماته الغاضبة:

- لو لم أخرج غاضبًا في هذا اليوم بسببكِ ما كنت تعرضتُ لهذا الحادث وما أصابني هذا العجز.

يخرج من الحجرة وهو في حالة هيستيرية، يغلق الباب خلفه بعنف كاد يحطمه، كانت عيناي المفزوعتان تتأملان الباب والغرفة والليل في دهشة.. غير مصدقين ما يحدث.. متى ينتهي هذا الكابوس؟ متى؟! ثم يتفجر بركان حزني وتنهمر دموعي.

في مساء اليوم التالي، يوم الجمعة، يعود توفيق من الخارج.. بلا مقدمات يسحبني إلى السرير، يجردني من ثيابي.. يُلقي جسدي.. يحاول مرات أخرى..

في هذه اللحظات من ليل الجمعة مؤكد أن "منى" تقرأ كلماتي.. توفيق ينهار.. لعل "منى" تبكي الآن.. يحاول من جديد وقد ألقى في جانب، غير آبهٍ، علبةً يبدو أنها علبة دواء.. لعل "منى" تخبر كريماً الآن.. يفشل توفيق.. يصفعني اليوم ذات اليمين وذات اليسار.. أشهق من شدة الفزع ويخرس لساني من شدة الألم.. أحسب أن كريماً ينصت إلى "منى" غير مصدقٍ.. توفيق يُمسك بساقي وأنا ملقاة عارية على ظهري، تنفر أنيابه ويتشعث شعره وتتدفق الدماء إلى وجهه حتى يتحول إلى اللون الأسود.. يلهث وقد غاب عقله.. يفض بكارتي بإصبعه.. أصرخ غير مصدقةٍ ما يحدث.. مؤكد كريم يصرخ غير مصدق.. توفيق يغادر الغرفة.. تلطخ دمائي الفرش الأبيض.. يشق صراخي فضاء الكون..

يأتي يوم السبت.. يوقظني توفيق ويأمرني بارتداء ملابسي كي نذهب إلى الطبيب، لم أجرؤ على أن أقول له "اذهب أنت.. فأنت المريض ولستُ أنا"،

لكني ارتديتُ ملابسي آملة في الخروج من هذا المكان، في الخارج قد يحدث أي أمر لا أعود بعده إلى هنا.

يترك السيارة ورأسه ينحني فوق صدره، يشير نحوي بأن أتبعه.. لافتة كبيرة تشير إلى مركز طبي متكامل.. يا لوعتي وشقائي! إنها نفس البناية التي أتيتُ إليها مع كريم يوم أن عرض نفسه على الطبيب يشكو له فرط حبي، يبتسم داخلي ألمًا وأنا أتذكر الطبيب حينما طلب منا العودة لإجراء الفحص اللازم قبل الزواج.. هأنا قد أتيتُك أيها الطبيب.. ولكن بصحبة رجل آخر.. أتينا كي نجرى الفحص اللازم.. ولكن بعد الزواج.

لقد تغيرت معالم المكان.. بهو كبير أشبه بصالة فيلا من طابقين تنتشر حوله الغرف.. موظفة استقبال تجلس خلف مكتب أنيق، موسيقى هادئة تنتشر في المكان، مقاعد وثيرة في جانب يجلس عليها رواد المكان.. موظفة الاستقبال التي ترتدي بالطو التمريض توزع المرضى، بالتعاون مع اثنتين غيرها، على الغرف المنتشرة في المكان، وفي كل غرفة طبيب في تخصص مختلف عن الآخرين، مركز طبي متكامل يقترب من المستشفيات الخاصة الاستثارية.

لماذا أتى توفيق إلى هذا المكان بالذات؟! استجمعتُ شجاعتي وسألته هذا السؤال، أجابني ممتعضًا بأن التخصصات كافة متوفرة في هذا المركز بالإضافة إلى التحاليل والأشعة، وهو مركز طبي حاز شهرة في الشهور السابقة، عَلِمَ ذلك حينما بحث بالأمس.

يتأملنا الطبيب لحظات.. الوجوم على وجهينا صادم.. يداخلني شك لحظي في أنه يحاول تذكر "أين شاهدني من قبل".. لن يفلح بطبيعة الحال.. لا يبدو عليه أنه صاحب ذاكرة قوية غير أن رواده كُثر.. وأخيرًا مر قرابة عام على ذلك اللقاء العابر.

"خير.؟" يلقيها الطبيب بعد لحظات الصمت.. يتحدث توفيق، وقد كبت بداخله توترًا وشعورًا بالخزي، قرأتُه على وجهه، بكلمات مقتضبة عما حدث، وكيف أنه تجاهل الأمر بعد كلمات الطبيب المحذرة إبان الحادث ولكن الأمر ظهر خلال اليومين المنصرمين.. و.. وينهي كلماته يتتعتع فيها بأنه فشل.

يبتسم الطبيب وهو يختلس النظر ناحيتي، لا أجد مبررًا لتلك النظرات غير الوقاحة، ماذا يعني بها؟! هل يبحث على وجهي عن علامات ضجر لعجز توفيق.. هل أنا مَن أتيتُ به إلى هنا لأني أتوق إلى أحضانه؟! لو تأتي ريح تدمركم أيها الأغبياء!

يطلب من توفيق التمدد فوق سرير بجانب الحجرة وأن يكشف عن صدره، يتابع ضربات القلب عبر السماعة، يقيس له الضغط.. باختصار يوهم المريض بأنه قد بدأ في العمل الفعلي مثل كثير غيره من الأطباء. بعد دقائق يعود إلى مكانه ويطلب من توفيق أن يأتي. يكتب في أوراقه أصناف أدوية مختلفة ويتحدث في نفس الوقت يشرح أنواع العلاج وكيفية تناوله.. يؤكد أن الأمر قد يعود إلى الاضطراب والتوتر.. يسارع توفيق بالتأكيد على

كلمات الطبيب فقد تعرضنا لظروف أسرية صعبة، يشير ناحيتي، توفي والدها وخالي منذ أيام.

يمد الطبيب يده بالروشتة إلى توفيق، يخبره بأن يهدأ.. ويتناول العلاج من الآن.. وموعد الزيارة التالية بعد أسبوع يكون فيها قد عاد إلى طبيعته. أقف لأغادر.. يوجه الطبيب كلماته إليَّ بأنه يجب علي أن أتعاون مع زوجي، العملية مشتركة بيننا وعلى الطرفين بذل مجهود ملحوظ. كنتُ أرنو بعينيَّ إلى الأرض.. أنتظر أن ينتهي.. يتوقع مني أي كلمة، لكني تحركتُ للخارج بدون أي كلمة.

تبعني توفيق بعد لحظات.. يعطيني مفاتيح السيارة كي أنتظره بداخلها حتى يشتري الدواء من الصيدلية الموجودة بجوار المركز الطبي.

تكررت زيارة أمي ولم أخبرها بأي تفاصيل.. صمتي الدائم أُعلِّله بحزني على والدي.. ما تزال نظراتها، وإن لم تقصد هي، تحمل اتهامًا نحوي.. ذلك الاتهام الذي أخرسني حتى اليوم.. لا أعلم حقيقة الحالة التي أودت بحياة والدي! لكن هذا ما صار إليه أمري.

لكن توفيقًا بعد أيام من تناول عقاقير الطبيب، وفشل أيضًا، يتحدث إلى أمي بالتفاصيل كافةً، يخبرها بأن الحادث الذي كنتُ أنا سببه قد أثر فيه.. يخبرها بأن الطبيب طلب مني مساعدته في العملية الجنسية لكني باردة مثل تمثال.

بهدوء المنكسرة تحدثني أمي بواجبات الزوجة نحو زوجها.. حديث زائف لم ينبع من داخلها، كانت ترجو نجاح العلاقة بأي شكل.. أجبتُها بأنني أفعل ما هو متاح.. لكن الأمر عند توفيق صعب بالفعل يا أمي.. ولا أعلم كيف يؤثر الحادث في حياته بهذا الشكل ولم يكتشفه إلا بعد الزواج؟! يتسرب إليها الشك.. لكنها تهز رأسها وتنهرني بشدة، تلقي جملة أخيرة قبل رحيلها: "لا تستمري في الهدم يا هدى".

أنا سبب كل المصائب، حتى عجز توفيق أنا مسؤولة عنه!

ينتهي الأسبوع الذي حدده الطبيب، ولم يتغير حال توفيق، ما تغير أنا.. استسلمتُ للواقع بشكل مرير، وتخيلتُ لحظات أنني لو استجبتُ له وشجعته لتحرك داخله واستقام أمره وفعل ما يفعله الرجال، فتحاملت.. وأجبرتُ وجهي على الابتسام.. مددتُ يدي للمداعبة.. لكنه إنسان لزج رخو.. الفشل حليفه.

حاولت الاعتذار عن الذهاب معه إلى الطبيب، لكنه أصرَّ على أن أرافقه.. ذهبتُ صاغرة.. وما حدث في المرة الأولى حدث اليوم.. وأخبره الطبيب بأنه سوف يكتب له على أدوية جديدة أكثر فاعلية، لكنه ما ينبغي له العودة إلا في نهاية هذا الشهر، أي بعد عشرين يومًا من الآن..

أنتظر حدوث تغيير.. لن تستمر حياتي على هذا النمط! مجرد التفكير في أنني سوف أظل أسيرة تحت أيدي توفيق مدى الحياة يرعبني.. أنا الآن مرعوبة من هذه الأيام العشرين المنتظرة، وكأن الطبيب بعدها سيخبرني بأن

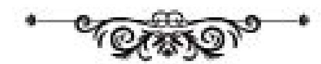
حياتي معه مستحيلة، وأن من الأفضل لتوفيق أن ينفصل عني. هذا ما كنت أعيش على أمله خلال الأيام التالية.

بداخلي لم يخبُ عشقي.. لم تتلاشَ من خيالي صورة كريم لحظة واحدة، حتى إنني تخيلته أكثر من مرة في فراشي بديلًا عن توفيق.. لستُ خائنة كما وُصِفتُ من قبل.. الخيانة هي ما ألقوا بجسدي إليه، لستُ مدانة على خطيئة أرتكبها في خيالي.. إنني مشوشة.. كيف أقول خطيئة.. وكيف أقول غير مدانة!

كنتُ، حينما أُخفي صورة توفيق ليحل محلها كريم، أتعامل مع هذا الجسد بمنتهى العشق، تتدحرج شفتاي على كل جزء.. أضمه إلى صدري.. أعتصر ذاتي.. ثم.. ثم لا شيء.. أفيق.. فأجد توفيقًا يئنُّ كالمحموم ونظراته نحوي نارية. إنه يدرك أنني لا أتعامل معه في هذه اللحظات.. الأمر لا يحتاج إلى عناء كي يُدرك.. لكنه يستحيل عليه أن يعلن عن إدراكه هذا.. فهو إدراك يدين صاحبه والاعتراف به قاتل.

بمنتهى القسوة، في داخلي مع ابتسامة شريرة مكبوتة، أتلذذ بعذابه.. بآلامه.. فليذق مما أجبروني على تجرُّعه.. ولتظل أمي على حالتها من التوتر الدائم، وإن كان بدعوى حرصها على مستقبلي! حتى كريم.. مؤكد هو يتألم.. فليتألم أيضًا.. إنه لم يبذل المستحيل للحفاظ عليَّ.. لم يأخذني ويهرب لإجبارهم على الإذعان.. ولو كان طلب ذلك لفعلتُ سعيدة.. ليتألموا جميعًا.. وسوف أنتقم منهم على طريقتي الخاصة كلما أمكنني ذلك.. الوحيد الذي ارتاح فجأة من كل عناء.. هو أبي.

في هذه الفترة من حياتي لم أكن أدرك فيما أفكر أو كيف أفكر، تحول داخلي إلى بركان.. ظاهري إلى تمثال.. وكأني بي فجأة أسيرة في أرض معادية.. لا شعور بالأمان.. حتى وإن ابتسموا وتعاملوا بالحسنى فأنت في النهاية أسير في أرض العدو.. أتذكر حكايات التاريخ حينما ينتصر قوم ويأسرون السبايا.. ويتخذ منهن قادتهم وفرسانهم زوجات.. وكيف تأمن الزوجة لزوجٍ وهي لديه أسيرته؟!



وحقيقة صادمة قد تؤدى إلى نجاة لم نتوقعها يوما.

(٣٢)

الحقيقة

بعد انتهاء المدة التي حددها الطبيب وفي الزيارة التالية، ذهبنا تسبقنا الكثير من الآمال.. توفيق يبحث عن أي مخرج من حالة العجز التي يعانيها.. وأنا أبحث عن أي نهاية لآلامي يُخيل إليَّ أن الطبيب سوف يرشدني إليها.. لا أعلم لماذا يخامرني هذا الاعتقاد!

يُلقي توفيق مخزونه الناقم أمام الطبيب، ولم ينسَ بالطبع إلى أن يشير، كعادته، إلى أني سبب الحادث الذي أفقده رجولته.. وحتى اليوم لم تنجح معه الأدوية التي وصفها الطبيب.. هنا يحاول الطبيب تخفيف معاناته بأن يحكي لنا عن حالات أكثر تعقيدًا من حالتنا ونجح في علاجها، تمنيتُ أن أقول له: "حالته هو وحده.. وليست حالتنا"، لكني لم أتحدث بكلمة، يتوجه بحديثه إلى توفيق قائلًا:

- المرحلة التالية هي مرحلة إجراء عدد من التحاليل للسائل المنوي وتحاليل لهرمونات في الدم، هرمون الذكورة وهرمون البرولكتين وغيرهم مثل FSH وLH ، ثم لدينا أكثر من مرحلة تالية نتوجه إليها.. (يتساءل توفيق عبر نظرات عينيه عن تلك المراحل، يُكمل الطبيب وهو ما يزال يختلس النظر ناحيتي) مثل مرحلة اختبارات تقييم قدرة العضو على الانتصاب و....(يصمت وكأنه يحافظ على مستوى الحديث احترامًا لوجود أنثى مثلي بينهما.. ينفض يديه ويقول) عمومًا لا تتعجل.. قد لا نصل إلى هذه المراحل، كل ما أطلبه منكما (وهنا يشملني بالحديث والنظرات فيتحفز داخلي وأتمنى أن أقبض يدي اليمنى وألكمه بمنتهى القوة فيسقط بالضربة القاضية ثم أرفع يديَّ نحو السماء أحيي الجماهير التي تهتف باسمي.. فقد سئمت نظراته وعدم إدراكه بأنني لا أهتم بما يقول) أن تصبرا على مراحل العلاج.. الأمر ليس بالهين.

- لكني يا دكتور مرتبط بمواعيد سفر.

- متى؟!

- شهرين من الآن على الأكثر..

- لن أستطيع تحديد المدة.. قد تُشفى خلال هذه المدة.. وقد نحتاج إلى مدة أطول.. وقتها ليس أمامك غير مدِّ الإجازة حتى تنتهي مرحلة العلاج.. والآن اخرج إلى "صفاء" في الاستقبال بهذه الورقة وسوف توجهكما مباشرة.. مع السلامة.

للمرة الأولى منذ فترة طويلة أشعر بأحدهما يأسى لحالي وينظر ناحيتي شفقة، بالطبع غير حبيبي وزملائي في الجامعة، إنها "صفاء" رئيسة فريق التمريض في المركز الطبي الذي نرتاده أنا وتوفيق. نظراتها في البداية كانت غير مبالية، تتعامل بشكل إلى مع الحالات المرضية من كثرة ما يمر عليها، لكنها ما تلبث خلال الزيارات التالية تتفهم الوضع وتعاملني بشفقة ملحوظة.

تتناول صفاء الورقة من توفيق وتطلب منا الانتظار حتى تُجري بعض الحسابات وتحدد المواعيد، بعد قليل تُشير إلى توفيق بابتسامة عريضة مؤكد تدربتْ عليها لمثل هذه المواقف.. لحظات تمر أنشغل فيها بمتابعة المرضى في صالة الانتظار من كل الأعمار ومختلف الفئات.. يلفت انتباهي فتى جميل أنيق في السادسة عشرة من عمره تقريبًا، لكنه يعانى مرضًا ما.. أفعاله وحركاته غير منضبطة وبعضها مفاجئ حيث يجري من مكانه فجأة وكأنه يلحق بشيء ما غير مرئي ثم يقف ليصرخ من فرط السعادة ويضحك ثم يهدأ فجأة ليعود به، إلى مكانه، والده الذي يتبعه في هدوء ولا تفارقه ابتسامته غير خَجِل مما يفعله ابنه أمام الحضور، وهذا أكثر ما أعجبني من هذا الرجل.. تحطَم قلبي المحطم أصلًا على هذا الفتى الرائع ومشاعر والده نحوه حتى ونظرات الناس من حولنا له، من بين الجلوس مَن أتى لأنه يرغب في إنجاب طفل مثل ما يسعى توفيق إلى تحقيقه.. طفل قد يأتي مريضًا مثل هذا.. يرهق أهله..

أفيق على صوت توفيق المرتفع وهو يصرخ في صفاء، ويطلب منها الدخول للطبيب فورًا.. بينما هي تطلب منه الانتظار حتى ينتهي المرضى.. عليها الالتزام بالدور. لم أتوجه ناحيته لاستطلاع الأمر، لا أجد بداخلي رغبة لمشاركته انفعاله..

لم يجد بُدًّا من الانتظار، فأتى ليجلس إلى جواري وهو يزفر بشدة.. يسرد لي ما حدث، معتقدًا أني أتوق لمعرفته!، لقد طلبتْ مبالغ كبيرة ثمنًا للتحاليل المطلوبة وقد دفعها صاغرًا.. لكنها تخبره بأنها قد حددتْ له موعدًا مع نهاية الأسبوع وهذا سبب انفعاله.. إنه يريد أن يجرى التحاليل الآن، صفاء تخبره بأن هناك إجراءات متبعة وتجهيزات تخص اختصاصي التحاليل.. إلخ من الأسباب التي لا دخل لنا فيها.. لكنه يرفض كل ذلك.. هو لا يمتلك الوقت لمثل هذه التفاهات، على حد قوله، لأنه مرتبط بمواعيد سفر، ثم إنه يريد الوصول إلى حل لهذه المشكلة الطارئة.. وشدَّ على حروف كلمة "الطارئة".

بعد وقت يمر على توفيق وهو يزفر.. يخرج ليدخن ثم يعود ليستفسر من صفاء أكثر من مرة.. بينما أجلس صامتة.. أجلس في الخارج على أي وضع وأي مدة أفضل من عودتي إلى الشقة.. السجناء ينتظرون بشوق الخروج للعرض على المحكمة أو الانتقال من سجن إلى آخر.. أي خروج يشاهدون فيه الناس والشوارع.. المهم الخروج من السجن.. هكذا أنا.

تطلب صفاء من توفيق الدخول إلى الطبيب، يتوجه هو إلى الحجرة مباشرة ولم يطلب مني مرافقته ولو طلب لرفضتُ بحجة أنه مجرد استفسار

ويعود، يختفي داخل الحجرة لحظات تقترب فيها صفاء مواسية بكلمات مقتضبة.. بهدوء أهمس لها بأن عليها أن تتحمل انفعالات المرضى التي تنبع من آلامهم.. تجيب:

- لا داعي لما فعله.. ولن يخرج من عند الطبيب بغير ما أخبرته به.. معكِ الله.

قالتها في شفقة وهي تبتعد، هل يبدو على وجهي علامات تدل على ما أعانيه؟! مؤكد.. أم قالت كلماتها لأنها تعلم ما تعانيه المرأة مع زوج عاجز خاصة في بداية الزواج؟! ولكن.. هيه.. تعالي إلى هنا.. ماذا تعتقدين يا رئيسة الممرضات؟! أنا أعاني عجز زوجي؟! يا لكِ من بلهاء! إن ما يحدث لهو أفضل نعمة هبطت عليَّ من السماء في ظروفي هذه..

لم أتحدث بهذه الكلمات بالطبع إنما تدور في عقلي.. أمط شفتي.. قد تكون جملتها مجرد مصادفة! يخرج توفيق وما استطاع أن يغير ما قالته صفاء، يشير نحوي كي أتبعه إلى الخارج وقد زاد غضبه.

تمر الأيام ثقيلة.. معظم وقت توفيق يمضيه في الخارج.. أمي تأتي لزيارتنا كل بضعة أيام.. تحولت زيارتها إلى دروس حول تقسيم النعم والصبر على الابتلاء وأن الله - سبحانه وتعالى - رزق سيدنا إبراهيم الولد وقد بلغ من العمر ما بلغ..

آه..

أصرخ بها في داخلي.. تطلب مني الصبر على توفيق حتى يبلغ أرذل العمر!

لن أخبرها بأني أنتظر انتهاء مرحلة العلاج على أمل ألا تنجح هذه المحاولات ثم يأتي توفيق بهدوء ويخبرني بأنه لا أمل في شفائه وأن لي حرية البقاء معه أو الانفصال عنه.. وقتها سوف أصمت بعض الوقت وكأني أفكر في الأمر ولستُ صاحبة قرار جاهز منذ فترة.. ثم أخبره بأن الانفصال أفضل لكلينا.

تأتي النتائج بعد أيام من إجراء التحاليل.. الطبيب يخبرنا بأن الأمل ضعيف واحتمال الإنجاب بشكل طبيعي غير وارد. وكأن توفيق وجد طوق نجاة، يسأل الطبيب بسرعة:

- وهل هناك طريقة أخرى للإنجاب غير الشكل الطبيعي؟

- نعم.. (يجيب الطبيب ثم يبدأ الشرح) هناك عمليات التلقيح الصناعي والحقن المجهري.. وهذه لها تحاليل جديدة.

يبتسم توفيق ويزفر علامة ارتياحه.. ألحظ على وجه الطبيب علامات استياء لا أعرف منبعها، كنتُ حتى هذه اللحظة أشاهد الطبيب على أنه سعيد بما يحصده من مال.. لكن ما حدث بعد أيام أظهر لي أن هناك في داخل صدر هذا الطبيب قلب ينبض بالحياة.

توطدت العلاقة بيني وبين صفاء خلال هذه الزيارات المتكررة حتى إنها أصبحت تقبلني عند دخولي إلى صالة الاستقبال.

انتهت إجازة توفيق وأُجبر على السفر لمدة أسبوع لتجديد الإقامة وبعض الأمور.. يمر هذا الأسبوع بالنسبة لي على أفضل ما يكون في هذه الظروف..

لقد أتت أمي للإقامة معي.. كنتُ أتركها وأجلس في حجرتي أجتر ذكرياتي التي أستخدمها كوقود أحيا به.. لقد انكسرتْ أمي بعد وفاة والدي.. والصمتُ عنوانها.. لم تعد تناقش خاصة بعدما تزوجتُ أنا وشعرتْ هي بأنني حِمل وقد سقط عن ظهرها.. لذا كنتُ أعتبرها خلال هذه الأيام غير موجودة وأعيش حبي في صمت.

يعود توفيق لاستكمال مرحلة العلاج.. تمر الأيام ويعلن الطبيب في نهاية مرحلة العلاج أنه لا بديل عن عملية من أجل الإنجاب.. في البداية طلبتُ الانتظار وكررتُ كلمات أمي، وتقريبًا بنفس الأداء، بأن الله رزق سيدنا إبراهيم بالأبناء في الكبر.. لكن توفيق ينظر ناحيتي في سخرية ويتشبث بإجراء العملية في أقرب فرصة.

عند خروجنا من غرفة الطبيب في هذا اليوم، وكانت صفاء موجودة لبعض أمور تخصهم، ألحظ نظراتها المتألمة ناحيتي ثم تنظر إلى الطبيب نظرة ذات معنى، يستبقيني الطبيب ويطلب من توفيق الانتظار في الخارج لحظات.

يترك الطبيب مكانه ليجلس في مواجهتي وقد شحب وجهه قليلا وبدا على ملامحه أثر الانفعال، تقف صفاء بالقرب تتابع ما يحدث ونفس علامات التأثر على وجهها، يبدو أنها تعلم ما سيتحدث به الطبيب الذي يقول:

- مرت مدة طويلة ظهرت فيها الكثير من الحقائق.. مدام هدى.. (وتقريبًا هي المرة الأولى التي ينعتني أحد بلفظ مدام.. أود أن أقسم بأني آنسة فقدت

عذريتها عبر إصبع يد فقط لا غير.. أهز رأسي كي أتابع الطبيب، فلا فائدة من أي قسم.. يقول..) سوف أخبرك بالحقيقة كاملة، ولكني أطلب وعدًا بعدم الإفصاح بها خاصة إلى زوجك السيد توفيق.

- اطمئن يا دكتور.. علاقتي بتوفيق متوترة ولا تحتاج إلى منغصات جديدة.

هنا تهتف صفاء في شيء من السعادة:

- ألم أخبرك يا دكتور؟

يُكمل الطبيب:

- توفيق يُرجع سبب عجزه إلى هذا الحادث الذي يتحدث عنه باستمرار.. لكن الحقيقة التي أثبتتها التحاليل والأشعة أن توفيق عاجز من قبل الحادث.

أهمس: "عاجز من قبل الحادث؟! ". يعم الصمت.. لا أعلم ماذا حدث لي.. عشرات الأفكار والمشاعر المتضاربة بداخلي.. لم أجد ما أتحدث به غير سؤال:

- لكنه لم يكتشف الأمر إلا مؤخرًا؟

يمط شفتيه في استياء رهيب ويقول:

- للأسف.. في حالته الأمر معلوم..

- معلوم؟!

هنا تتحدث صفاء بسرعة وثقة:

- نعم معلوم.. أخبرها يا دكتور بأن المرضى من هذا النوع يعلمون بعجزهم مع بداية مرحلة الشباب.. وبالنسبة للأستاذ توفيق (قالتها ساخرة) الغدة مصابة بشكل لن ينجح معه علاج.

يدق قلبي جدران صدري في عنف.. ترتعش أطراف أصابعي.. تُسرع صفاء وتأتي بكوب ماء أرده في امتنان وأنا أسأل الطبيب سؤال لا يعلم إجابته:

- وإن كان يعلم بعجزه.. لماذا أصر على الزواج بي؟!

- لا أعلم في الحقيقة.. لكن بعض المرضى من هذا النوع.. يرفضون الاعتراف بهذا المرض.. ويأملون أن يكون الزواج هو علاج لحالتهم.. أو على الأقل مرحلة مهمة يجب خوضها للتأكد بشكل نهائي من مرضهم.

- لكن.. لماذا وافقته على إجراء عملية طفل الأنابيب أو الحقن المجهري؟!

- هو متمسك بالإنجاب بشكل كبير.. ثم إن عجزه عن إقامة العلاقة لن يمنع الحصول على العينة اللازمة لإجراء عملية الحقن.. ثم.. إنني لا يمكنني أن أرد مريضًا يتعلق بالأمل..

- وهل هناك أمل؟!

- ضعيف جدًّا.. لا يتعدى ١٪ لأنه بعيدًا عن عدم قدرته على ممارسة العملية الجنسية فقد أثبتت التحاليل أن توفيق مريض بـــ "قلة النطاف" بدرجة كبيرة جدًّا توشك على "انعدام النطاف".

أهز رأسي مستفسرة، تسارع صفاء للشرح وعلى وجهها علامة انتصار، يبدو أنها تكره توفيقًا منذ أن أهانها، تقول:

- الدكتور يقصد الحيوانات المنوية عنده معدومة.. (وتعقب في همس متمرد خائف).. المعدوم..

يشير نحوها الطبيب كي تلزم الصمت، ثم يقول:

- العملية هنا مجرد تجربة.. وهناك تجارب مشابهة نجحنا فيها بعد أكثر من مرة.

يعم الصمت لحظات ثم يعود الطبيب إلى مكانه، تربت صفاء على ظهري مواسية، وداخلي يكاد يجن.. توفيق يعلم بمرضه من سنوات ومع ذلك يفعل المستحيل من أجل الزواج بي.. ليس إذًا هذا مرضه الوحيد.. هو مريض نفسي! أتذكرهم وهم يأخذونني إلى طبيب الأمراض النفسية والعصبية! يجلس الطبيب خلف مكتبه ويكمل:

- لقد أخبرتكِ بالحقيقة كاملة وفقًا لما يمليه على ضميري المهني.. الأمر الآن بينكما.. إن اتفقتما على إجراء العملية.. صفاء تُنسق لكِ الأمر مع اختصاصي النساء والتوليد هنا في المركز.

أخرج شاردة.. أجد توفيقًا في انتظاري وقد بدا عليه التوتر.. يسألني عما كان يريده الطبيب.. لا أجيبه.. لكن أمام إصراره أضطر أن أقول له:

- مجرد ترتيبات يحدثني عنها من أجل عملية الحقن المجهري..

يبتسم بوجهه المضطرب ويقول:

- ومتى العملية؟

- لم أحدد بعد موافقتي..

- وهل سترفضين؟!

- ربما..

نصل إلى الشارع.. أتوجه ناحية السيارة.. يمد يده بالمفاتيح كي أنتظره فيها.. سوف يذهب لشراء علبة سجائر.. أنتظره بداخل السيارة وأنا متوترة إلى أقصى درجة.. يجب أن أفكر بهدوء.. عليَّ أن أواجهه بحقيقة مرضه وأنه ليس نتاج الحادث الذي يُحملني مسئوليته، لقد صدقتُه وتألمتُ من أجله! لكن ها هي النتائج الطبية تثبت كذبه.. هل سيعترف؟! مؤكد لن يعترف.. سوف يصف الطبيب بالغباء والفشل ويستميت في العرض على آخر وغيره وغيره.. لا أعلم لماذا تهادى بداخلي أمل النجاة، فكلما ظهرت نقاط ضعف للخصم زاد الأمل في الانتصار.. لكن نقاط الضعف قد تكون هي السبب في إصرار هذا الخصم على الانتقام للتعويض.. لن أقرر الآن ماذا أفعل.. سوف أنتظر حتى الـــــــــــــ ـ.... الـــ...

آه..

أووووووووه.........

مَن هذا؟!

إنه هو..!

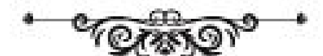
نعم هو..!

كريم..

كريم يمر بجوار السيارة.. يسير بصحبة فتاة.. يتوجه ناحية المركز الطبي.. يسقط قلبي من بين أضلعي.. تضطرب أحشائي.. ترتجف شفتايَ.. أهمس.. كريم.. أناديه بقلبي.. لم يشاهدني.. مَن هذه التي تسير معه؟! هل هو كريم أم أني أرى صورته في أي شخص؟!

لا..

هو كريم.. هذه طريقته في السير على مهل.. أمد يدي كي أفتح باب السيارة.. لكن الباب الآخر يُفتح.. يلقي توفيق جسده فوق مقعده.. يشعل سيجارته.. ينطلق بالسيارة بدون كلمة واحدة. أبحث عن قلبي في صدري لا أجده.. تركته في المكان قبل الرحيل.



وقد تحمل إليك الأيام أكثر مما كنت تحلم به..

فلا تجزع وتفقد الحاضر.

(٣٢)

أين حبيبي؟

في هذه الليلة، الطويلة، لم أرغب في النوم.. بمجرد وصولي دخلتُ إلى الحمام، أغلقتُ الباب بقفل عظيم، قفل يماثل ذلك الموضوع على باب حياتي، أغلقتها على نفسي وذاتي.. وما أنت يا حبيبي إلا نفسي وذاتي، لا أصدق نفسي.. إنني لا شك أحلم.. أقف أمام المرآة أتأمل انعكاس صورتي.. أحرك يدي.. أغمض عينيَّ وأفتحهما.. أنا يقظة بلا شك.. أنا بالفعل شاهدتُ كريم منذ قليل.. نعم.. هو.. لا أكذب خفق قلبي وانقباض داخلي.. آه يا حبيبي! أكان من الصعب أن تنظر لحظة واحدة لتشاهد تلك البائسة الجالسة في السيارة التي تمر بجوارها؟! لحظة واحدة يا كريم وتتلاقى أعيننا.. كنتُ سأترك العالم وأرتمي في أحضانك.. أبكي على صدرك.. أخبرك بأنني ضُربت على وجهي يا كريم.. هاتين الوجنتين اللتين احتويتهما بين راحتيك.. قبلَتهما بشفتيك.. صُفِعَتا بيدٍ حاقدة.. كنتُ سأبكي على صدرك وأخبرك بأنني لن

أعيش إلا معك.. ولتفعل كل ما تملك من أجل تحريري من هذا الأسر.. وكنتَ يا حبيبي ستأخذني في أحضانك وأنت تعتذر لَمن معك.. أعلم أن سترأف لحالها ولن ترضى لها أن تعيش معك وقلبك مع أخرى.. وعمرك كله معي أنا يا حبيبي.. نظرة واحدة كانت كافية لتغيير الكون.. أكانت مستحيلة تلك النظرة؟!

أجفف دموعي وألملم ذاتي المبعثرة وأخرج إلى الصالة، لا أرغب في أي شيء، أجلس في الصالة أمام التليفزيون أتعلل بمتابعة الفيلم.. توفيق يحاول مناقشة موضوع عملية الحقن معي لكني أصده بأنني ما زلتُ أفكر.. يؤكد بأنه ما يرغب في الأبناء إلا لرابطة تجمعنا معًا مدى الحياة، ثم يدخل لينام..

الحقيقة أنه يرغب في إثبات رجولته.. تلك حلقة جديدة في سلسلة ضعفه التي يواريها عن الجميع.. أنا نفسي مجرد استكمال لصورة رجولته.. هو رجل متزوج بشكل طبيعي وسوف يحصل على الأطفال.. لديه المال والشقة والسيارة.. لا يحتاج إلى شيء آخر! الآن فهمتُ إصراره على الزواج بي بالرغم من كل ما كان يعرفه عن رفضي له وعن علاقتي بكريم.. لو أن فتاة أخرى غيري أو أسرة أخرى غير أسرتي.. أسرة خاله الذي يعتبره ابنه.. واكتشفوا مرضه لتعاملوا معه بشكل آخر.. ولم يكن يتصدى لهم بأي حال!

كريم.. يا حبيبي.. أتكون بجواري وأراك ولا تراني؟! أين صورتي في قلبك؟! ألم يستوقفك قلبك بجواري وينتفض قائلًا: لن أتحرك.. فهاهنا نصفي الآخر!

تسير بصحبة فتاة أخرى؟! تتجهان إلى المركز الطبي.. لماذا؟! لم أشاهد هذه الفتاة.. هل هي أفضل يا كريم حتى...

حتى ماذا يا هدى؟! أنتِ تهذين الآن.. تزوجتِ بتوفيق منذ شهور.. ماذا تنتظرين من كريم؟! هل يجلس يبكي طوال حياته!

أنظر إلى حالي ومدى الشقاء الذي أضحيتُ أعيش في أعماقه، أتذكر مدى السعادة والهناء وقت أن كنا نلتقي أنا وكريم ونعيش تفاصيل الحب.. تفاصيل العشق.. أين أنت يا حبيبي.. حياتي بدونك عدم.. كيف حياتك بدوني؟!

أتحسس جسدي الذي هَزَلَ في هدوء.. أبتسم في سعادة وأنا أشعر بالدماء تسري في جسدي للمرة الأولى منذ شهور، أتحسس شفتيَّ لأتذوق طعم القبلة الأخيرة لكريم يوم آخر لقاء بيننا.. أتمدد في مكاني وقد غمرتني النشوة.. لا أشاهد ما يبثه التلفزيون.. ولا أشعر بتفاصيل المكان، أحمل كريمًا على بساط الريح الخاص بنا وأذهب به إلى جزيرتي الخاصة، أحتضنه.. أتعلق في يديه، أرتمي على صدره، أعده بقبلة من أعماق حبي إن هو لحق بي.. ثم أجرى لأختفي بين الأغصان الكثيفة على الجزيرة بينما هو يناديني.. ولما لم أجبه يبدأ صوته في التوتر قلقًا على ويتحرك ليبحث عني.. وأنا ألتزم الصمت مثل طفلة صغيرة في مخبئها.. يتزايد قلقه.. يضرب بجسده بين الأغصان بشكل هيستيري وهو يناديني طالبًا الإجابة.. ليس وقت أو مكان الهزل.. ولكني أكتم ضحكتي وأستمر في مكاني.. بعد فترة يعثر على.. يقترب.. أتأمل جزعه في حب.. عاشق قلق.. أمد إليه يديَّ كي يُقبل ليرتمي في أحضاني.

في اليوم التالي أخبر توفيقًا بأنني سوف أذهب إلى المركز الطبي للاستفسار عن بعض المعلومات التي تخص العملية، وفي الحقيقة كنتُ أرغب في الاستفسار عن كريم.. يقبل توفيق يدي بسعادة.. يخبرني بأنه سوف يصطحبني إلى هناك بالطبع.. لكني أرفض.. لا داعي.. أود أن أتخذ هذه الخطوة بكل تفاصيلها وحدي وألَّا يكون معي ليؤثر عليَّ في قرار ما.. ينظر نحوي في شك لحظات ثم يهز رأسه بالموافقة ثم كأنه يتذكر.. يقول:

- أتصل بوالدتك كي تأتي معكِ.

- لا.. أمي لا.. أخبرتك بأنني أرغب أن تكون الأمور نابعة من داخلي وليس لأحد تدخل فيها.

يوافق صاغرٌ..

بعد ساعات أكون في المركز الطبي.. تقابلني صفاء وعلى وجهها ابتسامة عريضة.. تنظر خلفي باحثة عن توفيق وقد قطبت ملامحها للحظة، أخبرها بأن توفيقًا لم يأتِ معي فتتسع ابتسامتها حتى تملأ وجهها.. تسألني وهي لا تستطيع إخفاء رغبتها في الرفض، هل سأجري العملية؟!

أمسك بيدها وأذهب بها إلى مكان جانبي في صالة الاستقبال بينما هناك نظرات من المرضى تتابعنا، كل منهم يعتقد أني صديقتها وينتظر أن أدخل إلى الطبيب قبل أن يحين دوري كي يُظهر رفضه التام ويعلو صوته ويحدث هرج ومرج كعادتنا، لم أهتم.. أهمس إلى صفاء:

- دعكِ من العملية الآن.. لديَّ سؤال مهم وأتمنى أن تكون إجابته عندكِ.

- خيرًا يا حبيبتي؟!

- أمس.. وبعد أن غادرنا أنا وتوفيق.. صعد إلى هنا شاب يدعى كريمًا و...

أخبرتها باسمه بالكامل وأن معرفة ذلك أمر مهم بالنسبة لي بدون أن تسألني عن الأسباب.. لحظات تذهب إلى دفتر موجود على مكتبها في الاستقبال.. تتفحصه في هدوء بوجه عابس من أثر التركيز، أشعر بتوتر وأنا أرقبها، تنفرج أساريرها وأصبعها يتوقف على نقطة ما في الصفحة أمامها، يبتسم قلبي وكأني قابلتُ كريمًا، تعود إليَّ قائلة في همس:

- نعم.. تذكرته.. لقد أتى بالأمس وبصحبته ابنة عمه تدعى "سلوى" أتيا لإجراء تحاليل ما قبل الزواج.. لقد أخبرني بأنهما يخشيان أن تكون هناك بعض المشكلات الناتجة عن زواج الأقارب.. ولا بد من التأكد عبر التحاليل اللازمة.

لا أجد ما أصف به حالتي.. أشعر بدوار.. الأشياء تتلاشى من أمام عينيَّ.. أهتز مثل عمود صُدِمَ ليهتز قبل السقوط.. تشعر صفاء بما يعتريني فتمسك بيدي.. تأخذني إلى غرفة جانبيه وهي تسأل عما حدث.. تقول إن يدي باردة جدًّا.. لوني يشحب في سرعة رهيبة.. تُجلسني فوق مقعد ثم تأتي بكوب ماء بسرعة أحتسي بعضه، تدلك لي يدي و وجنتيَّ.. بيد خبيرة تدلك رقبتي من الخلف حتى تستدعي الدماء إلى رأسي.. تضغط على أنفي بشدة.. تنثر قطرات ماء على وجهي.. تنجح محاولاتها فأعود إلى المكان.

كريم سوف يتزوج بالفعل.. يأتي إلى نفس المكان، الذي اتفقنا على أن نجرى فيه تحاليل ما قبل الزواج، بصحبة فتاة أخرى ليجري التحاليل اللازمة قبل الزواج! ماذا يحدث؟ وماذا يحمل لي القدر في جعبته أكثر مما أتاني به!

تسأل صفاء عما يحدث.. أجيبها بهدوء:

- خير يا صفاء.. لا تقلقي.. سوف أخبرك بكل شيء.. ولكن أخبريني.. هل أجرى كريم التحاليل؟

- لا.. لقد قام أمس بالحجز.. وسوف يأتي بعد أسبوع لأخذ العينات اللازمة وإجراء التحاليل، لأن هناك عينات مهمة يجب أن يلتزم قبلها بعدد من الأمور.

- يعني أنه سوف يأتي يوم الثلاثاء القادم؟

- نعم..

- إذًا.. تكون عملية الحقن المجهري.. يوم الثلاثاء القادم..

تصمت لحظات وقد أظهرت رغبتها في فهم ما يحدث، مددتُ يدي لأحتوي يديها وأنا أبتسم لها في حنان وأخبرها بأنني سوف أوضح لها كل شيء.



لا يختلف العشق باختلاف الزمن.. فالقلب واحد.

(٣٤)

أروى

حينما تصل هدى في حكايتها إلى عملية "الحقن المجهري" تتوقف عن السرد وهي تقول لابنتها إن كل ما يتبقى من الحكاية تعلمه. وكانت أروى الرقيقة قد بلغ منها الحزن ما بلغ والتعلق بأمها، تلك الفتاة التي أشقاها قلبها، إلى أقصى الحدود، لكن السؤال الذي صيغ في داخلها ولم تستطع منع نفسها من توجيهه لأمها كان:

- وهل قابلتِ كريماً يوم الثلاثاء يا أمي؟

ترتبك هدى لحظة.. يتغير لون وجهها الذي شحب وتوتر بعض الشيء وهي تحكي لابنتها منذ أيام.. تقول:

- لا.. لم أقابله يا أروى.. وحتى اليوم لم أقابله.. وإن كنتُ أستمد طاقتي التي أعيش بها من تلك الذكريات ومنكِ يا حبيبتي.

خلال الأيام القليلة الماضية التي كانت تحكي فيها هدى، كانت أروى بين مَدٍّ وجذر، فهي سعيدة بسعادة أمها، ولهي بولهها، حزينة باكية لحزنها وبكائها..

تخرج أروى للجامعة أو لمقابلة شادي بقلب مفعم بشوق عظيم ثم تعود إلى أمها تحثها على استكمال الحكاية، سرد تلك المشاعر الفياضة.. لو استمعت إليها من أحد غير أمها لقالت إنها تبالغ.. لكنها أقرب أحد إليها وتدرك مدى صدق مشاعرها.

أكثر ما كان يؤلمها كيف لأمها أن تحتفظ بهذا الكم من الأسرار والمشاعر والحزن بداخلها وتمارس تفاصيل حياتها.. تقول أروى لنفسها لو كنتُ أنا ما حييتُ بعدها قط!

في داخلها تتوق لرؤية كريم بعد كل ما سمعته عنه، لم تخبر هدى بذلك حتى لا تزيد من شوقها الذي تحرك بداخلها من جديد، تلحظ آيات الشوق والعشق على وجهها وحركاتها، والمحب الصب مكشوف ما بداخله ولو حرص على إخفاء الأمر.

شُغِلت أروى.. تأثرت أيما تأثر بما سمعته عن والدها " توفيق ".. لصدق مشاعر أمها لم تكذبها في كلمة واحدة مما قالته، ولذلك تصدق كل ما قالته عن والدها، وإن لم توجه إليه أمها إهانة واضحة، غير تلك الليالي التي لم تستطع أن تمنع فيها خيالها من تصور كريم في أحضانها.. وقد قالت: سوف أنتقم منهم بطريقتي. وتلك أضعف الطرق.. مجرد التخيل والتفكير فيمن تحب وتعشق.

هل بالفعل كان والدها يعلم بعجزه من سنوات طوال قبل الحادث؟!.. لكن لا.. كان لديه بصيص أمل.. وها قد نتج عنه عملية حقن مجهري وكانت "أروى" نتاجها. إذًا كان يعلم أنه مريض والمريض قد يُعَالَج، ذلك حتى لا نقسو عليه.

تقول أروى في داخلها في لحظات صمت: أتلمس لك يا "بابا" الأعذار، لكني أقف مكتوفة الأيدي أمام موقف الرفض الصريح والمباشر والذي أخبرتك به "منى" صديقة "ماما"! كيف تعرف أن فتاتك تحب شابًا آخر ولا تنسحب في هدوء؟! لو نجحت المحاولات وتم الارتباط بها، وهو ما قد حدث الفعل بينكما، ماذا ستكون شكل الحياة في المستقبل؟!

أعتقد أن السنوات التي تلت الارتباط تجيب عن ذلك.. أنت في بلد ونحن في بلد آخر.. لا نلتقي غير أيام قليلة كل عام.. لا يقرأ أحدنا فيها الآخر.. مجرد ترحيب فاتر.. خروج في نزهات ومصيف ولقاء الأصدقاء.. ترهات مقارنة بعلاقة أسرية حقيقية.. حتى أنا لم أستقِ منك أي عادة أو ثقافة.. كنت تأتي الإجازة تحمل لي الهدايا ثم تمر الأيام هادئة، لم أكن أعلم شيئًا عن ذلك الجدار الرهيب بينك وبين أمي وأنا التي كنتُ أعتقد أنكما تعوضان شهور الغربة الطويلة بكثير من الغرام في غرفتيكما!

تنظر إلى أمها وعلى وجهها ابتسامة حزينة وما تزال تتحدث إلى نفسها: ياه يا "هدى ".. كيف لفتاة لها قلب مثل قلبك وتتحمل كل هذا؟! كان حريًّا بكِ.. ولكِ أسبابكِ، أن تطلبي الطلاق فور اكتشاف أمر مرضه.. (تمط شفتيها وتكمل): نعم.. لم يكن ليستجيب وكان سيجد ألف مبرر

لرفض طلبك هذا، ومؤكد سوف تتعاون معه "جدتي" (تتذكر جدتها التي ما تعلم ملامحها إلا من بعض الصور) ليرحمها الله.. ماتت بعد عامين من زواج هدى.. ماتت وحيدة في شقتها تاركة ابنتها تصطلي بنيران رغبتها في مستقبل آمن! أي أمان يا جدتي كنتِ تقصدين؟! لقد ألقيتِ بابنتك إلى بئر مظلمة ثم ترحلين أنتِ بعد كآبة وأمراض الوحدة اللعينة.. ماذا لو لم يغضب جدي ويرفض علاقتها بكريم.. ماذا لو لم ينفعل إلى أقصى الحدود؟! ما كان مات ميتة الفجائية تلك.. ألم تتخيلا يومًا أن كريمًا، شق أمي الثاني وروحها، قد يكون أكثر لكما محبة وأقرب رحمة.. قد يملأ عليكما الحياة محبة وسعادة وقد أعطيتماه أغلى ما عندكما فيقدم حياته لكما محبة وشوقًا! لمَ يفترض الآباء أسوأ الأمور ويتحركون وفقًا لأهوائهم.. أمور قد تبدو صغَيرة لكن نتاجها كارثي..

أروى تعلم الكثير من نتاج هذه الأفعال عبر وسائل التواصل الاجتماعي التي تنقل مثل تلك الجرائم في لحظات، تقرأ البوستات والتعليقات عليها، وتعلم أن أصحابها يتحركون بأسماء وصور مستعارة؛ لذا يتصرفون بحرية، تقرأ أقذر ما قد يصل إليه عقل.. مجتمع ثقافة الخدم كما أخبرتها أمها برأي كريم من سنوات طوال، نعم.. ليخفي الفرد اسمه وصورته ودعه يتحدث ويتحرك وسوف تشاهد العجب.. ضع الفرد تحت ضغط يخرج على إثره ما بداخله بدون تجميل وسوف تشاهد العجب!

تنهض أروى فجأة رغبة منها في أن تخرج من دوامة تلك الأفكار التي لن تزيدها إلا حزنًا.. تتوجه نحو أمها وهي تشاهدها في ثوبها الأبيض مثل

ملاك خُلِق كي يَعشق ويُعشق.. تفرد يديها رغبة في أن تلقي أمها جسدها في أحضانها، تبكي هدى في سعادة وهي تستجيب لابنتها فَرِحةً بها وبإدراكها لما استمعت له..

هدى تعلم أن أروى ليست صغيرة.. لقد عاشت أفضل لحظات عمرها وهي في مثل عمر ابنتها الآن.. كانت تنقم على الكبار ديكتاتوريتهم وفرضهم لرأيهم على أبنائهم وهي لن تفرض هذا على ابنتها ولن تدع أحدًا يفرض رغبته مهما تكن.. فقط تدرس الأمر وتشير بالنصح.. وإن وُجِدت السلبيات بشكل واضح فلن يختلف أمامها اثنان.

في النهاية كانت أروى تعيش أسعد أيامها وهي تمتزج بأمها، تتحرك بداخلها المشاعر.. يظهر على محياها الوجد مثل رحيق يجتذب شادي فيعترف بوجده.. تتعانق أيديهما في شوق.. فكانت في البيت تعيش مع الحب وفي الخارج تعيش الحب..

في هذا اليوم الأخير الذي تنتهي فيه أمها من سرد التفاصيل تحتضنها في شوق وحنان زائد، تبادلها هدى الحنان بحنان مضاعف، وفي العشق تُرهف المشاعر فيزداد الحنان.. ثم تعتدل هدى مكانها وقد ظهرت على وجهها ابتسامة عريضة من أم عاشقة لابنتها التي طرقت أبواب الحب ودلفت، لتسألها:

– أخبريني عن شادي.. هل تحبينه فعلًا يا أروى؟

– إن كان كل ما وصفتِه لي يا أمي هو الحب الحقيقي.. فأنا.. أحب شادي.

يتورد وجهها بحمرة الخجل، تضمها أمها أكثر وتسألها ثانية:

- هل تثقين بحبه؟ أقصد هل هو جدير بكِ يا أروى.. يتحمل المسؤولية؟

- بالطبع يا هدى.. أنتِ لا تعرفينه..

- إذًا.. يجب أن أعرفه.. أن أقابله لأعرفه.

مباشرة تتصل أروى بشادي عبر تطبيق Messenger ليظهر أمامها صوت وصورة.. تبتسم هدى وتتذكر معاناتها هي وكريم حينما كان يشتد بهما الوجد، كم تطورت الدنيا خلال هذه السنوات القليلة الماضية. أروى تخبر شادي ببساطة أن أمها ترغب في الحديث معه، ثم تمد يدها بالهاتف إلى أمها.. شاب وسيم على وجهه بالفعل سمات رجل يتحمل المسؤولية.

تتبادل معه هدى التحية وتخبره برغبتها في مقابلة حقيقية وليس عبر الهاتف، يخامره القلق فتطمئنه بكلمات سريعة. يتم تحديد الموعد في اليوم التالي. ثم تُعيد الهاتف إلى ابنتها التي تخرج إلى الشرفة لتستكمل الحوار مع شادي، يصل صوتها إلى هدى وهي تقول: "والله يا ابني لا شيء غير التعارف.. أم أراك ترجع عن وعودك وتهرب؟!" ثم تضحك بصوتها العذب.. يستمر الحديث فترة غير واضح التفاصيل.

تعود أروى بعد دقائق وقد ظهرت على وجهها علامات قلق، تلقي الهاتف في جانب ثم تجلس إلى جوار أمها صامتة وهي تفرك يديها، تتأملها هدى لحظات ثم تسألها:

- ماذا يا أروى.. شادي رفـــــــــــ....؟

تقاطعها أروى:

– لا يا ماما.. لن يتهرب شادي.. أنا واثقة به إلى أقصى درجة..

– ماذا إذًا؟!

– بابا..

تضطرب هدى وتهتز في مكانها مثل مَن صعقه تيار كهربائي وهي تسأل:

– مَن؟!

– بابا توفيق يا ماما..

تحاول هدى التماسك وهي تحمد الله أن أروى لم تلحظ توترها، تتنفس بهدوء وهي تعود إلى مسند الأريكة وتبتسم لابنتها مطمئنة:

– ماذا عن توفيق؟

– هل سيوافق على شادي؟!

– لا بد أن يوافق.. يا حبيبتي ما دمت أنا حية لا تقلقي.

قالت جملتها الأخيرة بثقة وإصرار كبيرين حتى إن قبضتها اليمنى تكورت في حركة لا إرادية وهي تعتدل في مكانها على الأريكة وتجذب أروى كي تُلقي رأسها على ركبتها.. تستجيب أروى في هدوء وهي شاردة خلف مخاوفها وكلمات أمها الأخيرة.. لا تستطيع أن تطمئن بشكل كامل.. أمها مهما تكن

لم تستطع المقاومة من أجل نفسها وأجبرتها الظروف على الزواج بأبيها.. فهل تستطيع اليوم؟! هل تستطيع المواجهة والتحدي؟! ثم إن والدها لا يعترف بما يسمى الحب ويذكره بأنه "لعب صبية" وأن الحبيب مجرد "ولد"!

تحاول الإمساك بزمام داخلها كي لا يضطرب أكثر.. تشعر هدى بتوترها فتربت على كتفها وتمسح شعرها في هدوء كي تطمئنها.. لكن هل حقًّا تهدأ الصغيرة؟! هل يستقر قلبها العاشق؟



(٣٥)

الاعتراف الأخير

غدًا يصل "بابا".. أليس من الأفضل أن نخبره من الآن يا هدى؟

بهذا السؤال تهمس أروى إلى أمها رغم وجودهما وحدهما في تلك الشقة الكائنة في هذا الكمبوند الهادئ على أطراف المدينة الهادئة.

تبتسم أمها وبداخلها توتر لم تستطع منعه من صِدام وشيك.. تستشعره بقلبها كما تستشعر الطيور هبوب العواصف أو هطول المطر. لا تملك هدى غير بث الهدوء إلى ابنتها.

منذ قابلت شادي، ووجدت فيه شابًا مسؤولًا وليس هازلًا ماجنًا، وهي تبارك العلاقة وتقرر في داخلها بأن نجاحها هو هدفها، وإن كان آخر هدف سوف تحققه في حياتها، الحقيقة أنها قد اتخذت قرارها بالتصدي وإعلان الحرب متخذة من هوان ما مضى من عمرها مُحفِزًا ودافعًا لها، ما عجزت عن تحقيقه لنفسها.. سوف تحارب من أجل تحقيقه لابنتها.

لقد تغيرت هدى مع تغير الزمن، وهي تعلم جيدًا أن توفيقًا ومَن على شَاكلته لم تغيره الأيام، هؤلاء على مر الزمن سبب في كثير من حالات الانهيار الأسري والطلاق أو الخيانة أو تلك التي تنتهي بالقتل! قاتلهم الله مَن يجبرون الفتيات على الزواج بأشخاص لا عاطفة تربطهم بهم.. قاتلهم الله مَن يسخرون من نبض القلوب وتحرك المشاعر! قاتلهم الله مَن يرفضون.. بل مَن يقتلون الحب من أجل مظاهر حياتية فارغة!

ماذا فعل لي استقرار توفيق المادي الذي تميز به على كريم.. غير الانكسار والهوان والضياع؟! تلك الشقة والسيارة ورصيد في البنك.. فلتذهب كلها مقابل أن ألتقي حبيبي..

تتذكر هدى الشقة والسيارة والرصيد.. هذه أسلحة سوف يستخدمها توفيق في حربه الوشيكة كنوع من التهديد للانصياع لأمره، لا يهم.. لديها ما ورثته عن والديها يكفيها هي وأروى ويضمن لهما حياة هادئة، لن يلوي ذراعي بعد اليوم (تهمس لنفسها)، ولن يستطيع مقاومتي خاصة أن ما أمتلكه من أسلحة اليوم أكثر بكثير مما يمتلكه هو، لم يعد هناك ما تخشاه.. نمرة شرسة تدافع عن ابنتها كانت هدى.

لم تنتقل حالة الثقة تلك إلى أروى.. مع اقتراب وصول والدها يتزايد اضطرابها بشكل ملحوظ. منذ أن تحولت علاقتها بـ شادي من الظل إلى النور وبمباركة أمها وهي تعيش تفاصيل الحب.. تكسو وجهها نضارة العشق.. تتفتح زهورها وتغرد طيورها.. تدرك حقيقة حياتها في تلك

الأيام.. لا يكدر صفوها غير موقف والدها المنتظر، كانت تلقي همومها تلك إلى شادي.. يواري خوفه ويبثها التفاؤل..

في اليوم التالي تجلس هدى في السيارة بالقرب من باب الخروج لصالة وصول توفيق، بينما أروى تقف أمام باب الصالة تنتظره.. تلك كانت عادتهم.. لم تفارق هدى السيارة ذات يوم لاستقباله، لا تملك هذا الشغف الذي يدفعها لملاقاته، ولولا الشكل العام ما ذهبت بالسيارة إلى المطار.. توفيق يُظهر ضيقه في المرة الأولى، ولكنها صدته بأنها تفضل الانتظار هكذا ولا داعي لادعاء غير ما تكنه الصدور.. فيصمت.

لقاء تقليدي لا يستشعر فيه توفيق أي توتر بداخلهما يشف عنه وجهاهما، تلك ملكة لا يمتلكها.. الكشف عما بالصدور..

يصل الركب إلى دارهم في هدوء.. كانت هدى قد اتفقت مع أروى أن يمر اليوم الأول بلا نقاش.. وقد كان.. تناولوا الطعام.. يتناقشون في أمور عامة.. لا يوجد الكثير يتناقشون حوله.. عبر وسائل التواصل الحديثة لم تعد هناك غربة بالمعنى الدقيق السابق.. التواصل مستمر طوال اليوم بين الأفراد مهما تكن أماكن وجودهم، السيدات في المطبخ يطهين الطعام لأبنائهن ويتواصلن مع أزواجهن صوتًا وصورة في أقصى الأرض!

يُشير توفيق نحو هدى بأنه يشعر بالإرهاق ويحتاج إلى النوم.. في إشارة منه إلى الدخول إلى حجرة النوم وممارسة حقه الطبيعي معها.. هكذا كان يفعل في السنوات الماضية.. ما يزال يبحث عن استكمال الصورة.. إلى متى

سيظل يكذب على نفسه بأنه يعيش حياة كاملة؟! تلقي نظراتها نحو ابنتها وكأنها تقول لها: "أتشاهدين؟!" ثم تتبعه في هدوء، ولولا خوفها من تعجيل الصدام لطلبت منه أن ينام كما يشاء.. هي ليست في حاجة إلى النوم الآن.

في اليوم التالي وبعد تناول الإفطار تطلب منه تناول الشاي في الشرفة.. تتحدث في هدوء وإن كان في لهجتها إصرار وتحدٍّ بدأ يستشعره.. تخبره بأن حياتهم كانت قاسية بكل المقاييس (كانت ترغب في أن تقول: "كلها عذاب" لكنها فضلت استخدام كلمة قاسية) وأنها لن تسمح بأن تتكرر تلك المأساة مع ابنتها.. يضحك ساخرًا منها ويطيل في حديثه عن أين تلك الحياة القاسية ويعدد لها ما قدمه لها في حياتهم من استقرار وراحة مادية ويشير بيديه إلى الشقة والكمباوند والسيارة.. تتركه حتى ينتهي وكأنها لم تسمع حرفًا واحدًا مما قاله، تتحدث بنفس الإصرار:

– هناك فتى يدعى شادي.. تحبه أروى.. ويريد خطبتها.

يضحك بسخرية حتى ينتفض مكانه.. سخريته تغضب هدى إلى أقصى درجة حتى إن أظفارها تشعر بها وقد استطالت وجف جلدها و احمرت عيناها.. تسأله كاظمة غيظها:

– لماذا تضحك هكذا؟!

يتماسك بعد لحظات وهو يحتسي من الشاي جرعات تتناسب مع فمه الواسع.. فقد تغير جسده خلال السنوات الطوال الماضية.. تطاير شعر رأسه وحل الصلع.. تهدل جلده وصنع لغدًا أسفل ذقنه وحتى يكتمل

الماكيت يبرز كرشه.. لكن الدماء الدالة على صحة دائمة لم تفارق بشرته.. تلحظ هدى ذلك فتقول في داخلها: "ولم لا وتلك الفئة تحتفظ بكل مقومات النضارة فلا هي تبذل صحة أو توترًا فكريًّا"، وكأن ارتباط العجز بالبلادة شيء وثيق، وإلا تأثر صاحبه فيفعل بنفسه الأفاعيل، لكن المشكلة أنه يؤذي غيره ببلادته.. ينتهي من ضحكته الساخرة ويقضي على ما تبقى في كوب الشاي ثم يقول:

- هل نكرره ثانية؟!

- نكرر ماذا؟!

- ألاعيب الصبية ..

ثم ينفجر ضاحكًا تاركًا مقعده في الشرفة ويدخل إلى الصالة، يجد أروى تجلس في جانب متوترة وإن كانت تُظهر متابعتها لأحد برامج National Geographic، يمد يده ليتناول الريموت، يُلقي بجسده على الأريكة وهو ينظر نحو التلفزيون فيشاهد ضباعًا تلتهم فريسة.. يُعمل الريموت ليغير القناة يبحث عن شيء لا يدركه.

الحقيقة أن توفيقًا كان يشعر في داخله بتوتر كبير، إنه الماضي يعود مرة أخرى، ألم يكن قد انتهى منه وطابت لها الحياة مع اكتمال تفاصيل الصورة كافة، جسد يتميز بالصحة، عمل ورأس مال لا بأس به، الشقة الفاخرة والسيارة الفارهة، الزوجة الجميلة، الابنة.. لماذا يعود الماضي اليوم ليعكر

صفو هذه الصورة التي بذل الكثير في سبيل الوصول إليها والحفاظ عليها؟!

عن أي حب يتحدث هؤلاء البلهاء.. عشرات الآلاف من قصص الحب أذلها الفقر وطحنها العوز.. لا وجود لما يسمى بالحب إلا في وجود المال والاستقرار.. وها هي تعود لتخبرني بأن هناك "ولدًا" يرغب في الارتباط بابنته؟!

تدخل هدى إلى الصالة وقد احمر وجهها من أثر الانفعال.. تشاهد أروى تنزوي في مقعدها تضم يديها إلى صدرها، تشعر بقلبها ينتفض.. تسلط نظراتها بشراسة نحو توفيق، تسأله في لوم:

- لِمَ الضحك؟ ولِمَ تركتني ودخلت بدون إجابة؟!

يلقي الريموت بشدة إلى ركن الأريكة معلنًا استعداده للحرب، لا تعلم هدى لماذا تذكرت يوم زواجهما وهو يصفعها بمنتهى القسوة فينقلب داخلها إلى نيران مستعرة، تتحفز بشكل كبير.. يقول توفيق:

- تنتهي أروى من الدراسة ونعلن خطبتها على ابن مهندس زميلي.. يعمل معنا في الخارج.. شاب له مستقبل عظيم.. وهو شاب على خلق.

يعدد في صفاته يلتمس إقناعها وهو يدور بعينيه على زوجته وابنته التي يسقط قلبها ويزيغ بصرها، يحدث ما كانت تخشاه، أتراها اجتذبت رفض والدها بخشيتها؟!

هل يُقتل حبها.. عشقها.. على يد والدها، تتخيل نفسها لحظة زوجة آخر غير شادي، تنتفض في مكانها، تشعر بخواء رهيب.. هل الطريق إلى السعادة - كما يصف والدها - يكون عبر تلك القسوة وذلك الإجبار؟! لم تستمع إلى الكثير مما يدور بين والديها ، تشاهد توترهما.. انفعالهما.. صيحاتهما.. وكأنهما عبر شاشة عرض مكتومة الصوت.

لا تعلم هدى من أي مصدر تستمد قوتها.. لكن تراكمات السنين والزهد فيما تبقى من عمر وخشيتها على ابنتها من أن تلقى نفس مصيرها جعلها الآن أقوى.. تتأمل توفيق بشراسة، لا تهتم بكل ما يقوله، فقد تشبثت بموقفها وسوف تدافع عنه مهما حدث، تقول:

- أروى لن تتزوج إلا بمَن تحبه.

يقف توفيق منفعلًا يهذي بالكثير من العبارات، مسفهًا ما تفكران فيه، تنفعل هدى إثر انفعاله ويعلو صوتها كي يوائم صوته المرتفع، تغوص أروى في مقعدها وجسدها ينتفض رعبًا مع اقتراب توفيق من هدى والنيران تطل من عينيه.. تتوقع أن تنسحب أمها.. لكن هذا لم يحدث.. تقف في مواجهته ولم ترتد إلى الخلف قدمًا واحدة، يصرخ توفيق:

- هل تتحدينني يا هدى؟!

- نعم يا توفيق.. أروى لن تتزوج إلا بمن تحب.

قالتها صارخة كي في محاولة لإنهاء الحوار.. لكن ما يحدث في اللحظة التالية فاق كل توقع، توفيق نفسه لم يتخيل أن يفعل ما فعله.

بمجرد أن تنتهي هدى من جملتها وهي تقف في مواجهته إلا ويرفع يده العريضة عاليًا ليهوي بها على وجهها.. تصرخ هدى.. تصرخ أروى.. يصرخ توفيق نفسه وهو يؤكد أن كلمته هي الأخيرة، وكأنه يرد على صرخاتهم بأنه يفعل ما يراه الصواب يرفع يده مرة ثانية ويضرب هدى.. ثم.. ثم يستمر في الضرب وقد تملكت منه حالة الغضب إلى أقصى درجة.

بعد لحظات يجد يده معلقة في الهواء وهدى تقف أمامه بمنتهى الهدوء.. نعم تتألم ودموعها تنهمر.. لكنها تقف لا تبالي بما يفعله.. هي صامدة.. يُفاجأ.. يتوقع أن توافقه وهي تنسحب.. لكنها تواجهه ومن عينيها ينبعث شرر لا طاقة له بتحمله، حالة غريبة عليها هدى الآن.. جسد آخر غير الذي يعرفه.. يهرب بعينيه ناحية أروى فيجدها قد دفنت وجهها بين راحتيها وهي تضم ركبتيها إلى صدرها وتنتفض في مكانها، في محاولة أخيرة لاستمالتها يعود إلى الخلف خطوة وهو يقول:

- أروى ابنتي وأنا أعلم بمصلحتها..

وتأتي إجابة هدى صادمة.. تقول بقوة وإصرار:

- أروى ليست ابنتك..

يقف وقد شلت الكلمة لسانه.. تزفر هدى بشدة كأنها ألقت من فوق صدرها حملًا بثقل جبل، أروى تهز رأسها لحظة ثم تتأمل أمها فلا تراها بوضوح من أثر الدموع التي تملأ عينيها فتمسحها بظهر يديها بسرعة، تجد أمها تضم ذراعيها على صدرها.. بينما توفيق يهمس:

- ماذا؟!

تبتلع هدى لعابها القليل جدًّا من أثر الانفعال.. ثم تقول:

– ما سمعته يا توفيق ولن أعيده.. لكنِ الآن هناك مطلب آخر تأخر طوال حياتي معك..

– مجنونة..

– طلقني يا توفيق.. الآن.

– ماذا؟!

– طلقني يا توفيق في هدوء حتى لا أحصل على حريتي بحكم محكمة.. وتنهار الصورة التي أفنيتَ عمرك في استكمال تفاصيلها..

تقول ذلك وقد انبعثت منها روائح الإصرار والقوة التي لم يعهدها فيها توفيق من قبل، الغريب أنها كانت بعد انفعال رهيب قد عادت إلى حالة من الهدوء والثبات جعلتْ توفيقًا يقف مشدوهًا مكبل اليدين واللسان.

تتحرك هدى ناحية ابنتها لتجذبها في هدوء، لا ترفع أروى عينيها إليهما خشية رؤية ما يفزعها، تهرب إلى داخلها، ترتمي إلى صدر أمها التي تسندها وتسير بها ناحية غرفتها حتى تُجلسها فوق حافة السرير ثم تغلق الباب عليها لتعود إلى توفيق الذي يتابع في صمت العاجز.

على بُعد خطوات تقف مواجهة له في الصالة وقد توحشت نظراتها، بعد فترة صمت أرسلت له خلالها الكثير من معاني التحدي والصمود والإصرار تقول:

- لا حلَ نهائيًا غير الطلاق يا توفيق.. والأفضل كما أخبرتك أن يتم في هدوء؛ لأنك هذه المرة خاسر مهما تفعل.

لحظة يتماسك توفيق ويُعمل عقله ويُظهر بعض المكر الذي اكتسبه عبر تلك السنوات، يقول:

- اهدئي يا هدى.. ولا تنسي عِشرة السنين.. من الممكن أن نناقش أمر أروى في هدوء.. أنا في النهاية أبحث عن صالح ابنتنا.

تفغر هدى فِيها دَهشَة، تتأمله وفي عقلها تدرك أنه لم يفهم ما قالته منذ لحظات.. لقد أخبرته أن أروى ليست ابنته، الآن يقول: "ابنتنا" ولم يدرك معنى ما قلته! يبدو أنه فهم الأمر على أنني التي ربيتها وهو عنا مسافر.. كنتُ أتوقع هذا يا توفيق، ولكني لن أتركك تستمر في ضلالك وغرورك، تتحفز أكثر وهي تقول في إصرار رهيب:

- أخبرتك أن أروى ليست ابنتك يا توفيق.. ويبدو أنك لم تفهم ما عنيتُ! ومنذ متى وأنت تفهم ما بي؟! أنا أعني المعنى الحرفي لكلماتي، وليس معنًى مجازيًّا كما قد يتبادر إلى ذهنك.. أروى ليست ابنتك.

هنا يبدو أن توفيق قد فهم المقصد الحقيقي، ترتعش أطرافه ويشعر بخواء رهيب، يبحث عن أقرب مقعد ليجلس عليه وإن جعل الحركة ساخرة.. فها هو الحديث سيطول وعليه أن يجلس ليستمع إلى ترهات الهانم زوجته، هذا ما كانت تعبيرات وجهه تحاول بثه من إشارات، إلا أن داخله المشتعل قد

غلبه فتطاير الشرر من عينيه وانتشر في أجزاء جسده بشكل أوشك أن يشل حركته، تستمر هدى في كلماتها قائلة:

- كنتَ تعلم بعجزك قبل زواجك بي يا توفيق.. وألقيت اللائمة على ذلك الحادث.. واتهمتني بأنني السبب..! إصرارك الرهيب على الزواج بي لم يدركه أحد وقتها.. إصرارك رغم معرفتك بأنني أحب غيرك، لكنك جعلتَ من نفسك الضحية وأنا الجانية.. استطعت التغلغل إلى عقل والديَّ وكل المحيطين لتفرضوا عليَّ الزواج بك.. حتى أمي اتهمتني في موت أبي.. جميعكم قتلتموني وكنتَ أنت زعيمهم يا توفيق، من أجل ماذا؟!.. من أجل نفسك.. صورتك.. كيانك.. حياتك التي تبحث عن كمال صورتها وإن وطئتَ بقدميك أجساد آخرين.. جسدي أنا وجسد مَن أحببته.. ضعفك وعجزك جعلك تتجبر يا توفيق.. لكن الحقيقة ظهرت لي ومن أول يوم.. أنت عاجز.. وبعد كل التحاليل والفحوصات.. أنت عاجز من قبل الحادث.. ومع ذلك أصررتَ على إجراء العملية.

كان توفيق يستمع وقد شرد ذهنه إلى تلك الأحداث.. يتذكر ما حدث في صمت.. لكن عندما ذكرت كلمة العملية وكأنها قشة يتعلق بها قال:

- ونجحت العملية وكانت أروى ابنتنا و...

ترفع هدى يدها في الهواء علامة أن يصمت.. لديها ما تقوله، كفى ترهاتٍ يا توفيق، انتظر واستمع.. تهمس في حدة وحنق:

– التحاليل أثبتت، غير عجزك، ضعف حيواناتك المنوية وأن نسبة نجاح العملية تكاد تكون معدومة، ولكنك أصررتَ على إجراء العملية.. و قد أجريتُ العملية بالفعل يا توفيق و... و..

تقتل الكلمات على أطراف لسانها، تهز رأسها كي تنزع نفسها من تلك الحالة، فتتراجع عما كانت ستقول، تقول في يأس وهي تنسحب ناحية غرفة ابنتها:

– لا.. لا.. يكفي هذا.. لا فائدة من أي حديث بعد الآن.. لن أزيد كلمة واحدة مهما يحدث ولن أحيد عن طلب الطلاق..(تدور لتواجهه مرة أخيرة) واليوم يا توفيق.. اليوم يكون الطلاق وبلا أي نقاش.. ولتطمئن.. إني متنازلة لك عن كافة حقوقي لو تم اليوم، أما لو ماطلتَ فسوف أحصل على الطلاق وحقوقي كافة. ولتعلم في النهاية أني لن أتركك تضيع ابنتي كما ضيعتني.

أروى في غرفتها وتعلم بأن الموقف مشتعل في الخارج، كانت تنتظر في كل لحظة أن يعلو الصراخ.. أن تهرب أمها من أمامه إليها في حجرتها، ماذا يحدث؟ ولماذا صوتها منخفض إلى هذه الدرجة؟! لم تجد أروى إجابة وما كان أمامها إلا الانتظار..

تشرد إلى مَن تحب.. إلى شادي.. تتمنى لو كان بجوارها الآن لترتمي على صدره.. تفكر لحظة أن تهاتفه من أجل أن يشاركها دموعها.. لكنها ترفض الفكرة.. ما يحدث أمر يخصها ويجب أن تستمر فيه حتى النهاية.. إن استطاع

والدها أن يؤثر في أمها ويقنعها ولو بالتزام الصمت، فعليها هي أن تقف وترفض ما يفرضه عليها والدها.. حياتها ومستقبلها يخصها هي.. ولن ترتبط بغير مَن تحب مهما يحدث..

يُفتح باب الحجرة في هدوء.. تدخل هدى وتغلق الباب خلفها وتُلقي ظهرها إلى الباب، تسند جسدها الذي كاد يسقط.. تشعر بضعف رهيب، تسقط هدى فوق مقعد بجوار الباب.. ما فعلته في الدقائق الماضية وما تحملته من ضرب توفيق.. ثم معاناة الاعتراف والمواجهة.. كان بالكثير على جسدها أن يتحمله، تقف إلى جوارها أروى وتضم رأسها إلى صدرها.. يبكيان.. تسألها أروى: ماذا حدث؟ تجيبها هدى في همس: "اطمئني يا ابنتي.. سوف نحقق ما نريد"، تواجهها أروى وتتأمل عينيها مباشرة مستفسرة عن سبب تأكدها، تبتسم هدى في شحوب يحاكي شحوب الموتى وهي تقول: "أخبرته بجزء مما احتفظتُ به طوال عمري معه.. ولا سبيل أمامه الآن غير تحقيق مطلبي".

يوشك النهار أن ينقضي وهدى وابنتها على تلك الحال.. بعد أن جفت مآقيهما يتمددان فوق السرير والصمت يلازمهما.. توفيق بين الفينة والأخرى يتحرك في الشقة مُصدِرًا صوتًا يتعمد إظهاره ليعبر به عن غضبه، يهذي بكلمات صارخة تصل إلى السباب البشع.. مع كل صرخة أو سباب ترتعد أروى وتنكمش في صدر أمها أكثر وما تمنت من قبل أن تعود جنينًا يستقر في رحمها قدر ما تتمنى الآن.. لِمَ تقسو الحياة على أولادها هكذا يا أمي؟! تهمس

أروى.. تربت هدى على ظهرها.. تمسد شعرها.. تهمس: ليست الحياة يا حبيبتي.. القسوة صنع بشري.

يسدل الليل أستاره ويعم الظلام الحجرة.. تشعل هدى أباجورة بجانب السرير تستعينان بضوئها على الظلام الذي يطبق على المكان وروحيهما.. فجأة يدق توفيق باب الغرفة بعنف.. تفزعان وتتكوران أكثر.. يصرخ توفيق:

– تطلبين الطلاق يا هدى؟!... حاضر.. أنتِ طالق.. طالق.. طالق.. لم تعد تربطني بكِ رابطة.. فلترحلا الآن.. سوف أخرج وأعود بعد ساعة.. أعود فلا أجدكما.. مفهوم؟!

قال كلمته الأخيرة صارخًا وهو يرفس الباب بقدمه فيتزعزع من مكانه جزء منه.. يستمعان إلى صفق باب الشقة خلفه وهو خارج.

في ظلام الليل.. وبعد أقل من الساعة يشاهد الناظر هدى وابنتها أروى يغادران الكمبوند تحملان حقائب صغيرة ويستقلان سيارة أجرة تقلهما إلى منزل هدى الذي ورثته عن والديها.

في اليوم التالي تستيقظان مجهدتين بشكل كبير، الإعياء يبدو عليهما وآلام مبرحة في كل جزء من جسديهما وكأنهما خارجتان من حلبة مصارعة حرة.. هدى تطلب أطعمة ومشروبات من سوبر ماركت قريب، إلى أن يأتي الدليفري تلقي هدى جسدها تحت الماء لتغسل هموم الماضي.. للمرة الأولى منذ أن فقدت حبيبها تشعر بحريتها.. تتنفس الصعداء.. الآن تستعيد حياتها.. سوف يتحقق حلمها في أروى.. تغيرت الحياة الآن يا حبيبتي ولن

أقسو عليك كما فعلوا بي من قبل. تخرج من الحمام منتعشة، يصل الديليفري.. تطلب من أروى الاستحمام لغسل آلامها حتى تُعد هي المائدة.

بعد قليل تجمعهما المائدة، هدى سعيدة إلى أقصى درجة.. أروى تحاول استيعاب الموقف.. تأبى عضلات وجهها الانبساط.. تمسك هدى بيديها في رفق مطمئنة.. تسألها أروى:

– ماذا سيحدث الآن؟!

– لا تسألي يا حبيبتي.. لقد ولدنا اليوم من جديد.. ولتنسي ما حدث بالأمس..

– الطلاق أمر صعب يا أمي..

– صعوبته كانت في تأخيره كل هذه السنوات يا أروى، في مثل حالتي هو أفضل الحلول.. الأهم الآن.. هو أن تتركي لقلبك العنان.. الحب يا أروى.. ما خُلقنا به ولأجله.. ولن تعود الحياة بيوم مضى يا بنيتي.

تحاول أروى مجاراة أمها في رسم حالة الهدوء وتناول الطعام، لكن لقيمة صغيرة تنحشر في بلعومها فتدفعها بالماء.. تلقي ما في يدها وهي ترنو إلى أمها بعين راجية.. تؤجل السؤال القاتل فلا تقوى على النطق به.. تسألها عن والدها.. قد يعود.. تخبرها هدى بأنه لن يعود.. هو يعلم جيدًا أنه خاسر في هذه الحرب ولن يزيد خسارته بالتمادي في المقاومة.. لا تقلقي عليه.. سوف يرتب أموره ويسافر ليعيش حياته هناك كما كان يعيشها كأن شيئًا لم يحدث..

تهمس أروى وهي تدق بأناملها فوق المنضدة " ثم؟!".. تتأملها هدى باسمة بعينين مرهقتين.. تهمس مقلدة إياها: "ثم ماذا؟!" وهي تعقص أنفها.. لا تشعر بنفسها وهي تعيد تعبيرات وجهها في أيام عشقها.. كانت تلك الحركة بأنفها من الأمور المحببة إلى قلب كريم..

تبتسم أروى بصعوبة من حركة أمها ومحاولتها الانتقال إلى مرحلة تالية أكثر هدوءًا، تتنفس بهدوء وتقرر أن تسأل:

- ماذا تعنين بقولكِ لبابا بأنني لستُ ابنته؟!

- أقصد كل ما تحمله الجملة من معنى يا أروى..

ترتبك لحظة وتشعر بهزة في داخلها، لا تستطيع مواراة حالة الدهشة والفزع التي ظهرت على ملامحها.. كانت حتى اللحظة تعتقد أنها كلمات نتاج انفعال وتوتر، كلمات قِيلت بمعنى أنه ليس مَن قام بتربيتها، لأنه مسافر على الدوام، لذا هي ليست ابنته!

لكن ها هي أمها تؤكد لها أن هناك معنًى حقيقيًّا خلف كلماتها.. في المقابل كانت هدى وبعد أن ألقت تلك الكلمات في وجه توفيق بالأمس وأخبرته بغاية الأمر ولم تخبره بالتفاصيل، قد اتخذت قرارها بأن تخبر أروى بالحقيقة كاملة.. من حقها أن تعلم.. ومن حق هدى أن تستريح من حمل هذا السر بعد سنوات طوال حتى كادت تسقط من تأثيره أكثر من مرة.

- أرجوكِ يا أمي.. رفقًا بي!

- سوف أخبرك يا حبيبتي بكل شيء.. وأنا أثق بأنكِ تملكين العقل والقلب لإدراك معاناتي ومأساتي.. ولي طلب واحد..

- ما هو؟!

- ما سأخبرك به.. حق لكِ يجب أن تعرفيه.. لكن لا يخرج منكِ مهما يحدث.. حتى توفيق لم يعرف منه إلا بعضه.. أما البقية التي سأخبرك بها الآن هي سِرُّنا يا أروى.

- حاضر يا هدى..

- وعد؟

- وعد..

- إذًا.. إليكِ الاعتراف الأخير يا حبيبتي.

تبتلع هدى لقمة أخيرة ثم تصب من زجاجة عصير جوافة في كأسها القليل.. تشربه في هدوء وتلذذ.. تشعر بروحها وقد غادرت جسدها وها هي تجلس مع حبيبها في مكانهما الخاص في الجامعة وقد أتى إليها بمشروبها المفضل، ترتشفه في جرعات صغيرة وترتشف من نظراته دفقات عشقه.. تخرج الكلمات منها في انسياب هادئ يحمل شوقًا وعشقًا تتلقاهما منها أروى كلمةً تلو الأخرى، تقول هدى:

- في ذلك اليوم الذي ذهبتُ فيه إلى المركز الطبي، وحدي، لمعرفة تفاصيل تخص إجراء العملية.. كما كان ظاهرًا، أما الحقيقة أني ذهبتُ كي

أسأل عن كريم وتلك الفتاة بصحبته، ولولا مرور كريم إلى جانب السيارة في اليوم السابق ودخوله إلى المركز الطبي ما ذهبتُ أنا في اليوم التالي (تتنهد وهي تتأمل ابنتها في شوق) وما أجريتُ العملية.. لأنني كنتُ بالفعل، بعد أن أخبرني الطبيب بحقيقة عجز توفيق وأن لا علاقة لعجزه بالحادث، قد اتخذتُ قراري بعدم إجراء أي عمليات، وأنني يجب أن أنفصل عنه.. أما وقد شاهدتُ كريمًا فافتعلتُ تلك الزيارة للمركز الطبي، وأخبرت توفيقًا بأنها زيارة تختص بالعملية، ولم أكن أيضًا قد اتخذتُ قراري، كل همي كان في معرفة سبب زيارة كريم للمركز.. لا أدري لماذا كنتُ أود أن أعلم! أو أني كنتُ أودُّ زيارة مكان ما يزال يحمل أنفاسه.. وتلك أمور يستسيغها القلب العاشق، علمتُ من صفاء أنه سوف يأتي بعد أسبوع، يوم الثلاثاء، لأخذ عينات لإجراء بعض التحاليل.. طلبتُ منها أن تحدد لي موعد إجراء العملية في نفس اليوم.

ترتشف من مشروبها القليل.. تمد يدها وتمسك براحة ابنتها في حنان.. إنها أروى.. حبيبتها.. قطعة منها وامتدادها وهي الخيط الوحيد الذي ربطها بهذه الدنيا.. مَن عاشت فقط لأجلها.. والحقيقة أنها عاشت بها، تستمد منها أسباب وجودها، تبتسم في هدوء مطمئن وهي تُكمل:

- ما لم أذكره من قبل هو ما سأعترف به الآن.. وهو ما أود أن يخرج من بئر أسراري إلى بئر أسرارِكِ يا أروى.. لا أعلم كيف أتتني تلك الفكرة

وقتها.. تخيلتُها هدية ألقاها القدر في طريقي.. في الليلة السابقة توقعتُ سبب زيارة كريم للمركز الطبي.. وكما أخبرتُكِ أنني كنتُ أنتقم من الجميع على طريقتي.. في هذا اليوم ظهرت الدهشة على وجه صفاء؛ لأنني وافقتُ على إجراء العملية، أخبرتني بأن أمل نجاحها صفر .. طلبتُ منها أن تنفذ ما أطلبه منها، وسوف أوضّح لها كل شيء حينما نلتقي خارج المركز الطبي في مكان بعيد، وأن تكون على استعداد لقضاء وقت طويل معي. والتقينا في اليوم التالي.. جلسنا معًا أكثر من ثلاث ساعات.. وكان هو اللقاء الأطول بيننا، لأننا لم نلتقِ إلا قليلًا خلال الشهور الأولى لمتابعة الحمل ثم سافرتُ مع توفيق، فانقطعت علاقتي بها تمامًا، يومها حكيتُ لها بدموعي قصة حبي أنا وكريم، وما حدث من والديَّ وتوفيق.. حكيتُ لها كيف منعوني من رؤيته.. كيف وصفوني بالجنون.. كيف اتهموني بأنني السبب في حادث توفيق، وأنني السبب في وفاة والدي، وأخيرًا بكيتُ أمامها وأن أصف لها كيف ينتفض توفيق فوق جسدي كل يوم ويفشل ثم ينتهي بإهانتي وضربي، أخبرتها وجسدي ينتفض كالمحموم كيف فض بكارتي بإصبعه! قالت لي من بين دموعها: ألم يكفِهم أن فرقوا بينكِ وبين حبيبك؟ يعذبونكِ هكذا؟! وكانت سمحة الطباع، رقيقة القلب، توطدت علاقتنا خلال الأشهر الماضية، وكانت تشفق على حالي كما ذكرتُ لكِ من قبل، في نفس الوقت الذي تنقم فيه من توفيق.. في هذا اليوم قدمتُ لها مبلغًا كبيرًا من المال مقابل ما سأطلبه منها لكنها رفضته بشدة..

كانت درجات توتر أروى في تزايد وهي تنتظر ذلك السر.. تستمع إلى التفاصيل وقد بدأت تتوقع أمرًا عظيمًا، كانت تنصت باهتمام بالغ ولا تعلم كيف تستدعي في خيالها صورة حبيبها، كأنه يجلس وينصت هو الآخر.. وهكذا كل محب.. حتى في أصعب الأوقات يشاركه حبيبه أموره وإن كان في خياله، تهز رأسها إلى أمها علامة أنها متابعة، تكمل هدى:

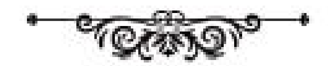
- قلتُ لصفاء كما تؤكدين أنتِ نسبة نجاح العملية ضعيفة لدرجة قد تصل إلى الصفر، وما أطلبه منكِ يا صفاء هو الاستيعاض عن "العينة المريضة" المأخوذة من توفيق بجزء من تلك "العينة" التي يقدمها كريم في نفس الوقت.. وكأننا عثرنا على متبرع كما يحدث في الخارج..(ترتجف أروى وقد أدركت أبعاد السر، لكنها لم تنبس ببنت شفة وهي تتأمل أمها التي تعاني بين شقاء وعشق وهي تكمل اعترافها الأخير): بعد لحظات من التفكير توافق صفاء وهي تقول: نعم يحدث هذا في الخارج.. وهذا ليس بالكثير فهناك مَن يتبرع بكليته أو بجزء من النخاع أو بفص من الكبد.،.. أطلب منها السرية التامة.. وبالفعل تعدني صفاء بأنها سوف تنجز الأمر، وأنها سوف تحتفظ بالسر إلى الأبد.. وفي الموعد المحدد يجري الأمر بمنتهى البساطة.. أنا في حجرة العمليات في المركز الطبي وفي انتظار الطبيب.. صفاء في غرفة خاصة باستقبال العينات، تستبدل جزءًا من عينة كريم بعلبة عينة توفيق، كنتُ أدرك أن كريمًا وتوفيقًا في هذا التوقيت قد يتقابلان لأي سبب،

لكني أعلم أيضًا أن كلًّا منهما لا يعرف الآخر.. وهكذا تم الأمر ونجحت العملية.. وعشتُ أنا أجمل إحساس وفي رحمي جزء من كريم.. وكنتِ أنتِ يا أروى.. أنتِ مَن جعلني أتقبَّل الاستمرار في هذه الحياة.. كنتِ صورة كريم تنمو في رحمي ثم تنمو أمامي مثل زهرة يومًا بعد يوم.. أحبُّها وأُدلِّلها وأعشقُها.. أنتِ يا أروى ابنة كريم .. ابنته الجينية.

تتأرجح أروى بين ألف معنى..

تهمس: "أنا ابنة كريم؟!"

(تمت)



- المسرحية الكوميدية: آدم تو.

روايات:

- عمدة عزبة المغفلين.
- مطلب كفر الغلابة.

- ماريونت.

- وحي العشق.

- ظلال الموتى.

- شبه عارية.

- ما قبل اليوم الأخير.

- المُدنَّس.

- أسيرة العشق.



أَسيرةُ العشق

قال "أحبكِ"..

يا كل آلهة العشق.. يا إيزيس.. يا حتحور الفرعونية.. عشتاروت الكنعانية.. أفروديت اليونانية.. فينوس الرومانية.. يا كل آلهة الحب لتنحني جميعًا تبجيلًا لهذه اللحظة التاريخية..

يا كل عُشاق الكون.. يا عبل.. يا عامرية.. يا جوليت.. يا أصحاب القلوب النابضة.. يا ضحايا العشق.. يا زهور الأرض.. يا طيور السماء.. يا نسمات الغرام .. يا قطرات المطر.. يا حبات الرمال.. يا فراشات العالم.. هلموا إلى.. هلموا حاملين الدفوف، ونايات الغرام، وقيثارات الهوى لتزفوا قلبي إلى قلبه ..

لقد قال "أحبكِ"..

تصميم الغلاف : مروة خطاب


ISBN 978-977-786-181-6
9 789777 861816

